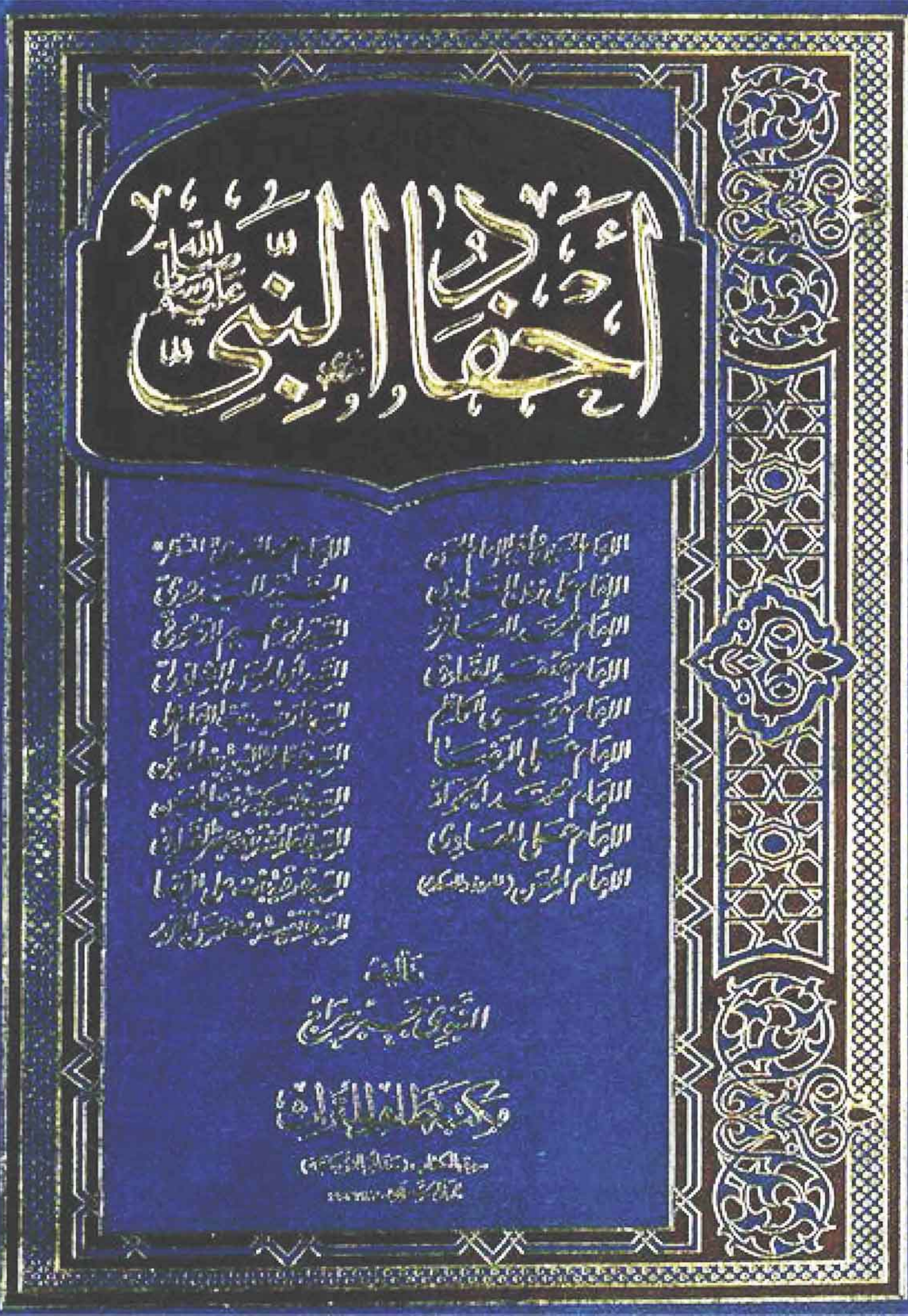

أحفاد النبي
صلى الله عليه وسلم
تأليف

آل البيت

أحفاد النبى ﷺ

الإمام الحسين وأخيه الإمام الحسن
الإمام على زين العابدين
الإمام محمد الباقر
الإمام جعفر الصادق
الإمام موسى الكاظم
الإمام على الرضا
الإمام محمد الجواد
الإمام على الهادى
الإمام الحسن (المعروف بالعسكرى)

الإمام محمد المهدى «المنتظر»
السيد البدوى
السيد إبراهيم الدسوقى
السيد أبو الحسن الشاذلى
السيدة زينب بنت الإمام على
السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين
السيدة سكينة بنت الحسين
السيدة عائشة بنت جعفر الصادق
السيدة رقية بنت على الرضا
السيدة نفيسة بنت حسن الأنور

تأليف

النبوى جبر سراج

مكتبة ناشر للتراث
سوق الكتاب (حديقة الأزبكية)
جمال شعلان ت: ٤٩٠٢٧١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢٥٤ / ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى كل من يحمل مشاعر الحب لأحفاد النبي ﷺ، الذرية المطهرة..
أقول لهم:

فـيـا من يواليـهم ويحـفظ ودهم
ويكرم مـثـواهم هنيئـا لك البـشـرى
فـلا بد يوم العـرض تـسـمع قـائلا
تفـضل تفـضـل فـادخل الجنة الخـضـرا

وأقول:

وقد كفاني أني محب والمرء مع من أَحَبَّ يحشَر

هذا كتاب محبة لأحفاد النبي ﷺ وهم:

- الإمام الحسين وأخيه الإمام الحسن
- الإمام على زين العابديـن
- الإمام محمد الباقـر
- الإمام جعفر الصـادق
- الإمام موسى الكاظـم
- الإمام على الرضـا
- الإمام محمد الجـواد
- الإمام على الهـادى
- الإمام الحسن (المعروف بالعسكرى)
- الإمام محمد المهدى «المنتظر»
- السيد البـدوى
- السيد إبراهيم الدسـوقى
- السيد أبو الحسن الشـاذلى
- السـيـدة زينب بنت الإمـام على
- السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين
- الســيـدة سكينة بنت الحسين
- السيدة عائشة بنت جعفر الصادق
- السـيـدة رقـيـة بنت على الرضـا
- السيدة نفيـسة بنت حسن الأنور

تأليف: النبوى جبر سراج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصـحابه الغر الميامين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

لقد شاء الله تعالى أن يحـفظ ذرية رسوله ﷺ وهم المعروفون بأهل البيت النبوى فى ذرية ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، من الإمام على كرم الله وجهه، فقال ﷺ «كل بنى أنثى فإن عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإننى أنا عصبتهم، وأنا أبوهم» (أخرجه الطبرانى فى الكبير)، ولذلك درج الحســن والحسين على نداء جـدهم بـ [يا أبت]، بينمـا كـان الحسن يقول لأبيه رضي الله عنه يا أبا الحسين، ويقول الحسين لأبيه يا أبا الحسن، ولأن ذرية رسول الله ﷺ قـد ورثوا عن جدهم العلم والحكمـة والأخلاق الكريمة والآداب العالية والسلوك المستقيم، فقد وضع الله محبتهم فى قلوب العباد، لأن رسول الله ﷺ كان يحبـهم حبا عظيما، ووصى بمودتهم وهى الثبـات على محبتـهم، وحذر من بغضـهم ومعاداتهم، ولقد شـرفهم الله بكرامته إكراما لنبيه ﷺ، فوجبت محـبتهم ومودتهم ومعرفة منزلتهم، ففى الحديث الشريف، عن مجاهد رضي الله عنه، خرج رسـول لله ﷺ وهو آخذ بـيد فاطمة ابنتـه فقال «من عرف هذه فقد عـرفها ومن لم يعرفها فـهى فاطمة بنت محمـد، وهى بضعة منى، من آذاها فقـد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله»، [أخرجـه الطبراى فى الـكبير].وأول آل الـبيت، الحســن والحسين، وأبوهما وأمهما، الإمام على والسـيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما، ثم

ذرية الحسن والحسين بعدهما. . وقد خص رسول الله ﷺ الحسين بحديث شريف، فقال: «حسين منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا» [رواه الحاكم وصححه، وقال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

ثم حفظ الحسين رضي الله عنه ذرية آل البيت فى ابنه على زين العابدين، الملقب بـ(السّجّاد)، وهو الذى نجا من القتل فى كربلاء، فقد احتمى بعمته السيدة زينب وهو صبى، حينما صاحت فى القتلة: إنه بقية جدى، فماذا تقولون لجدى إن قتلتموه؟

ومن ذرية زين العابدين تواصلت ذرية آل البيت من الحسين السبط، ومنهم الأئمة الذين جاء ذكرهم فى هذا الكتاب، وقد أطلق على ذرية الحسن والحسين بعد ذلك لقب «الأشراف»، وهم منتشرون فى سائر بلاد الإسلام، ولهم في مصر نقابة تضم منهم أكثر من مليون، ينتسبون إلى أحد الإمامين، الحسن والحسين.

ومن ذرية الحسين، خاصة الأئمة المعروفون بالإثنى عشرية، وهم: الإمام زين العابدين، فالإمام محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ثم موسى الكاظم، ثم على الرضا، ثم محمد الجواد، ثم على الهادى، ثم الحسن الملقب بالعسكرى، ثم آخر الأئمة محمد المهدى الملقب بـ(المنتظر).

وهؤلاء هم الطبقة الأولى من ذرية الحسين رضي الله عنه، ومنهم أيضا من ذرية الحسن، زيد الأبلج، والحسن الأنور، والد السيدة نفيسة، وغيرهم كثير، لقبوا بالأئمة. ونتناول هنا الطبقة الأولى من أبناء الحسين رضي الله عنه وعددا من الطبقة الثانية من الذين جاءوا بعد الطبقة الأولى.

والطبقة الثانية من آل البيت، تضم أقطابًا ظهر دورهم فى الحياة الإسلامية منذ القرن السابع الهجرى، وعلى رأسهم السيد البدوى، والسيد إبراهيم الدسوقى، وخاله سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنهم جميعا.

ومن السيدات الشريفات، السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية وأختها السيدة سكينة، ثم السيدة نفيسة والسيدة عائشة، ويطلق عليهن الشريفات، لنسبتهن إلى آل البيت النبوى الشريف.

ولقد كان للناس تعلق شديد بآل البيت لسببين، وصية رسول الله ﷺ بمودتهم والثبات على محبتهم، كما جاء فى كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، ولأن الشفقة عليهم كانت تزداد بسبب ما تعرضوا له من ظلم واضطهاد من قبل الخلفاء الأمويين، ثم العباسيين بسبب تخوف الخلفاء من ميل الناس إليهم والتفافهم حولهم ورغبتهم فى مبايعتهم بالخلافة، وخاصة منذ استشهد الحسين رضي الله عنه فى كربلاء، باستثناء الخليفة الأموى الراشد عمر بن عبد العزيز الذى أوصى بهم خيرا وأبطل الإساءة إليهم على المنابر، وكذلك الخليفة العباسى المأمون، الذى كان بطبعه يحب آل البيت ويكرمهم، كما سنرى، وذلك راجع لفهم الخليفتين الأموى والعباسى لهذه الآية من كتاب الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، حيث فُهِم منها إلحاق الذرية بصاحبها المؤمن يوم القيامة، وليس هناك أولى من ذرية رسول الله ﷺ لحوقًا به فى المقام الكريم! وكذلك من يواليهم ويحفظ ودهم ويكرمهم، كما قال المحب:

وقد كفانى أنى محب والمرء مع من أحب يحشر

وسبب ثالث لدوافع محبتهم أنهم تمسكوا بالأخلاق المحمدية الشريفة ونشروا العلوم المحمدية السامية، فقد كانوا يذكرون الناس بالجو الإسلامى الأول فى عهد جدهم المصطفى ﷺ، ويدعون الناس بلسان حالهم وبكلامهم القريب العهد من كلام جدهم ﷺ، ولا عجب، فهم الذين

شرفهم الله بكرامته بعد جدهم، واستحفظهم بعض كراماته، واستودعهم بعض علمه، وجعلهم عماداً لأمته، ودليله إلى الصراط المستقيم، يغتبط من والاهم ويهلك من عاداهم، وهم الفروع الطيبة والشجرة المباركة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وصدق المحب:

هم القوم من صافاهم الود مخلصا تمسك في أخراه بالسبب الأقوى

موالاتهم فرض وحبهم هدى وطاعتهم ود وودهمو تقوى

كما قال راجيا:

فيارب زدني من يقيني محبة وزد حبهم يارب في حسناتي

وهذا الكتاب أيها القارئ الكريم ليس كتاب تاريخ وترجمة لآل البيت، بقدر ما هو كتاب محبة، بل دعوة من القلب إلى القلب لمحبة أهل البيت بأداء واجب المودة التي هي وصية رسول الله ﷺ بآل بيته وذريته من باب الوفاء له ﷺ، وقد دلت أفعالهم وأحوالهم على أنهم استحقوا شرف الانتساب لأكرم خلق الله، فلهم جهاد في سبيل الحق، ولهم مواقف كريمة، ولهم كلام نافع، شهد لهم العلماء بذلك، لذلك كانت لهم منزلتهم الكريمة عند السلف الصالح، وخاصة الخلفاء الراشدين، فكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول: «الصلة رحم رسول الله أحب إليّ من صلة رحمي»، كما تزوج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالسيدة أم كلثوم بنت الإمام علي ، لتكون له صلة بذرية المصطفى ﷺ، كما أخبر بذلك، ثم سار على ذلك أهل الصلاح وكل المحبين لرسول الله ﷺ.

وأحفاد رسول الله ﷺ الذين يحدثك عنهم هذا الكتاب، هم المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، لشرف انتسابهم إلى أحب أحبابه ﷺ، ولتمسكهم بأخلاقه وبسلوكه واهتدائهم بهداه، فاستحقوا محبة الناس الذين وصف محبتهم، فقال أحدهم:

فإن كان ذنبى أن قلبى يحبهم   فإن ذنوبى لن تلم بها حصرا

ومن هنا، فإن محبة آل البيت، أحفاد النبى ﷺ، ليست إلا تعويضا لهم عن معاناة وآلام تحملوها صابرين، لا لذنب اقترفوه، وإنما لسوء ظن الحكام بهم، كما خذلهم بعض أعوانهم، الذين قالوا لهم قلوبنا معكم، ولكن سيوفنا على رقابكم، نكثا للعهد وخوفًا من بطش السلطان. فما أحوجهم إلى نفحة الحب والمودة، فهم نماذج إسلامية رائعة يلزم أن تعرف الأجيال عنهم مواقفهم ومبادئهم الكريمة وسلوكهم الطيب المهتدى بسلوك المصطفى ﷺ، فلهم واجب المودة التى يعبر عنها بزيارتهم فى أضرحتهم والدعاء لهم، وإن أرواح الصالحين لتتعارف مع أرواح الزوار، وخاصة فى أماكن جرّب الناس عندها استجابة الدعاء ونزول السكينة والرحمة، بشرط أن يكون بنية الزائر الالتزام بالآداب الشرعية لزيارة أحد هؤلاء الأحفاد فى المسجد أو المزار المنتسب إليه والذى يحمل اسمه، وقد تكون المساجد والمزارات التى تسمى بأسماء أحفاد المصطفى ﷺ مثل مسجد السيدة سكينة والسيدة فاطمة النبوية قد شيدها بعض الصالحين الذين نذروا لله أن يبنوا مسجدا يحمل اسم شريف من آل البيت تيمنا وتبركا وإحياء لذكرى أهل البيت الذين لهم فى قلوب الناس المنزلة الكبيرة والمحبة، كما قد يكون المسجد قد بنى بسبب رؤيا منامية لأحد الصالحين يفهم منها أن يقيم بيتا لله يحمل اسمًا شريفًا من أسماء آل البيت وهذه البيوت تعرف بمشاهد

الرؤيا.. وهى منتشرة فى كثير من البلاد الإسلامية، ومصر خاصة لها النصيب الأكبر من هذه المساجد والزوايا والمشاهد والأضرحة، وكلها معدة للصلاة والعبادة وتلاوة القرآن وذكر الله فى كل وقت، فهى بيوت أذن الله أن ترفع لذكره.

وإذا اختلف المؤرخون فى من دفن فى القبر الذى بجوار المزار أو المسجد فإن ذلك لا يقلل من ثواب المصلى لله فى بيت من بيوت الله، ولو كان كمفحص قطاة، كما يصل منه الثواب لمن سمى باسمه من الأحفاد كهدية من المصلى له من قراءة قرآن ودعاء، فضلا عن التأسى بأخلاق هؤلاء الذين دعا لهم رسول الله ﷺ ووصانا بمحبتهم ومودتهم، وما يعرف بالضريح تسمية أطلقها أهل السنة، وما يُعرَف بالمشهد تسمية أطلقها الشيعة، وكلاهما يعنى القبر الذى غالبا ما يعلوه قبة دفن تحتها رجل مسلم أو امرأة مسلمة من الأحفاد الذين يعتقد فى صلاحهم وتقواهم، كالمشهد الحسينى والمشهد الزينى وضريح الإمام الشافعى فى مصر وفى كثير من بلاد المسلمين.

●●●

أحاديث الإمام السيوطى

هذه مجموعة أحاديث من ستين حديثا نبوياً جمعها الإمام السيوطى رضي الله عنه فى رسالة تحت عنوان «إحياء الميت بفضائل أهل البيت»، أحفاد المصطفى رضى اللهعنهم.

وقد سجلها مؤلفو كتاب آل بيت النبى ﷺ الأساتذة الكرام، حمزه النشرتى وعبد الحفيظ فرغلى وعبد الحميد مصطفى، وهم من أهل محبة آل البيت الذين حفظوا تراثهم ومناقبهم وعرّفوا بسيرتهم بأسلوب يدعو الناس إلى محبتهم ومودتهم والاعتقاد فى فضلهم وفى مكانتهم عند الله تعالى، فجزاهم الله خير الجزاء، فقد قاموا بتخريج هذه الأحاديث الستين والتعليق عليها.

والإمام جلال الدين السيوطى الشافعى، جامع هذه الأحاديث هو صاحب المؤلفات التى زادت على الخمسمائة مؤلف فى شتى فنون المعرفة والعلم على رأسها تفسير القرآن الكريم، المعروف بـ«الدر المنثور فى التأليف بالمأثور»، وفى الحديث الشريف كتاب جمع الجوامع أحصى فيه أحاديث الرسول ﷺ.

وفى اللغة كتاب «المزهر» الذى يعد درة من درر اللغة العربية، وتفسيره للقرآن الكريم المعروف بـ«الجلالين»، أى الجلال السيوطى، وهذا اسمه، وحقه الجلال المحلى.. وقد توفى رضي الله عنه عام ٩١١ هـ ودفن بمدينة القاهرة بجوار مسجد السيدة عائشة رضى الله عنها.

ونقول: إن ما في هذه الرسالة من الحديث الصحيح ملزم لنا وما أشير إليه من ضعف؛ فعلينا أن نأخذ بمضمونه في صالح الأعمال، فحسن الظن خير للمسلم ما دام الحديث يحث على الفضائل ويدعو إليها. ونختار من هذه الأحاديث الستين، هذه المجموعة الشريفة في فضائل أهل البيت.

وأول هذه الأحاديث حول الآية الكريمة ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ «أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي»، أخرجه أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد.

وأكد المعنى سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير في معنى القربى، أنها قربى رسول الله ﷺ.

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن عبد المطلب بن ربيعة رضي الله عنه، دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال، إنا لنخرج فنرى قريشا تتحدث فإذا رأونا سكتوا، فغضب النبي ﷺ، وظهر عرق بين عينيه، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي»، جاء ذكره في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي. وقال آخرون في معنى الآية: أن تودوني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبروهم.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم والطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، لما نزلت الآية الكريمة قالوا: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما (الحسن والحسين)».

والمودة لآل البيت تعني حبهم والدعاء لهم بما استحقوا من الفضل.

يقول رسول الله ﷺ «والله لا يدخل قلب رجل مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»، والحديث فى المسند لابن حنبل وكنز العمال والدر المنثور للسيوطى، وأخرجه الحاكم والنسائى والترمذى وأحمد.

وأخرج مسلم والترمذى والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «أذكركم الله فى أهل بيتى»، والحديث ورد فى صحيح مسلم (فضائل الصحابة).

وأخرج الترمذى والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال، قال رسول الله ﷺ «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى»، والحديث فى المعجم الكبير للطبرانى وحلية الأولياء، وأخرجه السيوطى فى جمع الجوامع.

وأخرج البخارى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال: (ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته)، فى فتح البارى شرح صحيح البخارى فى فضائل أبى بكر عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وأخرج ابن عدى عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ «من أبغضنا أهل البيت فهو منافق»، أورده السيوطى فى الدر المنثور، وآخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قبل انتقاله للرفيق الأعلى: «أخلفونى فى أهل بيتى»، أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما، وورد الحديث فى مجمع الزوائد، والمراد كونوا معهم كما أكون.

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى والطبرانى عن سلمة بن الأكوع، قال: قال رسول الله ﷺ «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان

لأمتي»، ورد هذا الحديث في المستدرك ومجمع الزوائد.

وأخرج الطبراني عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كل بنى أنثى عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإنى عصبتهم وأنا أبوهم». الحديث فى المعجم الكبير للطبراني وكنز العمال.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببى ونسبى»، ولسبب هذا الحديث تزوج عمر رضي الله عنه أم كلثوم ابنة الإمام على كرم الله وجهه، ليكون له نسب بآل بيت النبى ﷺ، فنسبه ﷺ لا ينقطع يوم القيامة، والحديث فى المعجم الكبير ومجمع الزوائد.

وأخرج الحاكم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «وعدنى ربى فى أهل بيتى من أقر منهم بالتوحيد ولى بالبلاغ لا يعذبهم»، والحديث فى المستدرك وكنز العمال والكامل فى الضعفاء لابن عدى.

وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله تعالى﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾[الضحى: ٥]، قال من رضا محمد ﷺ الا يدخل احد من أهل بيته النار. وهذا الحديث فى جامع البيان فى تأويل آي القرآن.

وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «أول من أشفع له من أمتى أهل بيتى» (المعجم الكبير للطبراني والجامع الصغير ومجمع الزوائد).

وأخرج الديلمي عن على كرم الله وجهه قال، قال رسول الله ﷺ

«أدبوا أولادكم على ثلاث خصال ؛ حب نبيكم وحب أهل بيته وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظله مع أنبياء الله وأصفيائه»، والحديث فى كشف الخفاء للعجلونى وكنز العمال لابن حسام الدين الهندى.

وأخرج الديلمى عن على كرم الله وجهه قال رسول الله ﷺ «أثبتكم على الصراط أشدكم حبا لأهل بيتى وأصحابى». (ورد فى كنز العمال والكامل فى الضعفاء لابن عدى).

وأخرج الديلمي عن على كرم الله وجهه قال رسول الله ﷺ «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة؛ المكرم لذريتى والقاضى لهم الحوائج والساعى لهم فى أمورهم عندما اضطروا إليه والمحب لهم بقلبه ولسانه». (ورد فى أتحاف السادة المتقين وكنز العمال).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «إن الله يبغض الآكل فوق شبعه، والغافل عن طاعة ربه، والتارك لسنة نبيه، والمبغض عترة نبيه، والمؤذى جيرانه» (ورد في كنز العمال وكشف الخفاء للعجلونى وجمع الجوامع للسيوطى.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «من أولى رجلا من بنى المطلب معروفا فى الدنيا فلم يقدر المطلبى على مكافأته فأنا أكافئه عنه يوم القيامة». (ورد فى حلية الأولياء لأبى نعيم وكنز العمال).

وأخرج البارودى عن ابى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، وعترتى أهل بيتى، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض». (صحيح الترمذى)، وهكذا نرى أن مودة هؤلاء المطهرين واجبة

ونافعة».

فيا من يواليهم ويحفظ ودهم ويكرم مثواهم هنيئا لك البـشرى
فلا بد يوم العرض تسمع قائلا تفضل تفضل فادخل الجنة الخضرا
ويا من يعاديهم لفـرط شقائه تمهل قليلا أنت فى سقـر الجمرا

نسأل الله ألا يحرمنا شفاعة جدهم ولا شفاعتهم يوم القيامة.. وأن يجمعنا بهم فى ظل جدهم المصطفى ﷺ مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين.

زيارة القبور مندوبة .. خاصة زيارة أحفاد النبى ﷺ

لقد كان حرص المحبين واهتمامهم على زيارة آل البيت أينما كانت أضرحتهم لاعتبار أن الزيارة فيها ذكرى من ذكريات الرسول ﷺ، فهم منسوبون إليه ﷺ، ومن حق المنتسب أن يكرم إجلالا للمنسوب إليه، ولهذا وضع العلماء المحبون المصنفات والمؤلفات فى فضل الزيارة وآدابها وترتيبها، وعلى رأس هذه المؤلفات كتاب «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» لشمس الدين محمد بن الزيات، فقد جاء فى فضل الزيارة قوله:

أما ابتداؤنا بالزيارة فمن المشهد النفيسى لما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض»، أخرجه الحكيم الترمذى وأبو يعلى فى مسنده، وقد أردت بذلك أن أبدأ بأصح المشاهد كما ذكر العلماء رضى الله عنهم، ولم أر أحدا من أرباب التاريخ يذكر أن هناك أصح من مشهد السيدة نفيسة، لأنها أقامت فى مصر أيام حياتها وحفرت قبرها بيدها رضى الله عنها، فمشهد السيدة نفيسة ثابت فى مكانه وهو نفس المكان الذى دفنت فيه رضى الله عنها.

وأما صاحب «نور الأبصار في مناقب آل بيت النبى المختار» الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجى قال:

اعلم أنه لا اعتبار لاختلاف الآراء حول دفن بعض أهل البيت بمصر أو بغيرها من بلاد المسلمين، فإن الأنوار التى على أضرحتهم شاهد صدق علي فضلهم، ولا ينكر ذلك إلا من ختم الله على قلبه.

ولذلك قال المحب فى تعدد مواطن دفن رأس الإمام الحسين:

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب

وذروا الجميع ويمموا نحوى فمشهده بقلبى

فإذا لم يكن الولى مدفونًا بمكان الزيارة، فإن ثواب الزيارة يصل إليه، وبهذه الزيارة يتحقق المعنى الذى يكنه الزائر فى قلبه ووجدانه للمزور، ولا شك أن القصد هو إحياء الذكرى للاتعاظ وللتعبير عن عواطف المحبة والمودة تلك التى أوصى بها رسول الله ﷺ لآل بيته خاصة فإن صلتهم ومودتهم إنما هى من صلته ومودته ﷺ، كما أن الصلاة عليهم تابعة للصلاة عليه فى التشهد، حيث يقول المصلى: (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم).

ولا شك في أن عطر النبوة قد سرى فى أرواحهم ثم سرى بدوره إلى محبيهم يملأ قلوبهم وصدورهم، وصدق المحب إذ يقول:

صلوا حبل ودى بالنبى وآله تمسكت بالمختار كلى وأجمعى

ومن حظ مصر أنها يضم ثراها الطيب أجداث كثير من أهل البيت

الطاهرين وتعلوها أضرحتهم المنيرة والتى تعلوها قباب كصورة مصغرة لقبة جدهم الخضراء التى تهفو إليـها قلوب المحبين وترتاح عندها أنفسهم، فآل البيت هم بعض من رسول الله ﷺ جدهم العظيم، ومـا هذا العدد الكبير من أهل البـيت ومن الأوليـاء بمصر إلا بسـبب حب المصـريين لهم حبـا فطريا، مـودة وصلة بالنبى ﷺ، ويظهـر هذا المعنى فى حـسن استـقبـال المصريين لمن وفد إلى مصر من بلاد الحجاز منذ قدمت السيدة زينب رضى الله عنها ومعهـا كوكبة من آل البيت الأطهار، فـقد خرج الحكام والأثرياء والشيوخ والصبـيان لاستقبالها على الحـدود استقبالا قلبيا ممزوجـا بالبهجة والتقدير، رمزا للوفاء والحب والتكريم لأحباب رسول الله ﷺ.

ولقـد أثنى رسـول الله ﷺ فى الحديث الشريف على أهـل مصـر ووصى بهم خيـرا فقال ﷺ «إذا فتح الله عليكم مـصر فاستوصـوا بأهلها خيرا، فـإن لهم ذمة ورحمـا» (الطبرانى فى الكبير عن كـعب بن مالك). فالسيـدة هاجر أم سيدنا إسماعـيل عليه السـلام مصرية، والسـيدة مارية أم المؤمنين أيضا مصرية، وهذا هو معنى الذمة والرحم.

ومن فيض محبتهم قال المحب:

لآل البـيـت عـز لا يزول	وفـضل لا تحـيط بـه العـقـول
وإجـلال ومـجد قـد تسـامى	ونور مـا لغـايتـه وصـول
زكـوا أصلا بـنسبـتـهم ولكن	يطيب الفرع مـا طاب الأصول
مـعـاذ الله أن أخـشى نكالا	ولى فى حـبـهم بـاع يطول

وللشاعر محمد جاد الرب عليه رحمة الله يقول عند زيارتهم:

على الأعتاب يا آل النبى وقفنا بين أيديكم نحيى
نحيى بالصلاة على الصفى محمد النبى الهاشمى
على الزهراء أم النيّرين على السبْطَيْنِ قرة كل عين
حبيبى روحنا حسن حسين على الأب فى معاليه على

ثم يقول:

لقد باركتمو الأقطار طرا بمكة أو بطيبة أو بمصر
وقفت عليكم شعرى ونثرى فيا حظ الفواصل والروى

وللشيخ عبد الرحمن الأجهورى رحمه الله:

آل طه لكم علينا الولاء لا سواكم بما لكم آلاء
حبكم واجب على كل شخص حدثتنا بضمنه الأنبياء
شرفت مصرنا بكم آل طه فهنيئا لنا وحق الهناء

وقال المحب كذلك:

إليكم كل مكرمة تأول إذا ما قيل جدكم الرسول
أبوكم خير من ركب المطايا وأمكم المفطمة البتول
إذا افتخر الأنام بمدح قوم بخدمتكم تشرف جبرائيل

■ ■ ■

سيرة أحفاد النبى ﷺ

بعد وفاة رسول الله ﷺ، تعرض آل البيت أحفاد النبى ﷺ إلى كثير من أنواع البلاء والظلم والاضطهاد. ومنذ بدأت العلاقة تتوتر بين السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وأبى بكر الصديق رضي الله عنه، مع أن هذه الخصومة كانت خصومة شريفة، فأبو بكر يعرف قدرها وقدر آل البيت ومنزلتهم عند رسول الله ﷺ، بل إنه كان يقول (لصلة رحم رسول الله أحب إلىّ من صلة رحمى)، وكان سبب الخلاف أرضا تركها رسول الله ﷺ لابنته فاطمة، وقد عمل أبو بكر رضي الله عنه بهذا الحديث الشريف: **«نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، وما تركناه صدقة»**، ومن هنا توترت العلاقة بين الصديق والسيدة فاطمة الزهراء، ومن هنا كان أهل البيت فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما يلتزمون الصمت، وهو صمت أبلغ من الكلام، لكن مما كان يزيد ألم الصمت ما تردد آنذاك فى خلافة عمر رضي الله عنه هذه المقولة: (ما كان الله ليجمع لبنى هاشم بين شرف النبوة وعز الخلافة)، وأيضا فقد ولى عمر رضي الله عنه معاوية بن أبى سفيان، وهو ليس هاشميا، بلاد الشام، وكانت أخصب بلاد المسلمين آنذاك، وزاد فى همّ آل البيت أنهم أبدوا رغبتهم فى أن يأذن لهم أمير المؤمنين عمر فى الهجرة من الحجاز إلى أى بلد من بلاد المسلمين، فلم يأذن لهم، مع أنه كان كصاحبه أبى بكر رضى الله عنهما يجلهم ويعرف لهم قدرهم، بل إنه وثق العلاقة بهم عندما تزوج السيدة أم كلثوم ابنة الإمام على كرم الله وجهه، ليكون موصولا بقربى رسول الله ﷺ.

ولما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافـة، حدثت بعض الأمـور في سيـاسة الدولة، فقد ازداد نفوذ بني أمية، فـاضطربت الأحوال، التي سببت الفتنة التي كان ضحيتها الخليفة عثمان رضي الله عنه، ولم يجد الناس من يصلح للخلافة بعده غير سيدنا علي كرم الله وجهـه، فأرغموه على قبول الخلافة، ولكن بنو أميـة وعلى رأسهم معـاوية، هبوا مطالبين بدم عـثمان والقـصاص من القتلة فورا، وجعلوا هذا شرطا لمبايعتهم الإمام عليّ في ظروف كان الإمام لا يزال يعد الناس للخروج من آثار الفـتنة، والوقت ليس في صالحه حتى ينفذ القصاص فورا والفتنة لا تزال مشتعلة ولكنهم لم يمهلوه.

وأصرّ مـعاوية على موقـفه، وألّب الناس على الإمام، حـتى وقعت بينهمـا معركـة (صفّين) التي راح ضحيـتها كـثير مـن المسلمين، وظهرت أحزاب سياسية عملت على تمزيق كيان الدولة الإسلامية، فظهرت طوائف الخوارج ثم الشيـعة الذين كانوا من أنصار علي، ثم انقلب بعـضهم عليه، واستيقظت أحقاد قديمة سممت الجو وعكرته.

وازدادت الخطوب حـتى انتـهت بمقتل الإمـام علي في الكوفـة، ثم كانت الدائرة بعـده على ابنه الأكبر الإمام الحسن، الذي بـايعه أهل العراق ثم خذلوه، وكـانوا يرددون (قلوبنا معه وسيـوفنا عليه)، طلبا لمتـاع الدنيا وخوفا من بطش سلطـان الأمويين، وكذلك فعلوا مع أخيـه الإمام الحسين رضي الله عنه، بعد أن تنازل الحسـن لمعاوية إيثارا للسلام ولحـقن دماء المسلمين في أمر دنيوي حتما سينقضي زمنه مهما طال، وهو أمر الخلافة، وعملا بالأثر (من نافسك في دينك فنافسـه، ومن نافسك في دنياك فألقهـا في وجهه)، ولم يهـدأ للأمـويين بالٌ حـتى رأوا بأعـينهم الإمـام الحـسن وقـد مـات مسموما.. وجاء بعده دور الإمام الحسين، قرة عين رسول الله ﷺ، وسيد

شباب أهل الجنة، الذى لم يرض الدّنية فى دينه، وقدم روحه راضيا من أجل المبدأ الذى آمن به وهو ألا يحكم المسلمين يزيد بن معاوية الذى اغتصب أبوه له الخلافة وهو ليس أهلا لها، ولم يراع معاوية حين نصّب ابنه خليفة، مبدأ الشورى كما كان يزيد نفسه وكما عرف عنه أنه كان يستهين بأمور الدين، لذا، صمم الحسين على القتال رغم أنهم قتلوا من معه من أهل بيته من الرجال ومن أصحابه كذلك، وظل فى موقعه ليفوز بالشهادة التى بشّره بها رسول الله ﷺ، وبعد استشهاده فى كربلاء سيقت نساء أهل البيت الكريمات الطاهرات سبايا فى مشهد أبكى الصغير والكبير حتى وقفن بين يدى يزيد بن معاوية وأمامه رأس الحسين بقية جده المصطفى ﷺ، وقد حُملت الرأس على أسنة الرماح وطيف بها فى الشوارع فى المدن والقرى لإرهاب الناس، وانتهى مقام آل البيت وعلى رأسهم السيدة زينب رضى الله عنها إلى مصر التى عوضتهم ما ذاقوه من الآلام التى لا يتحملها إلا الصابرون، ولم يكن ذنبهم إلا أن الناس يحبونهم ويلتفون حولهم ويتحينون الفرصة للتعبير عن رغبتهم فى أن يكونوا هم الذين يتولون أمر المسلمين، فهم أهل بيت النبى الذين لهم الحق فى هذا الأمر قبل غيرهم.

وقد ظل أهل البيت من نسل الحسن والحسين فيما بعد فى المدينة أو فى العراق أو فى مصر تلاحقهم الخطوب من الخلفاء، سواء الأمويين أو العباسيين، فيما عدا بعض الخلفاء من أمثال عمر بن عبد العزيز، الذى أبطل سبهم والدعاء عليهم على المنابر يوم الجمعة لمعرفته قدرهم عند رسول الله ﷺ، ولقد كانوا كلما ظهر فيهم رجل وبدأ الناس يلتفون حوله سارعت الحكومة الأموية أو العباسية إما بسجنه أو بقتله أو بتشريده.

وكانت كل ثورة أو فتنة أو ثورة أو نقمة على الحكم تنسب إليهم، مع أنهم لا ذنب لهم فيها، وكأن كلـمة العلويين ذنبٌ يعاقب عليه كل علوى من ذرية الإمام على، فقد أهدر الخليفة المنصـور العباسى دم محمد بن يحيى العلوى بعد أن اتهمـه بأنه يطلب الخلافة، ورصد لمن يأتى به حيـا أو ميتا مائة ألف دينار، فـأخذ الحرس يجـدّون في البحث عنه، وكـانت الشرطة آنذاك على دين مـلوكـهم، فظفـر به أحـدهم ، وظن أنه قـد نال غنى الدهر[1]، كمـا ظن أنه قد نال مع المكافـأة الكبيرة رضـا السلطان، إلا أن النحس كان يلاحقه، فـقد استغاث محمد بـن يحيى برجل شهم نبيل هو معن بن زائدة الشيبـانى، قائد جيش المنصور، فأخذته النخـوة وامتلأ قلبه بالشفقة على هذا الذى يستغيث به، فـأيقظ الله فى قلبه ما كان مُدّخراً فيه من مشـاعر النبل، مع أنه كان قائـد جيش المنصور، فصـرخ فى الشرطى بلهجـة الآمر الحـاكم: دعه يا غلام، ولكـن الجندى لم يفعل، محـتمـيا بالخليفة، وقد وقف الثلاثة أمام الخليفة المنصور، الذى استشاط غضبا على معن، وقال له: أوَ تُجـير علينا وتحمى خصمنا يا معن؟ فـقال له معن: يا أمير المؤمنين، لقد قتلت فـى حبك ورضـاك فى يوم واحد قرابة ألف رجل من خصـمك، أفلا يسع جاهى عندكم أن أشفع فى رجل واحـد؟ فأطرق الخليفـة وسكت قليلا ثم قـال: صدقت، قـد وهبته لك، وعليـنا مكافأة الجندى، وأبى معن إلا أن يعـطى محمد بـن يحيى من ماله وينصـحه بأن يتّقى غضب الخليفة، وإلاّ يعرض نفسه لغضبه بعد ذلك.

ومثل هذا الرجل كثير، فقد ابْتُلىَ (البـرامكة) بنكبات بسبب موقفهم من العلويين، كذلك تعرض الإمام أبو حنيفة لنكبـة بسبب حبه لهم، فقد

---

(١) السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور، أحمد الشهاوى شرف الدين.

كان حبهم تهمة كفيلة بأن تعرض صاحبها للسجن أو القتل، كما أن مجرد التسمية بأسمائهم تعد تهمة تعرض الإنسان للانتقام من السلطات فى ذلك الوقت.

ولقد تعرض الحسن الأنور، والد السيدة نفيسة رضى الله عنهما، للتشريد فى البلاد، والحرمان من نعمة الاستقرار والأمان، فقد كان ضحية حب الناس لآل البيت، فتلك هى التهمة. ولكن دوام الحال من المحال، فلم يكن كل السلاطين على نمط المنصور فى نظرتهم لآل البيت، وكما حكى لنا التاريخ أن الخليفة العباسى المأمون كان يميل للعلويين، فقد يحبهم حقاً لا تكلفًا، وكان يحضر جنائزهم، فلما مات يحيى بن الحسين بن زيد صلى عليه بنفسه، وكان يقول: إنى عرفت الإمام على كرم الله وجهه لما وُلِّيَ الخلافة قد أحسن إلى بنى العباس، وما رأيت أحدا من العباسيين رد له الجميل فى ولده، فأحببت أن أكافئه على إحسانه فى ولده كما أحسن إلينا.

وأعجب لهذا الخليفة المأمون؛ فقد ولى الإمام على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الإمام الحسين رضى الله عنهم، ولاه العهد ووصى له بالخلافة بعد ذلك، وليس هذا الخليفة فقط هو الذى أحسن إلى آل البيت، بل إن الناس كانوا يحاولون تعويضهم عما لحق بهم من أذى حبا فى جدهم المصطفى ﷺ، وتقديرا لمزاياهم، فهم أهل العلم؛ وهم العترة الصالحة الذين تجرى دماء النبى ﷺ فى عروقهم، ويلمع ضوؤه فى بصائرهم، وتنال بهم الشفاعة إن شاء الله، وتعطر بذكرهم المجالس، فقد نشروا الآداب والأخلاق، فعظمت السماء شأنهم وأعلت الشريعة قدرهم، ونزل الوحى فى بيوتهم، فكانوا

يدعون إلى الحق ويدلون على الهدى، فاهتدى بنورهم الضالّون، واسترشد بضيائهم السالكون، فهم من صفوة الله في خلقه الذين أحبهم الله وحبب فيهم أهل مودته، فرضي عنهم وأرضاهم، وقد عادت إليهم قلوب العباد بعد قطيعة مؤقتة فعوضهم الناس بمودتهم وزيارتهم في قبورهم وعند مشاهدهم وأضرحتهم ويسألون الله لهم الرحمة والدرجات العلا، فرحم الله آل البيت ورضي عنهم وأرضاهم وجزاهم على صبرهم وما ابتلوا به جزاء الصابرين المحتسبين، فلقد كانوا يجودون بما يملكون، وكانوا يؤثرون على أنفسهم وهم محتاجون، فمنهم الإمام الشافعي رضي الله عنه، الذي كان يقول:

أجود بموجود وإن بتّ طاويًا
على الجوع كشحًا والحشا يتألم

فأظهر أسباب الغنى بين رفقتي
لأخفيهمو حالي وإني لَمُعْدَمُ

وبيني وبين الله أشكوه حالتي
حقيقًا فإن الله بالحال أعلمُ

ويلاحظ من تاريخ آل البيت أن مصر كانت موطنا لكثير منهم، اختاروها ورغبوا في المعيشة بين أهلها، فدفن في ثراها كثير منهم، وقد أنشئ لهم حي بأكمله يسمى (الحسينية) بمدينة القاهرة، وكان يقيم فيه كثير من أهل البيت، الذين عرفوا بالأشراف، وهم المنسوبون إلى الإمام الحسين رضي الله عنه، حضروا إلى مصر في عهد الدولة الأيوبية، وقيل إنهم حضروا إلى القاهرة في أيام الخلافة الفاطمية، وقد دفن كثير منهم في

مقابرٍ تعرف بمقابر الأشراف، وعندما وفد إلى مصر رجال من أهل البيت اختلطوا بالمصريين بالمصاهرة، وكثر عدد الأشراف نتيجة هذه المصاهرة فى مصر. والآن يذكر البعض بلفظ شريف قبل اسمه كلقب يتشرفون به. ويعلى منزلتهم في النفوس بسبب انتسابهم لجدهم الحسين رضي الله عنه، وكذا لجدهم الحسن رضي الله عنه وإلى الشجرة المحمدية الشريفة، ولا شك أنهم يحافظون على علاقاتهم الطيبة ومعاملاتهم الكريمة حرصا على نسبهم الشريف الذى يقتضى منهم ذلك، تأسيا بجدهم الإمام الحسين رضي الله عنه، الذى نصح أحد شيعته قائلا: (أحِبّونا لله، فإن أطعنا الله فأحِبّونا، وإن عصينا فأبغضونا)، فقال له الرجل: إنكم قرابة رسول الله ﷺ، فكيف لا نحبكم، وكيف يبغضكم أحد؟

فرد عليه الحسين: ويحك، لو كان الله نافعا أحدا بغير طاعته ولكن لقرابته من رسول الله ﷺ لنفع بذلك من هو أقرب من رسول الله منا (يقصد أبا لهب عم النبى ﷺ)، ثم قال: والله إنى لأخاف أن يضاعف الله للعاصى منا العذاب ضعفين وإنى لأرجو أن يُؤتى المحسن منا أجره مرتين، ثم قال: اتقوا الله وقولوا فينا الحق، فهو أبلغ فيما تريدون ونحن نرضاه منكم».

هذا ونحن نقول فى حبهم كما علمنا رسول الله ﷺ فى حق الأنصار: «**أحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**».

فقد أوجب علينا الدعاء لهم بالصلاة عليهم فى التشهد فى كل صلاة، كما قال الإمام الشافعى رضي الله عنه:

يا آل بيت رسول الله حبكمو
فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكمُ من عظيم الفضل أنكمو
من لم يصل عليكم لا صلاة له

أى تبطل صلاة من لم يصل عليكم فى التشهد الذى يقرأ فى الصلاة.

ويقول المحب:

هم العروة الوثقى لمعتصم بها
مناقبهم جاءت بوحى وإنزال
مناقب فى «الشورى» وسورة «هل أتى»
وفي سورة «الأحزاب» يعرفها التالى

يشير المحب إلى ذكر آل البيت بالفضل من الله تعالى فى سورة «الشورى» وسورة «الإنسان» (هل أتى) وسورة «الأحزاب».

ومن شرفهم أنهم جمعوا بين فضل الصحبة والقرابة، ثم اختص أحفادهم بفضل القرابة لرسول الله ﷺ أبناء الحسن والحسين وذرياتهما من بعدهم، وقد ورد في الأثر أن رسول الله ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين وقال: **«من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي يوم القيامة»**.

كما ورد أن رسول الله ﷺ قد نهى عن الصلاة البتراء، فسئل عن الصلاة البتراء، قال: **«تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»**. كما أوجب علينا أن نصلى عليهم بعد الصلاة على جدهم المصطفى ﷺ فى كل صلاة مفروضة فى كل تشهد حين نقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

ولقد التزم السلف الصالح بالمحافظة على مكانة أهل بيت النبى وأحفاده الكرام، فهذا الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز قال لعبد الله بن الحسين بن الإمام على رضى الله عنهم: إن كانت لك حاجة فأرسل إلينا، فإنى أستحى من الله أن تأتى فيراك الله على بابى. وكان قد أتاه فى حاجة له.

وإذا كانت المدينة المنورة قد شرفها الله تعالى بقبر رسول الله ﷺ ومسجده، فإن مصر التى هى كنانة الله فى أرضه، قد شرفها الله تعالى باحتوائها قبور عدد من ذرية النبى ﷺ، وهم الأحفاد المكرمون.

وقد سمعت ممن أثق فى حديثه أن أحد شيوخ الأزهر الشريف وكان محبا لمولانا الحسين ولآل البيت وكان يذهب كل سنة لزيارة رسول الله ﷺ فى مسجده كل سنة فى شهر رمضان، فسافر مرة وهو مريض، وبينما كان الشيخ فى الروضة الشريفة أخذته سنة من النوم فرأى رسول الله ﷺ يقول له ما معناه: لماذا تتعب نفسك وتأتى كل سنة؟ عندك الحسين ابننا تقضى عنده حاجتك.

وحدثنا شيخنا رضي الله عنه كذلك أن أحد العلماء، وسمى لنا اسمه، قال: أنا لا أعتقد أن رأس الإمام الحسين مدفونة فى القاهرة، عندها ألح عليه صديقه المحب للحسين أن يصحبه فى زيارة مولانا الإمام الحسين، فقبل هذه المرة، وكان قبل ذلك لا يوافق علي الزيارة، ثم فوجئ المحب أن صديقه هذا قد عاد إليه فى الليلة التالية وطلب إليه أن يصحبه لزيارة سيدنا الحسين، فتعجب الرجل وأحس أن صديقه قد رأى شيئا حوّله ودعاه

لتكرار الزيارة التى كان يتأباها من قبل، فسأله عن السبب، فأخبره أنه رأى فى المنام رجلا على هيئة نقيب الأشراف خرج من مقام سيدنا الحسين وسار به إلى أن دخل على مولانا رسول الله ﷺ، وقال: يا سيدى يا رسول الله، هذا فلان، زار مع صاحبه الشيخ فلان قبر ولدك الحسين بمصر، فقال رسول الله ﷺ: تقبل الله منهما، وغفر لهما، ثم قال صاحبى، فهذا الذى دعانى لأحضر وأطلب منك أن تصحبنى لزيارة مولانا الحسين. وحقا، فمن ذاق عرف، والخير كله في موالاة ذرية المصطفى ﷺ أينما كانوا.

●●●

الانتفاع بعلم وحكمة آل البيت أحفاد النبى ﷺ

لم يُؤثَر عن أهل البيت الكرام جهادهم فى العبادة وتفوقهم فى مكارم الأخلاق وكمالات السلوك الإسلامى فحسب، بل أيضا تفوقوا فى تنظيم حياة المسلمين فى المجالات المختلفة مسترشدين فى ذلك بما أخذوه عن جدهم المصطفى ﷺ، فتعلموا وعلّموا، ثم بينوا للناس، ولنا فى الإمام على كرم الله وجهه المثل فى مجال الأحوال الشخصية للمسلمين، وفى أحوال الأسرة المسلمة، وقد شهد له رسول الله ﷺ بذلك فقال: **«علىّ أقضاكم»** بعد ان اطلع على فتاواه فى اليمن فأقرها، وكان ﷺ قد دعا له فقال ﷺ: **«إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك»** ثم أوصاه قائلا: **«إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإذا فعلت ذلك، ظهر لك وجه القضاء»**.

وقد شهد عمر أمير المؤمنين لعلى كرم الله وجهه بفضله فى الفتيا وسائر علوم الدين، فقال: لولا على لهلك عمر، أى لولا فقهه وعلمه وقضاؤه، وقال: لا يفتى أحد فى المسجد وعلىّ حاضر.

وهذه بعض توجيهات الإمام علىّ فى شئون الأسرة ليتبين لنا أنهم أى أهل البيت أحق بالتكريم والتبجيل، فقد أسهموا فى نشر الإسلام، وأرسوا مبادئ هامة فى حياة المسلمين فى الدنيا والدين.

سئل الإمام عليّ رضي الله عنه عن رجل تزوج فتاة فماتت قبل أن يدخل بها، أيسوغ له أن يتزوج أمها بعد ذلك؟ فجاءت إجابته قاعدة شرعية: (مجرد العقد على البنات يحرم الأمهات بينما الدخول بالأمهات هو الذى يحرم البنات)، فلا يجوز له أن يتزوج أمها لأنه عقد عليها.

ومن أقواله كذلك تعظيما لأمر الطلاق وبيانا لخطورته: (الطلاق يهتز له عرش الرحمن).

ولما أراد عثمان أمير المؤمنين أن يقيم الحد على امرأة وضعت بعد ستة أشهر من الزواج، راجعه على كرم الله وجهه محتجا بالآية الكريمة ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾[الاحقاف:١٥]، فمن المعروف أن الإرضاع حولين كاملين، ويتبقى ستة أشهر لا ستكمال الثلاثين، وهذه الشهور الستة هى أقل مدة الحمل مستندا إلى قوله تعالى﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[البقرة: ٢٣٣]، فعندئذ أذعن عثمان رضي الله عنه لقضاء عليّ في المرأة، ولم يقم عليها الحد، اعتقادا فى فقه الإمام.

وفى مجال التربية، جعل الإمام للوالد على ولده حقاً، وللولد على والده حقاً، فحق الوالد على ولده أن يطيعه فى كل شيء إلا فى معصية، وحق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن وعلوم الشرع، أى العلوم التى كانت سائدة فى زمنه.

وكان الإمام يقول فى معرض التربية الخلقية ليفرق بين الحق والباطل: «الحق أن تقول رأيت، والباطل أن تقول سمعت».

ولقد كان الناس يحتاجون إلى علم سادتنا آل البيت وحكمتهم، فكان سيدنا عمر رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين يقول: آه من معضلة ليس لها أبو الحسن (يعني الإمام عَلِياً كرم الله وجهه).

وقد قالوا عنه: بادر بالفضائل فكان فى الأوائل، وخاض بحر الشجاعة فلم يرض بساحل، وحاز العلوم فحار بجوابه السائل، وزهد فى الدنيا لأنها أيام قلائل.

وقيل عنه حين قتله الشقى ابن ملجم فى الكوفة:

«لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم، ولم يدركه الآخرون ، كان رسول الله ﷺ يبعثه بالراية، وجبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، فلا ينصرف حتى يفتح الله له».

وكان يقول رضي الله عنه للدنيا حين أقبلت عليه: يادنيا غُرِّى غيرى، أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان، فهيهات أن يغلبنى الهوى، فأبيت مِلْءَ البطن وحولى بطون جوعى وأكباد حرّى، فإن الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بتخمة غنِيّ، ولذلك قالوا: إن الإمام على قد أنصفته فضائله، حيث لم ينصفه المحبون المغالون، ولا المبغضون الكارهون.

ومن كلامه: المرء مخبوء تحت لسانه، كل وعاء يضيق بما فيه إلا وعاء العلم، يتسع، وما أكثر العِبَر وأقل الاعتبار.

وقال ابن عباس رضى الله رضي الله عنه وهو حبر الأمة: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعى بكلام على بن أبى طالب.

ومن كلامه رضي الله عنه:

- لا تَسُبَّنَّ في السِّرِّ مَن أنت صديقه في العلانية.
- ليس مَن طلب الحقَّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه.
- احذَر كلَّ عمل إذا سُئلتَ عنه أنكرتَهُ أو اعتذرت عنه.
- الجاهلُ يُعْرَفُ بخصال الغضب من غير شيء، والكلام في غير نافع، والعطية في غير موضعها، ولا يعرف صديقه من عدوه، وإفشاء السر والثقة بكل أحد.
- اختر أن تكون مغلوبا وأنت منصِف من أن تكون غالبا وأنت ظالم.

لذلك حين رثاه محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: إن حزننا عليه قدر سرورهم به، إلا أنهم نَقصوا بغيضًا ونحن نقصنا حبيبا (يقصد خصوم الإمام).

وإذا نظرنا إلى ابنه الأكبر الحسن رضي الله عنه، وصاحب الأريحية التي أبت عليه أن تُراقَ دماء المسلمين في سبيل حظوة زائلة، وإن كانت حقه المشروع، وهي خلافة المسلمين بعد مقتل أبيه.

كان الحسين رضي الله عنه يعرف حقيقة الزهد ويطبقه على نفسه، فقد رآه رجل ممن يبغضون آل البيت يلبس أفخر وأبهى الثياب، وكان الرجل يلبس ثيابا رثة، فقال له الرجل معترضا: ألم يقل جدكم ﷺ **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**؟ وها أنت كأنك تعيش في جنة، فهذا حالي وهذا حالك في ملبسك وملبسي. فرد عليه الحسن رضي الله عنه: لو رأيت ما وعدني الله من النعيم والثواب، وما أعد لك من الجحيم والعقاب، لعرفت أنك الآن في جنة وأنا في سجن.

كما كان رده على الذين يلومونه على ترك الخلافة لمعاوية وتنازله عنها بقوله: إن هذا قدر، وإن الله تعالى يعلم أن معاوية ليس أصبر على الحرب والقتال منى، ولكنى أردت صلاحكم، وكف بعضكم عن بعض، فارضوا بقدر الله وقضائه حتى يستريح بارّ أو يُستراح من فاجر.

وكذلك كان أخوه الإمام الحسين رضي الله عنه على قمة الفصاحة والبلاغة.. قال شعرا ونثرا، ومن كلامه شعرا على سبيل المثال:

استرزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق

من ظن أن الناس يُغنونه فليس بالرحمن بالواثق

ومن كلامه نثرا على سبيل المثال كذلك:

- حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم فتعود نقما
- صاحب الحاجة قد لا يكرم وجهه عن سؤالك، فاكرم وجهك عن رده.
- الحلم زينة، والوفاء مروءة، والصلة نعمة، والاستكثار صلف، والعجلة سفه، والسفه ضعف، والغُلوّ ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شر، ومجالسة أهل الفسوق ريبة.
- نافسوا فى المكارم، وسارعوا فى المغانم، واكتسبوا الحمد بالمْنح، واعلموا أن المعروف يكسب حمدا ويعقب أجرا.
- من جاد ساد، ومن بخل ذلّ، وإن أجود الناس من أعطى مالاً يرجُه، ومن أحسن أحسن الله إليه، والله يحب المحسنين.

ولقد كانت بلاغتهم تكاد تكون ممتنعة على غيرهم، فهذا الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه يقول لرجل ممن يغلو في حبهم: ويحكم، أحبونا لله، فإن أطعنا الله فأحبونا، وإن عصينا الله فابغضونا، فقال له الرجل: إنكم قرابة رسول الله ﷺ وأهل بيته، فقال له الحسن: ويحك، والله لو كان الله نافعًا بقرابة من رسول الله أحدا بغير طاعة الله لنفع بذلك من هو أقرب إليه منّا (يقصد عمه أبا لهب)، والله إني لأخاف أن يضاعف للعاصي منا العذاب ضعفين، وإني لأرجو أن يؤتى المحسن منا أجره مرتين، ويلكم! اتقوا الله فينا وقولوا الحق، فإنه أبلغ فيما تريدون، ونحن نرضى به منكم. فقال له الرجل الرافضي: ألم يقل رسول الله عليه السلام لعلي جدكم: «من كنت مولاه فعَليٌّ مولاه»؟ فقال الحسن: أما والله لو كان يعني بذلك السلطان والإمْرَة لأفصَحَ بذلك كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت، ولقال لهم: أيها الناس، هذا وليكم من بعدى، فإنّ أنصح الناس لهم هو رسول الله ﷺ.

ومن كلام الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر رضي الله عنهما: أوحى الله إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك. ولما سئل عن علة تحريم الربا قال: لئلا يتمانع الناس المعروف.

ومن وصيته رضي الله عنه لابنه: يا بني، من قنع بما قسم الله له استغنى، ومن مد عينيه إلى ما في يد غيره مات فقيرا، ومن لم يرض بما قسم الله له اتهم الله تعالى في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره. يا بني، قل الحق لك أو عليك، يا بني، كن للقرآن تاليا، وبالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيا، ولمن قطعك واصلا، ولمن سكت عنك مبتدئًا، ولمن

سألك معطيًا. يا بنى، لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.

ولما سُئل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لِمَ كان الموقف في عرفة من وراء الحرم ولم يكن في المشعر الحرام؟ قال: الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والموقف بابه، فلما قصده الوافدون أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول، أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب القربان، فلما قربوا قربانهم وقضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب التى كانت حجابا بينه وبينهم أمرهم بزيارة بيته على طهارة.

فسألوه: فلِمَ يُكرهُ الصوم أيام التشريق فى عيد الأضحى؟ قال: لأنهم فى ضيافة الرحمن، ولا يجب على الضيف أن يصوم عند من أضافه.

ولما أحضروه إلى الخليفة المنصور، وكان عدوه، بادره المنصور بقوله: يا عدو الله، اتخذك أهل العراق إماما يجبون إليك الزكاة، وأنت تلحد فى سلطانى، قتلنى الله إن لم أقتلك.

فتحدث جعفر الصادق وقال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان عليه السلام أعطى فشكر، وإن أيوب عليه السلام ابتُلِى فصبر، وإن يوسف عليه السلام ظُلِمَ فغفر، وأنت أمير المؤمنين. فقال له: إليك عنى، وصرفه.

وهكذا استحقوا أن يكونوا أحفاد الذى أوتى جوامع الكلم، سيدنا محمد ﷺ، فقد انتفع الناس بعلمهم، وحكمتهم، كما انتفعوا بمسلكهم وبصفاتهم الطيبة الحميدة.

وقد قيل في فضائلهم الكثير، ومن كلام أبي الفرج بن الجوزي في التبصرة:

سبحان من كسا أهل البيت نورا، وجعل عليهم خندقا يقي الرجس وسورا، فإذا تلقّوا يوم القيامة تلقوا حبورا، ويقال لهم: ادّخرنا لكم اليوم نعيما مقيما، ومنحنا لكم فضلا جزيلا، أولَسْتُم قد أطعمتم مسكينا ويتيما، ورحمتم أسيرا، ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[الإنسان: ٢٢].

لقد كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ أحب الناس إليه، وكان عليّ أعز الناس عليه، وجعل الله له ريحانتيه من الدنيا، ولديه الحسن والحسين.

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: أراك تحب عليّاً فما أشد حبك لعلي، فقال سلمان، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني»[1].

---

(١) حديث حسن أخرجه الحاكم.

أحفاد النبى فى قلوب المحبين

لما كانت محبة أحفاد النبى ﷺ من محبة رسول الله ﷺ، فقد تغني المحبون قديما وحديثا بمحبتهم شعرا يسيل عذوبة ورقة، ويحرك حرارة الشوق إلى اللقاء بهم تحت لواء جدهم المصطفى ﷺ فى الجنة.. وهذا نموذج لمحب عصرى، أخذ الحب منه مأخذه، هو سيدى الشيخ على عقل، الشاعر الملهم، الذى يتفجر الشعر من قلبه على لسانه إلهاما حين يطلب منه وفى حينه، ولا يكف حتى يقال له قد أوشك الفجر أن يؤذن له الليلة، وهكذا كل ليلة فى مجالس الذكر.. وهذه نماذج قليلة من شعره:

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا ... بهم نلت كل الخير دناى والأخرى

لقد غرسونى من زهور رياضهم ... فطابت حياتى من مكارمهم زهرا

إذا قيل لى تهواهمو قلت ملكهم ... ووقف يمين لا يباع ولا يُشترى

تسامنوا على كل الأنام فضائلا ... وقد بيّن القرآن أوصافهم طُهرا

ولو أن جود العالمين أقيسه ... على جدهم يومًا لما مثّل العشرا

جداول من بحر النبى محمد ... فما مثلها تلقى جداول أو بحرا

فإن كان ذنبى أن قلبى يحبهم ... فإن ذنوبى لن تلمّ بها حصرا

أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى ... ولى لذة فى مدحهم تثلج الصدرا

على بابهم أسمو سموّ أولى النُّهى ... فإن هُمُ رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

وقد طلب إليه أحد الحاضرين أن يشطر له هذا البيت:

آل النبى تزايدت لوعاتى ... إن المقام سما على الكلمات

فأنشد فى التو واللحظة على مجلس الذكر:

آل النبي تزايدت لوعاتي ... أنفقت في شوقي لكم ساعاتي
منّوا عليّ فما اللسان بمسعفي ... إن المقام سما على الكلمات

فلما سأله تشطيرا آخر لنفس البيت قال رضي الله عنه فورا:

آل النبي تزايدت لوعاتي ... أنتم من الدنيا ضياء حياتي
ولكم كتمت من الجلال مقالتي ... إن المقام سما عن الكلمات

وفي نفس الوقت طلبوا منه أن يخمس البيت، فأنشد على الفور:

أنتم مناي ودعوتي بصلاتي ... ولقد غنيت بكم فنلت صلاتي
أفنيت عمري في الهوى وحياتي ... آل النبي تزايدت لوعاتي
إن المقام سما عن الكلمات

ثم طلب منه تخميسًا آخر للبيت فأنشد على الفور:

آل النبي تزايدت لوعاتي ... لا تحرموني الوصل قبل مماتي
ياطالبا وصفي لهم بالذات ... هات النجوم أصُغْ بها أبياتي
إن المقام سما عن الكلمات

ثم قام أحد الحاضرين وطلب من الشاعر الملهم أن يأتي فورا على وزن البيت التالي وقافيته، فأنشد الشيخ رضي الله عنه علي وزن هذا البيت:

ومهما ألام على حبهم ... فلست الفتى خائف اللائمة

قال:

ومهما ألام على حبهم ... فإني أحب بني فاطمة
فروحي على بابهم ترتمي ... ونفسي بأعتابهم خادمة
إذا مسّ نفسي فتور المعاصي ... بذكرهمو أصبحت هائمة
فيا عاذري ثم يا عاذلي ... سواءٌ رضاك أو اللائمة
فقل ما تشاء وكن ما تشاء ... فإني أحب بني فاطمة

ونرى سيدى محيى الدين بن عربى ينشد فى معنى الحديث الشريف: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتى لحبى»: (رواه الطبرانى).

أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما اختار خير الخلق منا جزاءه على هديه إلا المودة فى القربى

وعلى مر العصور، خص الله قلوبا حملت ونقلت محبة آل البيت إلى الناس، ومنهم المحب الذى قال:

يا آل بيت رسول الله حبكمو ثوب أعزُّ به والله جمَّله
كأن حبكمو أصلي وناشئتى وإننى من قديم قد خلقت له
من يوم كنت صغيرا إذ سمعت بكم أصابنى فى فؤادى الوجد والوله
كفى بأن الذى يأوى لساحتكم مولاى بالعز والإشراق فضله
وكم ذليل على الأبواب محتسب تفتحت جنة البارى تظلله
آل النبى كرام لا يضيع لهم راج ومن أمهم فالله يوصله
قد آنسونى إذ أُوحِشْتُ فى بلدى وكل من آنسوا تم الهناء له
وكل مدح حرام فى مذاهبه إلا مديحهم الرحمن حلله

وللعارف بالله الشيخ أحمد سعد العقاد فى حب آل البيت الأحفاد:

الكون ليل وفيه الخلق قد تاهوا وشمسها المصطفى والمنعم الله
وآل بيت رسول الله حجتنا كواكب أشرقت تهدى لعلياه
فكُن محبا لهم فى السير متَّبِعًا تنل وصولا إلى المختار ترضاه
فروع طه لهم وصل بحضرته ترى الضيا ظاهرا منهم إذا فاهوا
هم الشفا من البلواء عندهمو راح طهور ورب العرش حلاه

يارب فاجعل لنا من حبهم مددا وسلم القلب مما كان يخشاه
يارب صل على طه وعترته واحفظ فؤادي بعين الود ترعاه

وفي حب الحسين رضي الله عنه قال الشيخ علي عقل:

قالوا اعتراك تولهٌ فأحببتهم أنا مغرم قلبًا بحب حسين
فأبيت في آل النبي على جوى وأظل محسوبا علي السبطين
يا آل أحمد أنتمو كنز الندى فبكم ننال العز في الدارين
اهنأ بهم يا قلب والزم حبهم فغرامهم ينجى الفتى من هون
يا جسم ثابر في لزوم رحابهم يا أدمعي سيلى علي الخدين
لو قيل موتك أن تراهم لحظة لرضيت أن أحظى بقرب البين
لو أدرك العذال حلو غرامهم تركوا وعادوا العمر لم ينهونى

وللأستاذ محمد جاد الرب:

على الأبواب يا آل النبي وقفنا بين أيديكم نحيي
نحيي بالصلاة على الصفي محمد النبي الهاشمي
على الزهراء أم النيّرينِ على السبطين قرة كل عين
حبيبيْ روحنا حسن حسين على الأب في معاليه علىّ
بكم بزينب طرزت شعرى بكل سلالة البيت الأغر
لقد باركتم الأقطار طُرّاً بطيبة أو بمكة أو بمصرَ
نشأت وعشت محسوبا عليهم وسوف أموت منسوبا إليهم
فصل عليهم ربى وسلم وأسعدني بقرب سرمدى

وهذه قصيدة طويلة في وجوب زيارتهم نختار منها هذه الأبيات، وقد أنشأها الشيخ صالح الجعفرى رضي الله عنه :

إلهى بالنبى كذا بنيه تقبل دعوتى والسائلينا

رأيت المصطفى كالبدر يأتى يزور حسينه حسينا فحينا

فزوروا مثله سبطا سميا وكونوا مثل خير المرسلينا

وقل يا رب صل على النبى وآل محمد والمؤمنينا

سلام الود من قلبى إليكم ورحمة ربنا للصادقينا

برد سلامهم يرضيك ربى فهم من خيرة المتعبدينا

أما زار البقيع وكان يدعو رسول الله بين المقبرينا

شقىٌّ من تولى عن ديار تدور بها قلوب العاشقينا

وما هجرانكم إلا شقاء ونقص فى عقول الناقصينا

أتيناكم أتيناكم بشوق وإخلاص وكنا واثقينا

فبابكمو كأن الخلد فيه كقبة جدكم للزائرينا

رقية أم كلثوم عليهم رضاء الله دهر الداهرينا

وباقر من له علم كبحر به يروى لقوم مجدبينا

وجعفر من له سر عظيم صدوق فاق صدق الصادقونا

وابنته مفضلة وتدعى بعائشة ببيت الطاهرينا

وأنورهم وأنورهم وزيد وموسى من يسود الكاظمينا

أيكفر من يزور لآل طه ويؤمن من يزور المشركينا

فقد صلى الإله على النبى وآل محمد فى العالمينا

وهكذا فإن لآل البيت فى وجدان الشعراء القدامى والمحدثين حباً خاصاً عبّروا عنه فى دواوين لا يسعها كتاب ولا عدة كتب، لأن طلاب حبهم كثير، ومن أحب قومًا حُشِر معهم.

وما أصدق أحدهم حين قال:

وقـد كـفـانى أنى مـحـب والمرء مع من أحب يحـشـر

وعلى سبيل المثال، ومما جادت به قرائح قدامى الشعراء وامتلأت به كتب الأدب . . روى أن أبا نواس الشاعر العباسى المشهور، واسمه الحسن بن هانئ، قال هذه الأبيات يمدح فيها الإمام على الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم:

مطهرون نقيات ثيابهم تجرى الصلاة عليهم كلما ذكروا
الله لما برى خلقًا فأتقنه صفاكم فاصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأ الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور

وسبب مدح أبى نواس لعلى الرضا أن بعض أصحاب أبى نواس قال له ما رأيت أوقح منك، ما تركت خمرًا ولا معنى إلا قلت فيه شيئا، وهذا على الرضا بن موسى الكاظم في عصرك لم تقل فيه شيئا، فرد أبو نواس، والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله، ثم أنشأ بعد ساعة فيه هذه الأبيات:

قيل لى أنت أحسن الناس طرا فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح يثمر الدر في يدى مجتنيه
فعلى ما تركت مدح ابن موسى والخصال التى تجمعن فيه؟
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه

وللشاعر دعبل الخزاعى المشهور فى الدولة العباسية بشاعر آل البيت، وكان شيعيا،أنشأ قصيدة طويلة مدح فيها الإمام على الرضا عرض فيها أحوال أهل البيت الذين نال منهم الخليفة العباسى آنذاك، ومما جاء فيها:

ذكرت محل الربع من عرفات ... فأجريت دمع العين بالعبرات
وقلّ عرى صبرى وهاجت صبابتى ... رسوم ديار أقفرت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالبيت والتعريف والجمرات
ديارُ عليٍّ والحسين وجعفرٍ ... وحمزةَ والسجاد (ذى الثفنات)
منازل كانت للصلاة وللتقى ... وللصوم والتطهير والحسنات
منازل جبريل الأمين يحلها ... من الله بالتنزيل والرحمات
أحب فضاء الدار من أجل حبهم ... واهجر فيهم أسرتى وثقاتى
فهم أهل ميراث النبى إذا انتموا ... وهم خير سادات وخير حماة
أئمة عدل يقتدى بفعالهم ... وتؤمن منهم زلة العثرات
فيارب زد قلبى هدى وبصيرة ... وزد حبهم يا رب فى حسناتى
لقد آمنت نفسى بهم فى حياتهم ... وإنى لأرجو الأمن بعد وفاتى

ثم يقارن بين حالهم حيث وقع عليهم ظلم خلفاء وأمراء بنى أمية فيقول:

وآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد غُلَّظ القصرات
وآل زياد فى القصور مصونة ... وآل رسول الله فى الفلوات
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد ... لقطع نفسى إثرهم حسراتى
سأبكيهم ما در فى الأفق شارق ... ونادى مناد الخير بالصلوات
ألم تر أنى من ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
فيا نفسُ طيبى ثم يا نفس فاصبرى ... فغير بعيد كل ما هو آت
خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله والبركات
(يقصد المهدى المنتظر)

وذكر أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه أن دعبل الخزاعي استوهب على الرضا ثوبا من ثيابه التي كان يلبسها فوهبه ثوبا ليجعله في أكفانه، ولما علم أهل (قُمْ) سألوا دعبلا أن يبيعهم الثوب بثلاثين ألف درهم، فأبى، فأخذوا الثوب منه عنوة، ولما هددهم بالشكوى للإمام على الرضا، ساوموه فأعطوه الثلاثين ألف درهم التي عرضوها عليه قبل ذلك، وأعطوه معها أحد أكمام الثوب، فرضي وجعلها في أكفانه. وروى أن دعبلا بعد أن أخذ الثوب من عليّ الرضا توجه إلى العراق ضمن قافلة، فخرج عليهم اللصوص، ونهبوا كل ما معهم ومنها الثوب الذي كان يحفظ فيه قصيدته، فلما جلسوا ليقتسموا الغنيمة قرأوا هذه القصيدة، فسألوا رجال القافلة، فقالوا لهم، هذا دعبل الخزاعي، فلما تأكدوا من ذلك قالوا لدعبل، قد وجب حقك علينا، قد أطلقنا القافلة من أجلك، وكانوا قد أوثقوا رجال القافلة حتى ينتهوا من قسمة الغنيمة، وردوا ما أخذوه كرامة لدعبل.

وكان على الرضا الذي أنشدت فيه هذه القصيدة متأدبا، يتذوق الشعر ويقوله، فعندما أنهى دعبل قصيدته بهذه الأبيات

فيا نفس طيبي ثم يانفس فاصبري ... فغير بعيد كل ما هو آت
خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله بالبركات

عندئذ قال؛ يا خزاعي: لقد نطق روح القدس على لسانك بهذه الأبيات. وكان لعلي الرضا شعر يروى. وروى أن المأمون قال له يوما، أنشدنا أحسن ما رويت في السكوت عن الجاهل وعتاب الصديق فقال:

إني ليهجرني الصديق تجنيا ... فأرى بأن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته ... فأرى له ترك العتاب عتابا
فإذا بليت بجاهل متحكم ... يجد الأمور من المحال صوابا

أوليتـــه مني السكوت وربما ... كان السكوت عن الجواب جوابا

ومن شعره كذلك:

كلنا يأمل مـــداً في الأجل ... والمنايا هن آفـــات الأمل

لا تغـــرنك أباطيل المنى ... والزم القصـد ودع عنك العلل

إنما الدنيـــا كظل زائل ... حل فيـــه راكب ثم ارتحل

ومما قال شعرا عندما جاءه رجل يشكو إليه أخاه، فنصحه بهذه الأبيات:

أعـــذر أخـــاك على ذنوبه ... واصـــبر وَغَطِّ على عيـــوبه

واصبر على سفه السفيه ... وللزمــــان على خطوبه

ودع اللجـــاج تفـــضلا ... وكِلِ الظَّلومَ على حسيبه

ولقد كانت مصارع الثائرين من أهل البيت الذين رفضوا اغتصاب الحكم في دولة بني أمية خاصة تثير مشاعر الناس، وقد عبر عن هذه المشاعر الشعراء الذين وجدوا في ذلك تنفيسا كي ترتاح الضمائر بعض الشيء.. فقد كانوا يرون أن أهل البيت هم الأحقّ بالخلافة.. فقال أحدهم:

فـــلأبكينّ على الحـــسين ... بعـــولة وعلي الحســـن

كـــانوا كـــرامـــا قـــتلوا ... لا طـــائشـــين ولا جـــبن

غـــسلوا المذلة عنهـــمـــ ... غـــسل الثـــياب من الدرن

هُدِيَ العبـــادُ بجـــدهم ... فلهـم على الناس المنن

وهكذا كانت الثورات تشتعل بين حين وآخر تدعو لآل البيت منذ مقتل الحسين في كربلاء، ولكن الحكام الأمويين كانوا يخمدونها ويزجون

بالثائرين في السجون وعلى رأسهم رجال من آل البيت، ورغم أن الخلفاء العباسيين كانوا لا يعادون أهل البيت إلا أنهم كانوا مرغمين على إخماد الثورات بالقوة، وفي جميع الأحوال، كان ضحايا هذه الثورات أئمة أهل البيت من ذرية الحسن والحسين، وقد قضى كثير منهم حياته في سجون الخلفاء، ومنهم من مات وهو في السجن، فكان لهذا الأثر المؤلم في ضمائر الناس وخاصة الشعراء الذين كان لمصارع أهل البيت وقع عظيم في نفوسهم، فعبّروا عن هذه الآلام شعرا ملأ الآفاق تحتفظ به سجلات الرواة خاصة في عصر بني العباس.. ولم يكن الخلفاء أنفسهم راضين عما يفعله قادة جيوشهم بأئمة آل البيت، ولكنهم كما يقال، كانوا مترددين بين أمرين، بين السكوت علي الثورات التي تطالب بآل البيت حكاما فيسلب الحكم منهم، وبين القضا على الثورة وعلى القائمين بها ومنهم أهل البيت للاحتفاظ بالحكم.

وفي هذه الحالة الأخيرة تقطع رحم رسول الله ﷺ، لكن في كلتا الحالتين ابتلاء لخلفاء بني العباس، وهذا الذي نغّص عليهم لذة الاستمتاع بالخلافة، فهم وآل البيت بنو عمومة، فآل البيت همو بنو هاشم، والخلفاء هم بنو العباس.

ويروى أن قائد جيش الخليفة العباسي الهادي، واسمه موسى بن عيسى، لما أخمد ثورة قامت تنادي بالحسين بن علي بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب في بلدة فخ على بعد أميال من مكة، وقد تمكن موسى هذا من القضاء على الثورة ثم اجتز رأس الحسين بن علي بن

الحسن، وذهب بها إلى بغداد مسرورا وقدمها إلى الخليفة الهادى، لم يملك الخليفة أن غضب غضبا شديدا على قائد جيشه وقال له، أتيتمونى مستبشرين كأنكم أتيتم برأس رجل من غير المسلمين، أليس هذا من ذرية رسول الله ﷺ ؟ وعنّف الجميع، وغضب غضبا شديدا لصنيعه.

كما روى أن الخليفة المنصور قد أمر بإخماد ثورة قامت تنادى بأحقية أبناء عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على، وتم إيداع أباهم عبد الله بن الحسن السجن حتى مات فى السجن، ومات معه بعض أولاده، كما قُتل محمد النفس الزكية بالمدينة المنورة، وقتل أيضا أخوه إبراهيم بالبصرة، وكثيرا ما كانت ثورات الناس تقوم تنادى بأهل البيت ولأنها كانت ثورات شبه سلمية، إلا أن الخلفاء كانوا يخمدونها والضحية دائما هى أئمة أهل البيت.

كما يروى أن الخليفة المهدى قد استراب فى الإمام موسى الكاظم بفعل الوشاة، مع أن موسى الكاظم لم يكن فى نيته أن ينازع الخليفة في سلطانه، فأمر باعتقاله وإيداعه السجن بعد أن أمر بإحضاره من المدينة إلى بغداد، وبعد ذلك رأى الخليفة فى النوم الإمام على بن أبى طالب يقول له: يا محمد ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[محمد: ٢٢]، فلما استيقظ من نومه أمر بإحضار موسى الكاظم من السجن فعانقه وأجلسه بجواره، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم ورده إلى أهله بالمدينة بعد أن أخذ عليه العهد بألا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فلقد كان موسى الكاظم قوى الصلة بربه، وكان مظلوما مسجنيا

عليه، حيث زج به فى السجن بتهمة باطلة لا دليل عليها، وربما كان الخليفة معذورا في الاحتياط لحكمه، فقد وصله عن الإمام ما وصله من الوشاة، كما أن الثورات التي تدعو لآل البيت تشتعل فى كل مكان، فلم يلبث المهدى أن مات وجاء بعده ابنه الهادى وثار ضده أحباب الحسن.

وهكذا كانت حياة الأحفاد مليئة بالظلم دونما إثم ارتكبوه، فقد كانوا ضحية محبة الناس لهم، مما جعل خلفاء بنى أمية وبنى العباس يتوجسون منهم خوفا على خلافة المسلمين.

●●●

أحفاد النبي ﷺ
الإمام الحسين رضي الله عنه

هو حفيد رسول الله ﷺ الذى قال عنه «حسين منى وأنا من حسين»، رواه البخارى؛ وهوعماد آل البيت وأحب أحفاد النبى ﷺ مع أخيه الإمام الحسن رضي الله عنه وهما اللّذان قيل فيهما:

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر   وقربهم منجى ومعتصم
إن عُدّ أهل التقى كانوا أئمتهم   أو قيل من خير أهل الأرض قيل هُمُ

وهو الذى اختار الله له أبا هو باب مدينة العلم، الإمام علىّ كرم الله وجهه، وأمّاً هى البتول الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، وكلاهما بشّرهما رسول الله ﷺ بالجنة، وأبوه وأمه أعز وأحب الناس إلى جده رسول الله ﷺ، والحسن والحسين وأبوهما وأمهما، هم أهل العباءة، خاصة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم رجس الذنوب وطهرهم منها تطهيرا، وقال جدهما ﷺ «حسين منى وأنا من حسين،أحب الله من أحب حسينا، الحسن والحسين سبطان من الأسباط»، رواه البخارى، فهنيئا لمن يحبهما بدعاء النبى ﷺ له، فهو دعاء مستجاب.

ولشاعر الإسلام محمد إقبال، قصيدة طويلة فى مناقب آل البيت، جاء فيها عن الحسن رضي الله عنه:

حسن الذى صان الجماعة بعدما   أمسى تفرقها يحل عسراها
ترك الخلافة ثم أصبح فى الديار   إمام ألفتها وحسن علاها

ثم يقول فى مناقب أخيه الحسين:

وحسين فى الأحرار والأبرار ما أزكى شمائله وما أنداها
فتعلموا رىّ اليقين من الحسين وإذا الحوادث أظلمت بدجاها
وتعلموا حرية الإيمان من صبر الحسين وقد أجاب نداها

ثم يتحول إلى مناقب الأم الزهراء رضى الله عنها، ريحانة أبيها وشهاب النبوة، وأم أبيها والتى شاء المولى عز وجل أن يكون لها من بنات النبى ﷺ شرف إنجاب الذرية الطاهرة، ذرية المصطفى ﷺ وأهل بيته الأطهار.

قال محمد إقبال فى نفس القصيدة:

فمها يردد آى ربك بينما يدها تدير على الشعير رحاها
بلت وسادتها لآلئ دمعها من طول خشيتها ومن تقواها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها كالطل يروى فى الجنان رُباها

ثم يتحول إلى الإمام على زوج البتول ووالد الحسنين:

ولزوج فاطمة بسورة «هل أتى» تاج يفوق الشمس عند ضحاها
إيوانه كوخ وكنز تراثه سيف غدا بيمينه تيّاها
فى روض فاطمة نما غصنان لم ينجبهما فى النيّرات سواها

وللإمام الحسين منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ يشهد بذلك ما سمعته ممن أثق فيه ثقة تامة وكاملة.

كان الشيخ أحمد الظواهرى رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو شيخ للأزهر الشريف معتادا على زيارة رسول الله ﷺ فى كل شهر من شهور رمضان لأداء

العمرة، وكانت تلك عادته من قبل أن يتولى مشيخة الأزهر، وبينما كان يجلس في الروضة الشريفة أخذته سنة من النوم، فرأى رسول الله ﷺ يقول له ما معناه مشفقا عليه،حيث تقدم به السن: لماذا تتعب نفسك يا شيخ أحمد وتأتي كل سنة، عندك الحسين ابني تقضي فيه حاجتك.

إن أهل البيت هم موضع نظر ورعاية جدهم المصطفى ﷺ، جعلهم الله حكماء يهتدي بهديهم، ويستضاء بنورهم، وجعل أفئدة المحبين تهوى إليهم لا يسكن لهم شوق حتى يجلسوا في رحابهم، ويتبارزوا في إظهار واجب المحبة نحوهم، حبا في أداء واجب الطاعة لجدهم بمودتهم،لأنهم بعض من جدهم، وحياتهم كلها وقف على شريعته وبيان منهجه.

ومولانا الإمام الحسين رضي الله عنه، هذا العابد الغيور على دين الله، أثر عنه أنه أدى فريضة الحج خمسا وعشرين مرة ماشيا على قدميه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، تواضعا لله، وتقربا إليه سبحانه، وقد سمعوه يقول وهو يستلم الحجر الأسود يناجي ربه: إلهي، نَعَّمْتَني فلم تجدني شاكرا، وبلوتني فلم تجدني صابرا، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر، إلهي، ما يكون من الكريم إلا الكرم.

وهنا يقول الشيخ الصاوي شعلان واصفا مولانا الحسين:

الماجد الأروع ابن الماجدَيْنِ ومن	فاقوا الكواكب في أوصافهم حسَبا
فلن ترى في العلا أمّاً كفاطمة	ولن ترى كعلي في الفخار أبا.
لعله ترك العذب الفرات لكي	يسقى بكوثر طه منهلا عذبا
والحر إن لم يرق بالعز مشربه	لو جئته برحيق الشهد ما شربا
وثيقة من رسول الله باقية	يعلو الحسين بها فوق السُّها رُتَبا

حسين منى سراج مشرق وأنا ... من الحسين فيا أكرِمْ به نسبا
الوحى أول ما أهدى صحائفه ... كان الحسين من الأنوار مقترنا
ميراثه عن رسول الله سيرته ... وسيره نحو غايات العلا دأبا
قيامه ونجوم الليل حالمة ... وصومه والفيافى تحمل اللهبا
والجود بالعلم أو بالمال يبذله ... حتى غدت نفسه من بعض ما وهبا
إن الحسين لنا من جده مثل ... والفرع للأصل مرآة فلا عجبا

وحول جوده بالمال والعلم، روى أن رجلا فقيرا جاء إلى الحسين وطلب منه مالا وقال فى ذلك شعرا، فرد عليه الحسين بهذه الأبيات، بعد أن أعطاه وقال معتذرا للرجل على قلة ما قدم له رغم أنه أعطاه كل ما معه:

خذها فإنى إليك معتذر ... واعلم بأنى عليك ذو شفقة

فقال الرجل مسرورا بما أعطاه الحسين

مطهرون نقيات جيوبهمو ... تجرى الصلاة عليهم أينما ذُكروا
فأنتمو أنتمو الأعْلَوْنَ عندكمو ... علم الكتاب وما جاءت به السُّوَرُ

وقد ولد الإمام الحسين رضي الله عنه فى ثالث أو خامس يوم من شعبان سنة أربع من الهجرة بعد نحو عام من ولادة أخيه الحسن رضي الله عنه، فعاش فى حياة جده المصطفى ﷺ ست سنوات، فتلقى العلم المحمدى والتربية النبوية، فجاء على مثال جده فى العلم والخلق والفضل، متزودا بمكارم الأخلاق، ونبيل الصفات، ومتشرفا بالحب النبوى العظيم، فكان حكيما شجاعا، عابدا ورعا، عالما تقيا. وزاده علما على ما معه من علم، أبوه

الإمام على كرم الله وجهه، الذى هو باب مدينة العلم. إنه الحفيد الحبيب الذى من أجل إرساء مبادئ العدل والشورى ، ودفاعا عنهما استشهد فى العاشر من المحرم فى موقعة كربلاء قريبا من نينوى بالعراق سنة إحدى وستين للهجرة، وقد قام اللعينان (سنان بن أنس النخعى) و (شمر بن ذى الجوشن) بجز رأسه الطاهرة، وسلبا ما كان عليه من ملابس وعدة قتال بعد قتال غير متكافئ بينه وبين جند يزيد بن معاوية بقيادة عبد الله بن زياد عامله فى العراق.

وقد شهد الحسين مع أبيه رضي الله عنهما، موقعتي الجمل وصفين، ومعارك الخوارج، ودفن جسده الطاهر فى كربلاء ، ونقل الرأس الشريف فى رحلة طويلة إلى مصر، لتستقر فيها بمشهده الحالى المعروف بالمشهد الحسينى بميدان الحسين بالقاهرة.

ولكن الله تعالى قد حفظ بذرية الإمام الحسين الذرية الطاهرة، ذرية أهل البيت، والذين يطلق عليهم الأشراف، فأكثر الذرية من أبناء الحسين وبعضهم من ذرية أخيه الحسن.

وروى ابن حبان وابن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب الحسن والحسين فقد أحبنى، ومن أبغضهما فقد أبغضنى**». رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه .

لقد أقام الحسين بالمدينة منذ مولده إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة، فشهد معه موقعتى الجمل وصفين وقتال الخوارج، وبقى مع أبيه هناك وإلى أن قُتل أبوه، ثم بقى مع أخيه الحسن إلى أن سلم الحسن الأمر لمعاوية حقنا لدماء المسلمين، وإيثارا للسلام، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ. ثم

عاد مع أخيه الحسن إلى المدينة واستقرا بها إلى أن مات معاوية، فخرج إلى مكة، وبعد ذلك أتته كتب أهل العراق يبايعونه بعد موت معاوية، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل، فأخذ بيعتهم ثم أرسل إليه بالحضور إلى العراق، فتوجه الحسين، وكان من قصة استشهاده ما كان، وكان عمره نحو ست وخمسين سنة وعدة شهور حين استشهد رضي الله عنه.

وقد عاش الحسين خير أيامه وأفضلها في رعاية جده المصطفى ﷺ، روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه رأى بعينه رسول الله ﷺ يرفع الحسين إلى صدره ويقبل فمه ويقول له، افتح فاك، ويقبله، ثم قال «اللهم أحبه فإني أحبه»، ومن الطبيعي أن الصحابة الكرام حين لمسوا هذا الحب النبوي للحسين أنزلوه منزلته الكريمة في قلوبهم، وكان للحسن والحسين حرمة خاصة عند أبيهما الإمام علي رضي الله عنه، فكان يخشى عليهما الموت خوفا من انقطاع نسل رسول الله ﷺ ذلك حين قيل للإمام علي لو قاتلت ولم تقبل التحكيم مع معاو ية؟ فقال لهم إني لأسخو بنفسي عن الدنيا ولكني نظرت إلى هذين؛ الحسن والحسين، فعلمت أنهما إن هلكا معي انقطع نسل محمد ﷺ. فهو يجود بنفسه ولكنه يخاف من انقطاع نسل النبي ﷺ بالحسن والحسين رضي الله عنهما، فهما اللذان أبقيا ذرية المصطفى ﷺ وإلى ما شاء الله.

■■■

مقدمات كربــــلاء

لم يكن الحسين ليرضى أن يبايع يزيد بن معاوية لأنه يعلم أنه لو بايع لأقر بالفسق والجور، وثبّت دعائم الظلم والطغيان، ومكن للباطل، وإن كان في رفضه تشريده وتشريد أهله أو قتله وقتل أهله ومناصريه.

ولما علم أخوه محمد بن الحنفية في المدينة بعزم الحسين على الرحيل إلى مكة، قدم له النصح بالبقاء بالمدينة، وقال له: (يا أخي أنت أحبَّ الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من خلق الله أحق بها منك، إني أخاف أن يكون خير هذه الأمة نفسا وأبا وأمّاً أضيعها دما، وأذلها أهلا، فانج بأهلك من يزيد وظلمه)، ولكن الحسين رأي في هذا النصح نوعا من التخاذل، وأن روح الهزيمة قد شاعت في النفوس، فقرر أن يحطم قيود الخنوع والضعف، فقال لأخيه: (يا أخي، قد نصحت وأشفقت)، ثم تجهز للخروج، وبدأ بزيارة قبر جده المصطفى ﷺ ليودع جده قبل الخروج، وأسى الرحيل من المدينة قد سيطر على قلبه وقال: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد خرجت من جوارك كُرْهًا، وفرّق بيني وبينك مبايعة شارب الخمر، وراكب الفجور، يزيد بن معاوية، وأنا إن فعلت وبايعت، كفرت، وإن أبيت قُتِلْتُ، فهأنذا خارج من جوارك كُرْهًا، فعليك السلام مني يا رسول الله)، وتلفت إلى القبر بعد أن خطا خطوات، فما يدرى أيعود ثانية إلى قبر جده الحبيب أم لا يكون اللقاء إلا في الجنة.

وخرج ومعه أهله، فما كانوا ليتخلفوا عنه رغم تعرضهم للخطر المحدق، ولولا حبهم الشديد له، فإنه بقية جدهم، وهو الروح التي تسرى

في أبدانهم، ما تركوا ديارهم الآمنة في المدينة، وهم لا يدرون ما يخبئه لهم الغد، ولكنهم استخفوا بالمخاطر، لأنهم مثل الحسين ما ابتغوا إلا مرضاة لله، وما رفضوا يزيدا إلا لرفض اغتصاب خلافة المسلمين.

وفي طريقه إلى مكة، قابله رجل من المحبين لآل البيت، واسمه «عبد الله بن مطيع القرشي»، فقال له: يا أبا عبد الله، يا ابن رسول الله، جُعِلْتُ فداك، إني أنصحك إذا دخلت مكة، فلا تبرحنّ منها، فإنه حرم آمن، هو حرم الله وأمان للناس، فأقم فيها، وتآلف أهلها، وخذ البيعة على كل من دخلها من الناس، وعدهم العدل، ورفع الظلم والجور عنهم، وأقم فيها خطباء يخطبون ويذكِّرون الناس على المنابر شرفك، وأنك أولى بهذا الأمر من غيرك، وإياك أن ترحل إلى الكوفة، فإنها بلد مشئوم، قُتِل فيها أبوك، ولا تبرح من حرم الله مكة، فإن معك أهل الحجاز واليمن كلها، وسيقدم لك المبايعون من الآفاق والأمصار يبايعونك، فاقبل نصيحتي، وسر مسددا إلى حيث بيت الله).

فرد عليه الحسين: (جزاك الله عني كل خير، فإني قابل لنصيحتك)، ولكنه مهاجر لا طلبا للسلطان، بل فرارا من الظلم، وإباء له، فما يكون له أن يمالئ في دينه، ولن يبايع ليزيد ليتحكم في رقاب الناس، وقد ذاع في مكة حين استقر فيها أنه لم يبايع ليزيد، وانتشر بين الناس أن ابن بنت رسول الله ﷺ لائذ بالبيت الحرام، ممن يريدون أن يرغموه على البيعة ليزيد بن معاوية كُرْهًا، فما لبثت قلوب الناس أن مالت إليه.

وقد استقر أمر أهل الكوفة على أن يكتبوا للحسين يبايعونه وينصرونه، فكتبوا الرسائل، ومن هذه الرسائل:

بسم الله الرحمن الرحيم، إلى الحسين بن علي بن أبي طالب..
سلام عليك ورحمة الله وبركاته، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونصلي على محمد وآل محمد، فاعلم يا ابن المصطفى وابن علي المرتضى، أن ليس لنا إمام غيرك، فاقدُم إلينا، ولنا ما لك وعلينا ما علينا، فلعل الله يجمعنا بك على الحق والهدى. واعلم أنك تقدم على جنود مجندة، وأنهار متدفقة، وعيون جارية، فإن لم تقدم على ذلك فابعث لنا أحدًا من أهل بيتك يحكم بيننا بحكم الله تعالى وسنة رسولهﷺ، واعلم أن النعمان بن بشير والي الكوفة، من قِبل معاوية في قصر الإمارة، ولسنا نشهد معه جمعة ولا جماعة، ولو أنك أقبلت إلينا لكنّا أخرجناه إلى حيث الشام، والسلام.

ولم تنقض أيام قليلة حتى أرسلوا للحسين خطابا آخر جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، إلى الحسين بن علي بن أبي طالب.. أما بعد، فإنه لا إمام غيرك لنا يا ابن رسول الله .. العجلَ العجلْ.

ثم أرسلوا إليه خطابا آخر جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.. يا ابن بنت رسول الله، قد أينعت الثمار، فاقدم إلينا مسرعًا.

ثم توالت الرسائل تستحثه على المسارعة إلى الكوفة، فأخذ الحسين يفكر في الأمر، وأنه إذا خرج إلى الكوفة فسوف يشتد ساعده، فيستطيع أن يمحق الظلم والجور والطغيان، ويقيم دعائم الشورى والعدل والإنصاف، فلقد دعا أهل يثرب جده رسول الله ﷺ، فلبى دعوتهم وانتصر الحق على يديه، ومحق الباطل والضلال، وانتشر نور الإسلام، فلماذا لا يتأسى بجده؟!

ثم كتب إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. . من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين. . أما بعد، فقد فهمت من رسائلكم أنه ليس لكم إمام غيرى، وأنكم تسألوننى القدوم إليكم، لعل الله يجمعكم على الحق والهدى. . ثم وعدهم وإنى قادم إليكم بإذن الله.

وكان ابن الزبير رضي الله عنه قد جاء الحسين إلى الكعبة، وهمس فى أذنه: يا أبا عبد الله، أقم فى هذا المسجد ولا تغادره، وسأجمع لك الناس. ولكنه كان مصراً على مواجهة يزيد وأعوانه الذين علموا بنيته فى القدوم إلى العراق، فاستعدوا لقتله، فقال: والله لئن أقتل خارج مكة أحب إلىّ من أن أقتل داخلها. .

ولما علم الناس باعتزامه الخروج إلى العراق، أشفقوا عليه، لاسيما أن الكوفة التى يقصدها فيها عمال يزيد وأمراؤه، وهم ملاك بيوت المال، وهو يعلم أن الناس عبيد الدرهم والدينار.

وكذلك كان عبد الله بن عباس أول من نصحه بعدم السير إلى العراق، وقال له: أعيذك بالله من ذلك، أتسير إلى قوم قتلوا أباك أمير المؤمنين فإنى لا آمن عليك أن يغروك، ثم يخالفوك ويخذلوك، فقد كان يعلم أن الناس فى الحجاز فى أشد الحاجة إلى الحسين، ولكن الحسين رد على الجميع قائلا: ولكنى قد عزمت على الرحيل. وقال: إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ وأمرت فيها بأمر أنا ماضٍ له، ولم يفاتح أحدا بهذه الرؤيا أبدا، ثم مضى إلى المدينة، إلى قبر جده ﷺ يودعه، وقد أحس بحزن شديد، وسالت دموعه تجرى على لحيته، وودع جده وقال لأخيه

محمد بن الحنفية: يا أخي، إني راحل إلى العراق. فتوسل إليه أخوه: ناشدتك الله يا أخي لا تَسِرْ إلى قوم قتلوا أباك وغدروا بأخيك، فأقم هنا عند حرم جدك، وإلا فارجع إلى حرم الله بمكة، فإن لك فيه أعوانًا كثيرة، فرد عليه: لا بد من المسير إلى العراق. حينئذ قال له أخوه والدموع تسيل من عينيه على لحيته: أستودعك الله من شهيد مظلوم.

وكان ابن زياد، الذى ولاه يزيد على الكوفة قد وقف يخطب الناس ويهددهم قائلا: أيها الناس، إن يزيد قد ولانى مصركم هذا، ثم أمر أن ينادى فى القبائل، أن اثبتوا على بيعة يزيد من قبل أن يبعث إليكم من الشام رجالا يقتلون رجالكم ويسبون نساءكم، فصار أهل الكوفة ينظر بعضهم إلى بعض ويقولون: ما لنا والدخول بين السلاطين. وخوفا من بطش يزيد، قاموا فبايعوا يزيد بن معاوية.

ولما ظهر لمسلم بن عقيل رسول الحسين إلى أهل الكوفة، والذى كان قد أرسله ليحصل على مبايعتهم له، لما رأى هذا التخاذل وقد علم أن الحسين بدأ رحلته إلى العراق، أرسل إليه من ينصحه بالرجوع، وكان مسلم قد غدر به أعوان يزيد فى الكوفة وحاولوا قتله، ولما رأوه يبكى، قالوا له: مثلك لا يليق أن يبكي إذا نزل به هذا، فأجابهم: والله ما أبكى على نفسى، ولكن أبكى على الحسين وآل الحسين، فقد خرج إليكم أول أمس من مكة.

ولم يمهلوا مسلم بن عقيل طويلا، بل قتلوه، وأخذوا يجرونه من رجليه فى سوق الكوفة، غير أن رجلا من أنصار مسلم سارع ولحق بالحسين فى الطريق قبل أن يصل إلى الكوفة، وأخبره بما وقع لمسلم، فقال الحسين: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقد ملأ الأسى وجهه وقال له الرجل ما

وصّاه به مسلم قبل أن يغدروا به: يا أبا عبد الله إرجع، فليس لك في الكوفة ناصر ولا معين، عندئذ قام أناس من أهل مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وقالوا: والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا من مقتل مسلم أو نذوق ما ذاق أخونا. فقال الحسين: لا خير في الحياة بعد ذلك، فقد كان يعلم يقينا أنه بموته في الكوفة سيزلزل أركان دولة الظلم والجور، فانطلق في مسيره راضيا، وقال وهو حزين: نعم خذلتنا شيعتنا في الكوفة، وقد كره ألا يسير معه أتباعه دون أن يعلمهم أنه سائر إلى الموت وهو يكره أن يسيروا معه، فقام، فخطبهم وبيّن لهم الأمر، فبقى معه آل بيته ومواليه، وهم نيف وسبعون رجلا، وانصرف بعض الذين كانوا قد تبعوه في المسير.. وسار حتى بلغ بئر ماء، فنزل في المكان، وعندئذ قدم إلى المكان الحرّ بن يزيد، الذي بعثه ابن زياد والي الكوفة كمقدمة الجيش الذي أمر بقتل الحسين وأهله.

وكان قد حان وقت صلاة الظهر، فقام الحسين يخطب في الناس.. ومما قال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطانا جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله. .ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود.. وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسُلكم ببيعتكم، وإنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم مني أسوة، فإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، فلعمري ما هي عليكم بنكر، فقد فعلتموها مع أبي وأخي وابن عمي

مسلم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم التفت إلى الحُرّ قائد جيش يزيد، وقال له: أتريد أن تُصَلِّ بأصحابك، فصلِّ ونحن نصلى وراءك. ولما انتهت الصلاة قال الحر للحسين: إنا لا ندرى هذه الكتب، ولا من كتبها وأرسلها إليك. وبعد أن أفرغ له الحسين جوالاً مملوءاً بالكتب قال له الحر: لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، ولكننا أمرنا إذا لقيناك أن لا نفارقك حتى نحملك على عبد الله بن زياد فى الكوفة، وحال الحر بين الحسين وبين الانصراف بأهله، إلا أن يأخذ طريقا لا يؤدى به إلى الكوفة ولا يرده إلى المدينة، فأخذ الحسين طريقا آخر وهو يردد هذه الأبيات:

سأمضى وما بالموت عارٌ على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلمًا
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق خوفا أن يعيش ويرغما

والتقى فى الطريق بأناس، فسألهم عن أهل الكوفة، فقالوا له:

أما سائر الناس فأفئدتهم معك، وسيوفهم مُشْهَرَةٌ عليك، وإن الكوفة مملوءة بالخيل والجيش، يقصدونك، فناشدناك الله إن قدرت ألا تتقدم إليهم شبراً فافعل. فقال لهم الحسين فى هدوء: جزاكم الله خيرا. وعزم على مواصلة المسير، وكان يسترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان قائد جند يزيد قد أمر جنده بأن يحولوا بين الحسين ورجاله وبين الماء حتى يموتوا ظمأ أو يستسلموا، فقام الحسين يخاطب القوم ويقول: يا أيها الناس، هل يحل لكم قتلى وأنا ابن بنت نبيكم؟ أوَما بلغكم قول جدى لى ولأخى هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ ثم سمى رجالا من القوم وقال لهم: يا فلان، ويا فلان، ألم تكتبوا إلىّ أن أقدم علينا ولك ما لنا وعليك ما علينا؟ فقال أحدهم: انزل على حكم الأمير ابن

زياد، فما نرى إلا ما يحب، فرد عليه الحسين: والله لا أعطى بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر قرار العبيد، وجلس الحسين بعد أن صلى العصر، وقد خفق برأسه على ركبتيه، وارتفع صهيل خيل يزيد، فخرجت إليه أخته زينب رضى الله عنها، وقالت له: يا أخى أما تسمع الأصوات قد اقتربت، فرفع الحسين رأسه وقال:

إنى رأيت جدى رسول الله فى المنام يقول لى: «إنك تروح إلينا» ففزعت السيدة زينب وقالت: يا ويلنا.. فقال لها الحسين، ليس عليك الويل يا أختاه، اسكتى يرحمك الله.

وفى الليل، دخل الحسين علي أهله وقال لهم: إنى أرى أن تنطلقوا أنتم فى حل، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد أخيه ثم تفرقوا فى سواد الليل إلى مكة، فإنما القوم يطلبوننى، فرفضوا وقالوا: لن نفعل، ولا نبقى بعدك أبدا، فكرر الحسين طلبه وقال: اذهبوا، فقد أذنت لكم، فقالوا: لن نفعل، ولكن نفديك بأرواحنا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

فتنحى الحسين عنهم وجلس يهمهم بأبيات يقول فيها:

يا دهر أفٍّ لكَ من خليلٍ ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر للجليل ... وكل حى سالك السبيل

وكانت السيدة زينب تُمَرِّضُ ابن أخيها الحسين، على زين العابدين، فلما سمعت هذه الأبيات، أحست كأن سكينًا تقطع أحشاءها، فأسرعت إلى الحسين وهى تقول: واثكلاه، ليت الموت أعدمنى الحياة، لقد ماتت

أمي فاطمة وأبي عليٌ وحسنٌ أخي، وأنت بقية جدي، فقال لها الحسين: يا أختاه، لا يذهبُ حلمك الشيطان، يا أُخَيّة، اتّقِ الله، وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وكل شيء هالك إلا وجه الله، وأبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم، ولكل مسلم في جدي رسول الله أسوة.

ولما أصبح الصباح، دعا بدرع جده، وتعمم بعمامته، وتقلد سيف أبيه، وكان معه اثنان وثلاثون فارسا من أهل بيته، وأربعون راجلا، وقد تأهبوا للقتال ليذودوا عن الحق، أو يهلكوا دونه، فناداه رجل من جيش زياد: يا حسين، قد استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة، فسأل الحسين: من هذا؟ قالوا: إنه شمر بن ذي الجشن، فقال له الحسين: وأنت أولى بها صليا. وقال له رجل من أهله، يا أبا عبد الله أرمه بسهمي، فقال الحسين: لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم بقتال.

ثم قال الحسين موجها كلامه لجيش يزيد الذى منعه من الماء: أيها الناس، اعلموا أن الدنيا دار فناء، ومتغيرة بأهلها من حال إلى حال، عرفتم شرائع الإسلام، وقرأتم القرآن، وعلمتم أن جدي رسول الله ﷺ، وثبتم على قتلي ظمأ، وهذا ماء الفرات يشرب منه الكلاب والخنازير، وآل رسول الله يموتون ظمأ. وكان الحسين قد أحس عطشا شديدا والماء يترقرق في الفرات أمامه، فحمل على أعدائه ونزل إلى الفرات، فحالوا بينه وبين الماء، فضربوا كفه اليسرى، وضربوا على عاتقه، ثم انصرفوا وهو يكبو، ولما هم ليقوم للقتال لم يقدر، فنادى: وا جدّاه! وا محمداه! وا أبتاه! وا علياه! وا أخاه! وا حسناه!، ثم أغمي عليه وهو يقول: أأقتل ظمآنا؟! وا غوثاه!.. صبرا على قضائك.. لا إله سواك.

وسارع نحوه أربعون رجلا كل منهم يريد أن يجز رأسه ليفوز بجائزة ابن زياد والي الكوفة، ويبوء بخزى من الله، وقد اجتزّ أشرهم رأسه، فسال دم الحسين الزكى، ليزول معه مُلك بنى أمية، فقد كان الحسين ميتا أخطر عليهم منه حياً، كما حدّث بذلك التاريخ.

ولما رأته ابنته السيدة سكينة غارقا في دمائه، صرخت، فهرعت النساء وخرجن، فرأين ما يفتِّتُ الأكبادَ، ويقَطِّعُ نياط القلوب، وصاحت إحداهن: اليوم مات بقية جدى.

ولم يكتف رجال ابن زياد بما فعلوا، فاقتحموا خيام النساء، ونهبوا ما فيها، وأرادوا قتل على بن الحسين، الذى كان مريضا فى خيمة عمته زينب، لولا أنها تصدّت لهم، واستماتت فى الدفاع عنه وحمايته، وهى تصرخ فيهم : أتقتلون الصبيان!؟.. ويلكم!.. ثم صرخت، وا محمداه! هذا حسين بالعراء مُقَطَّعُ الأعضاء، وبناتك سبايا، وذريتك مُقَتَّلَةٌ فى الصحراء تَسفى عليها الرياح..

ثم حمل جند ابن زياد رءوس القتلى من ذرية رسول الله ﷺ، ورفعوا رأس الحسين على رُمح، وجيء بالرأس إلى مجلس ابن زياد، ووضعت بين يديه، فراح ينكث فيها بقضيب فى يده، فلم يستطع أحد الجالسين، وهو زيد بن أرقم، أن يكبت مشاعره، فانفجر باكيا، وقال: يا ابن زياد، والله لقد رأيت رسول الله يقبل هاتين الشفتين، فطرده ابن زياد من مجلسه.

ثم أمر بحمل الرأس إلى يزيد فى الشام، فأدخلوها عليه، مرفوعة على رمح، وبعدها أدخلوا رأس العباس بن على، ثم رأس عوف بن عبد الله بن جعفر، ثم رءوس ذرية النبى، واحدة تلو الأخرى.. ومع

الرءوس، السبايا من آل البيت: السيدة زينب، والسيدة سكينة، ومعهما الصبي علي زين العابدين، مقيدا، فقال له يزيد: أبوك جهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت، فردّ عليه علي زين العابدين بن الحسين: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[الحديد: ٢٢، ٢٣]، وانبرت إحدى نساء آل البيت وقالت:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

وبعد ذلك أمر يزيد بترحيل النساء إلى المدينة وعلى رأسهن السيدة زينب، فلما وصل الركب إلى باب مسجد رسول الله ﷺ، اجتمع الناس في هذا اليوم الحزين الذي لا يقل حزنًا عن يوم وداعهم رسول الله ﷺ، ووقفت أم كلثوم أخت الحسين أمام قبر جدها تبكي وتقول: «السلام عليك يا جداه، إني ناعية إليك ولدك الحسين»، وخيّم الصمت الحزين الأليم، على رءوس الناس، حزنا وألما لمقتل الحسين وبقية عترة رسول الله ﷺ.

بعد هذه المأساة، ضعفت أجنحة أهل البيت، وفرض عليهم الاستسلام، وتفرقوا في البلاد الإسلامية؛ فالسيدة زينب بطلة كربلاء، رحلت إلى مصر ومعها عدد من آل البيت، وبقي منهم من بقي في المدينة المنورة، ولا صوت لهم، وقد رفضوا أن يشاركوا في الثورات التي قام بها أحبابهم المؤيدون لهم ضد الأمويين، مع أنهم يعلمون أنهم قد ظُلموا واضطُهدوا على أيدي أعوان بني أمية، ومع ذلك أبت مشاعر الناس إلا أن تعبر عن الثورة الداخلية ضد الأمويين، وللتعبير عن مشاعرهم نحو أهل

البيت والتعاطف لمعهم، فقامت حركة التوابين، ومعها حركة المختار الثقفي التي تتبعت قتلة الحسين وأدركت ثأره، غير أن هذه الحركة لم تستطع أن تضع واحدا من آل البيت في مكان الصدارة كي يبايعه الناس، فقد أخمدت الثورتان، ثم قضي على المختار الثقفي، كما قضي على عبد الله بن الزبير، وخلص الأمر للأمويين [١].

ومع هذا، ظل كثير من الناس متعاطفين مع آل البيت، ولكن كما قال الفرزدق من قبل للحسين، قلوب الناس معك وسيوفهم عليك، ومع ذلك، ظل الناس ينظرون إليهم على أنهم منارات الهدى وأعلام التقى، فقد كانوا يقصدونهم لما لهم من سلطة روحية تفوق في حقيقتها السلطة الرسمية، وكانت هذه الحال تؤرق حكام بني أمية.

ومما زاد من حقد بني أمية على آل البيت، أن وقف عدد من الشعراء أنفسهم على حب أهل البيت، فهذا الفرزدق، وقد مدح على زين العابدين بقصيدته التي ظل الناس يرددونها في كل مكان، ومنها هذه الأبيات التي قالها الفرزدق في أثناء الحج، حيث في نفس العام كان يحج هشام بن عبد الملك، فرأي شابا يلتف حوله الناس في الطواف حول الكعبة، ويوسعون له ليُقَبِّلَ الحجر الأسود، فتعجب وسأل، فقالوا له، إنه على بن الحسين الملقب بزين العابدين، فأنكر هذا واغتاظ.. ولكن الفرزدق قام وأنشد شعرا بيّن فيه أن زين العابدين أشهر من أن ينكره أحد، لفضله وحسبه ونسبه ودينه وخلقه، فهو حفيد رسول الله ﷺ، ثم قال موجها قصيدته لهشام بن عبد الملك الأموي ومنها هذه الأبيات يرد على هشام حين تظاهر

(١) آل بيت النبي جـ٢، حمزه النشرتي، عبد الحفيظ فرغلي، عبد الحميد مصطفى.

بإنكاره معرفة زين العابدين، وسترد القصيدة فى مكانها.

ومثل الفرزدق، كان الشاعر الكميت بن زيد، فقد وقف نفسه وشعره على مدح آل البيت، وعلى محمد الباقر خاصة، والكميت هذا ولد في الكوفة سنة ستين للهجرة، وهى السنة التى قتل فيها الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقيل إنه أشعر الأولين والآخرين. وقد قال قصيدته المشهورة فى آل البيت، وله ديوان يسمى (الهاشميات) فى فضل آل البيت، ومنها هذه الأبيات:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ... ولكن إلى أهل الفضائل والتقى

وخير بنى حواء والخير يطلب

وقد تعرض الكميت بسبب موقفه من آل البيت للسجن، حيث سجنه الأمويون، وكانت فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها تقول عنه: هذا شاعرنا أهل البيت، وكان لا يقول الشعر فيهم رغبة فى المال، بل محبة فيهم، وأما قصيدة الفرزدق التى تحدثنا عنها، فمنها هذه الأبيات:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا؟ بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلِّم إلا حين يبتسم

من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

يستدفع الشر والبلوى بحبهم ... ويسترب به الإحسان والنعم

وعندما سمعها هشام غضب، وأمر بحبس الفرزدق، ثم أطلقه بعد أن استعطفه بقصيدة لاقت قبولاً لديه، وخوفا من لسانه.

لقد استشهد الحسين بطلا شجاعا، لم يحنِ قامته، وبعد أن تركت جثته في كربلاء مع الجثث الطاهرة، بعد أن جزوا رأسه وحملوها على الرمح إلى ابن زياد، جاء جماعة من بني أسد، كانوا ينزلون في هذا المكان، وحفروا قبورا على ضوء القمر وخفية، وواروا فيها تلك الأجساد الطاهرة، لأن الأمويين وأتباعهم كانوا يريدون إخفاء قبر الحسين عن الناس، ولما عثر البعض على قبره قال فيما بعد:

أرادوا ليخفوا قبره عن أهل ودِّه فطيب تراب القبر دل على القبر

أما الرأس، فقد جزت وأرسلت إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة، فأرسله بدوره إلى يزيد بن معاوية بدمشق، ثم أخذ الرأس طريقه إلى القاهرة بعد عسقلان على أرجح الروايات.

وبقي للحسين من ولده الذي حفظ ذريته، علي زين العابدين، وسكينة وفاطمة.. هؤلاء الأطهار الذين شرفت بهم الأمة الإسلامية، كما شرفت البشرية باستشهاد الإمام الحسين صاحب المبدأ العظيم والموقف الكريم وموقف أبنائه وأبناء عمومته الذين دافعوا عنه حتى الموت في كربلاء، ببطولة نادرة، وموقف أصحابه الكرام الأوفياء الذين عرض عليهم أن يلتمسوا من ظلام الليل ستارا ويعودوا إلى أهليهم، فأبوا وقالوا: وماذا نقول لرسول الله ﷺ غدا إذا قال لنا: لقد قتل الحسين وأنتم تنظرون؟ لقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

إنه هو الحسين الذي كان أحب أهل الأرض إلى أهل السماء، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين كان يجلس عند الكعبة ورأى

الحسين مقبلا، فسأل جلساءه: أتدرون من أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم؟ قالوا: لا، قال: إنه القادم علينا، الحسين بن على، وكان يجلس مع القوم رجل حكيم من حكماء البادية، فقال معقبا على كلام ابن عمر: إذن فويل له من أهل الأرض، فقالوا: لماذا؟ قال: لأن موضعه فى السماء.

وفى مناسبة استشهاده قال المحب الشيخ الصاوى شعلان:

ذكرى خلودك يا حسين صحيفة — بسوى الدماء حروفها لم تكتب
أنت الشهيد بن الشهيد فإن بدا — وجه الحسين فثم أنوار النبى
أحدى جدودك للبرية زمزما — تسقى الحجيج مواردا لم تنضب
وعزفت عن شرب الفرات مُرَنَّقًا — لما رأيت عليه ذل المشرب
والحر يؤثر أن يموت بعزمه — أسدا ولا يحيا بمكر الثعلب

وقال المحب كذلك:

فوجنت فاخترت الردى مستشهدا — لم تخش فى الحق المبين تراعا
عزم يغار النجم من عليائه — ما كان إيمان الحسين خداعا
آل النبى فديتكم من سادة — فى الحق كم حملوا الأذى أنواعا
سالت دماؤكم على هام العدا — تاجا تسير به القرون تباعا

وصدق القائل فى مناقبه رضي الله عنه:

ميراثه من رسول الله سيرته — وسيره نحو غايات العلا دأبا
قيامه ونجوم الليل خائلة — وصومه والفيافى تقذف اللهبا
والجود بالعلم أو بالمال يبذله — حتى غدت روحه من بعض ما وهبا

وكان متعظا بالموت اتعاظا سجله لـه ابن كثير فى البـداية والنهاية، قال: لما زار الإمام الحسين البقيع بالمدينة، وقف عند مقابر الشهداء قال:

ناديت سكان القبور فأسكتوا ... فأجابنى عن صمتهم ترب الحشا

قالت أتدرى ما صنعت بساكنى ... مزقت لحمهمو وخرّقت الكسا

وحشوت أعينهم ترابا بعد ما ... كانت تأذى بالقليل من القذى

أما العظام فإننى مزقتها ... حتى تباينت المفاصل والشوى

قطعت ذا من ذا ومن هذا كذا ... فتركتها مما يطول به البلى

ولقد لخص العلامة العقاد فى كتابه «الحسين أبو الشهداء» موقف الإمام الحسين الشهيد، فقال: «فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها،أى للشهادة والتضحية، ولا عمل إن لم ينس الفرد مصلحته فى سبيل مصلحة الجماعة، ولا بقاء للإنسانية بغير استشهاد فى سبيل الحق، وفى ظل هذه الحقيقة، نلتفت نحن أبناء المسلمين إلى ذكرى شهيد الإسلام الأكبر، الإمام الحسين بن على، فنحنى الرؤوس إجلالا لأبى الشهداء»، ثم يؤكد: أن الوحدة الإنسانية لا توجد إلا إذا وجد الشهداء فى سبيلها، والعمل الخالص لوجه الحق والكمال، فلن تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها، وإلا إذا هانت الشهادة من أجلها.

كما يقول: «مسكينة الإنسانية إنها لا تزال فى عطش شديد إلى دماء الشهداء من أجل الحق والمبدأ، ومن أجل الكمال الإنسانى، ومسكينة فى هذا الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودا ماديا فعليا، مع أنه أصبح لزاما عليها أن توجد فى الضمير وفى الروح».

وقال كذلك في كتابه «أبو الشهداء» «إن الحسين انهزم في كربلاء، ولكنه نال الفخر الذي لا فخر مثله في تاريخ بني الإنسان، غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي، ولا قديم ولا حديث، فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين، وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين، ولكن يزيد بن معاوية ذهب إلى سبيله، وعوقب أنصاره بعده بشهور، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه في عمر رجل واحد لم يجاوز الستين».

ولم يكن أمراء بني أمية على شاكلة يزيد إزاء آل البيت، فإن لعمر بن عبد العزيز موقفا مشرفا سجله له التاريخ، فقد أبطل تلك البدعة الضالة التي اعتاد عليها الأمويون وهي سب الإمام عليّ وبنيه على المنابر، أبطل بدعة السب وأبدلها بالآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

لقد سار هذا الخليفة الراشد على مسيرة جده لأمه، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يعرف للإمام علي منزلته عند رسول الله ﷺ، وكان يقول: لا أبقاني الله بأرض لست بها يا أبا الحسن.

ولكي يكتمل الموضوع عن أحب الأحفاد وأشهرهم، يلزم أن ننوه إلى مقر رأس الإمام الحسين، فالجسد الطاهر دفن في كربلاء، ولكن الرأس الشريف مر برحلة طويلة ، وقد تم الإجماع على أن رأس الحسين استقر بالقاهرة بعد عسقلان وجيء به في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة خمسمائة وتسع وأربعين للهجرة حيث حفظ في السرداب بقصر الزمرد بحي الغورية، في عهد الخليفة الفائز بدين الله الفاطمي وعلى يد وزيره

الصالح طلائع بن رزيك حتى بنى القبر الحالى والقبة المعروفة الآن بالباب الأخضر حيث نقل الرأس الشريف إلى هذا القبر ودفن به فى الثلاثاء الأخير من ربيع الآخر على المشهور من العام التالى وهو موعد الذكرى السنوية للإمام الحسين رضي الله عنه.

ويعجبنا ما قاله العلامة العقاد رحمة الله عليه فى هذا الموضوع: وأيّا كان الموضع الذى دفن فيه ذلك الرأس الشريف، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف.. وإنما للحسين بكرامة الشهادة وكرامة الأسرة النبوية، معنى يستحضره المرء فى قلبه وهو قريب أو بعيد عن قبره أو فى أى مكان.

وما أحسن ما قال المحب:

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب

وذروا الجميع وعرِّجوا نحوى فمشهده بقلبى

لقد اجتمعت للإمام الحسين كريم الشمائل مما تفرق فى أهل الفضل، ولا غرو فهو أبو الأئمة الأتقياء، وثانى السبطين الزكيين لأكرم رسول عرفته البشرية ﷺ، فهو وارث البيت المحمدى، صاحب المدد الفياض، صاحب المبدأ الذى لم تُغره رشوة السلطان ، كما لم تخفه السلطة، بل كان يخاف الله ويتقيه، وليكن بعد ذلك ما يكون، فهان عليه الاستشهاد فى سبيل المبدأ، ليعطى للبشرية درسا خالدا على مر الأزمان، فحافظ بتلك التضحية وبالروح الزكية على شرف الإسلام حين هانت عليه الدنيا فى سبيل نصرة الحق والاستمساك به، كما علّمه وربّاه جده المصطفى ﷺ، حين قال: «والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى

علي أن أترك هذا الأمر ما تركته حتي يظهره الله أو أهلك دونه»، وقد أظهره الله على كل دين. . وكما لقنه أبوه الإمام على كرم الله وجهه أن من هوان الدنيا على الله أنه لم يرضها ثوابا لأحبابه ولا عقابا لأعدائه، فهانت الدنيا عليه في سبيل الله كما هانت على الحسين حين تمثل قول أبيه الإمام كرم الله وجهه (الناس عبيد الدنيا، وأما الدين هو لعق علي ألستهم يتمسكون به ما دارت به معيشتهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قل الديانون».

وعندما استشهد الحسين كان يقينه أنه لكل أجل كتاب ، وكل نفس ذائقة الموت فى أجل محتوم، لا تقديم ولا تأخير، وإن عاش بعده خصومه سنوات، فقد شقوا فيها، فما أكثر العبر وأقل الاعتبار. لقد دالت دولة بنى أمية، وانتقم الله له بعد أن ذاق كثير منهم مرارة الكراهية وقتل منهم من قُتِل، أما من ناصبه العداء، طلبا لود السلطان، فقد خابوا وخسروا بعداوتهم لأحباب رسول الله ﷺ في الدنيا وفى الآخرة كذلك.

وصدق القائل:

ويا من يعاديهم لفرط شقائه
تمهل قليلا أنت فى سقر الحمرا

وبعد أن قضى بنو العباس على خلافة بني أمية، وقامت دولة بنى العباس،فمن خلفائهم من ظلموا آل البيت من ذرية الإمام الحسين، ولكن ما زاد هذا الظلم آل البيت إلا تعاطفا معهم، وصدق المثل، تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن.

ومن العجيب أن حول الله تعالى بعض الخصماء الألداء لآل البيت إلى موالين لهم معترفين بفضلهم ومنزلتهم وإن تعرضوا للهلاك على يد

الحكام الطغاة.

لقد ارتبط باستشهاد الحسين قيام دول وفناء أخرى، فلم يعرف التاريخ استشهاداً غيّر مجراه مثل استشهاد الحسين رضي الله عنه، كما لم يحتفظ لنا التاريخ فى ذاكرته بأكثر من الحديث شعرا ونثرا عن كربلاء الحسين رضي الله عنه.

فلقد انفطرت قلوب الشعراء لهذه المأساة في حق سبط رسول الله ﷺ، فمقتل الحسين بهذه الصورة البشعة حيث قتل وهو ظمآن والماء بين يديه قد شغل المسلمين كلهم حتى أن شاعراً وصف حزن الجن كذلك على مصرع الحسين بعد حزن الإنسان فقال الشريف الرضى على لسان بعض الجن:

مسح الرسول جبينه ... فله بريق فى الخدود
أبواه من عليا قريش ... جده خير الجدود

فأجابهم بعض الناس فى قصيدة منها:

قتلوا ابن بنت نبيهم ... سكنوا به ذات الخدود

وقامت امرأة فقالت:

أيها القاتلون ظلما حسينا ... ابشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبى ومالك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وحامل الإنجيل

وهكذا ظلت كربلاء على امتداد الزمان ، فكما حركت شاعرية الشعراء القدامى حركت شاعرية المعاصرين، فقال الشيخ الصاوى شعلان:

في كربلاء تركت درسا خالدا ... بسوى الدماء حروفه لم تكتب

أنت الشهيد ابن الشهيد وهكذا إرث المكارم منصبا عن منصب
وعزفت عن شرب الفرات مرنقا لما رأيت عليه ذل المشرب
والحر يؤثر أن يموت بعزمه أسدا ولا يحيا بمكر الثعلب
ذكرى خلودك يا حسين صحيفة ذهب الزمان وحسنها لم يذهب

ونختم بشعر للشريف الرضي:

يا قتيلا قوض الدهر به عمد الدين وأعلام الهدى
قتلوه بعد علم منهمو أنه خامس أصحاب الكسا
أي جد وأب يدعوهما جد يا جد أغثني يا أبا
يا رسول الله يا فاطمة يا أمير المؤمنين المرتضى
كيف لم يستعجل الله لهم بانقلاب الأرض أو رجم السما
ميت تبكي له فاطمة وأبوها وعليّ ذ العلا
لو رسول الله يحيى بعده قعد اليوم عليه للعزا

كما تناول الشعر الشعبي كذلك هذه المأساة كما تناولتها المسرحيات التي عبرت عن حزن الناس على مقتل الحسين ونفرتهم من الظلم والبغي حتى ظل الحسين رضي الله عنه حيّاً في قلوب المسلمين وإلى ما شاء الله.

●●●

الإمام على زين العابدين بن الحسين
رضى الله عنه

قال الإمام مالك رضي الله عنه، سمى على بن الحسين بزين العابدين لكثرة عبادته، وهو الإمام الرابع على مذهب الإمامية الإثنى عشرية.

ولد بالمدينة المنورة سنة ثمان وثلاثين للهجرة في شهر شعبان فى اليوم الخامس، فى عهد جده على بن أبى طالب، ولقب إلى جانب لقبه المشهور، زين العابدين، لقب بالزكى، والأمين، وذى الثفنات (وهي علامة في جسده) لكثرة سجوده، وعاصر من خلفاء بنى أمية مروان وعبد الملك والوليد، وأمه سلافة بنت يزدجردبن أنو شروان العادل، ملك الفرس، تزوجها الحسين وكانت من سبايا الفرس، وولدت له على زين العابدين، ولما تحرك ركب الحسين إلى كربلاء كان زين العابدين فى صحبة الركب، وفى كربلاء فى أثناء المعركة التى استشهد فيها أبوه الإمام الحسين، كان زين العابدين مريضا نائما على الفراش، فلم يقتل مع من قتل فى هذا اليوم الحزين.

وشب زين العابدين في بيت العلم، فكان فقيها عابدا زاهدا حكيما، قال عنه الزهرى: «ما رأيت أفقه منه»، وقال ابن المسيب: «ما رأيت أورع منه».

روى أنه لما بلغه أن أحد الناس قد وقع فيه فى غيبته انطلق إليه وقال له، يا هذا: «إن كان ما قلت فىّ حقا فإنى أسأل الله أن يغفر لى، وإن كان ما قلت فىّ باطلا، فإنى أسأل الله أن يغفره لك» ثم ولى عنه.

وعرف عنه أنه كان إذا توضأ للصلاة اصفرّ لونه، فسئل: ما هذا الذي نراه يعتريك عند الوضوء؟ فكان رده عليهم، أما تدرون من سأقف بين يديه؟

وكان أهل المدينة يقولون عنه: ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت علي بن الحسين، ذلك لأن أناسا في المدينة كانوا يعيشون لا يدرون من أين معايشهم التي تأتيهم خفية، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلا إلى منازلهم، فعرفوا السر بعد موته. فقد كان يحمل جراب الخبز على ظهره في الليل يتصدق به، فلما غسّلوه جعلوا ينظرون إلى سواد في ظهره، فسئل أهله عنه فقالوا لهم: كان يحمل على ظهره جراب الخبز ليلا يعطيه فقراء أهل المدينة.

وروى أنه في مرضه زاره جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ فدتك أنفسنا. فقال: في عافية والحمد لله على ذلك، فكيف أصبحتم أنتم جميعا؟ قالوا: أصبحنا والله لك يا ابن رسول الله محبين وادّينَ. فقال لهم: «من أحبّنا لله أسكنه الله في ظل ظليل يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله، ومن أحبنا يريد مكافأتنا، كافأه الله عنّا الجنة. ومن أحبنا لغرض دنيا أتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب».

وروى عنه أنه لما حج هشام بن عبد الملك، فطاف بالبيت، وأراد أن يستلم الحجر، فلم يصل إليه لكثرة الزحام فنصبوا له منبرا إلى جانب زمزم في الحطيم، وجلس عليه وحوله جماعة من أهل الشام، فبينما هم كذلك إذ أقبل علي زين العابدين يريد الطواف، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى الناس له ووسعوا له الطريق حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل

الشام: من هذا الرجل الذى هابه الناس هذه المهابة فتنحوا له عن الحجر يمينا وشمالا؟ فقال هشام، لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرا، فسمع الحوار فقال للرجل: أنا أعرفه، فقال له الرجل: من هو يا أبا فراس؟ عندئذ قال الفرزدق قصيدته المشهورة، يذكر فيها مناقب زين العابدين، ويبين أنه أعظم من أن يُنكر معرفته أحد من الناس لفضله، خاصة هشام بن عبد الملك فهو احد أئمة آل البيت المطهرين، وجاء فى هذه القصيدة المشهورة:

هو الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العَلَمُ

والقصيدة واردة في مناقب ابنه محمد الباقر بكاملها..

لقد كانت نشأة علي زين العابدين فى البيت الهاشمى الذى ضم أبويه وجده الإمام على بن أبى طالب، وهذا البيت قد ورث أهله النور والهدى، نور رسول الله ﷺ،وهداه فورث زين العابدين العلم والحكمة وكريم الأخلاق، والسجايا الكريمة، وفى هذا الجو الروحى تعلم زين العابدين كل الفضائل كما وصفه الفرزدق:

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العَلَمُ

لقد حفظه الله من القتل يوم كربلاء ليحفظ به ذرية آل البيت بعد أبيه الحسين رضى الله عنهما، فقد استشهد أبوه وأعمامه وأنصارهم، وكان أحد أعداء الله من جند يزيد بن معاوية يريد قتله، فقام بربط يديه إلى عنقه وسار به إلى أن أدخل على ابن زياد والى العراق، فسأله عن اسمه فقال: على بن الحسين، قال له: ألم يُقتل على بن الحسين حتى الآن؟ فرد عليه:

كـــان لى أخ أكبــــر منى يقال له على، قتله الناس. قال ابن زياد: بل قـتله الله، فـقـال على زين العـابدين: ﴿ الـلَّهُ يَتَوَفَّى الأَنـفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[الزمر: ٤٢]، فاغتاظ ابن زياد وأمر بقتله، فـصاحت عمته السيدة زينب رضى الله عنها: يا ابن زياد، حـسبك ما أرقت من دمـائنا، أسألك الله إن قتلته إلاَّ تقتلنى معه، فتركه، لأن قتل النساء فى معارك الرجال يعد نقيصة فى عرف العرب.

لقد نجّى الله عليا من القتل فى المعركة وبين يدى ابن زياد بعد المعركة وحين حـمل مع النساء السـبـايا من أهل البيـت إلى يزيد بن معـاوية فى دمشق، ولما أدخل عليـه مكتوف اليدين، قال له يزيد: أبوك جـهل قدرى ونازعنى سلطانى فـصنع الله به ما قد رأيت، فـرد عليه: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيـبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[الحديد: ٢٢].

ولما قام رجل وقال، إنكم أسرى فى أيدينا، وتلفظ بما يخدش حياء نساء أهل البيت، ردت عليه السيدة زينب: كـذبت، وما ذلك لك إلا أن تخرج من ديننا وتديـن بغير شريعـتنا، وقد غضب يـزيد وهمّ بقتل على، ولكن الله صرفه عن ذلك.

وبعـد هذه المحنة التى عاشـها زين الـعابدين، حـيث فجع فى أبيـه وإخوته وأعـمامه وأبناء عمـومته، فلم يُرَ إلا حزينا سـاهما، لا يكف عن البكاء، وكان يسأل كثيرا عن حالة الحزن التى تمكنت منه، فيرد: «إن سيدنا يعقوب قد ابيضّت عيناه من الحزن على يوسف، ولم يعلم أنه مات، وإنى رأيت بضعة عشر من أهلى يقتلون فى غداة واحدة، أفترون حزنهم يفارق قلبى ما حييت؟».

ولقد كان دائما فى مناجاة لربه وفى سجود لله سبحانه، لذلك كان من ألقابه «السجاد» لدوام سجوده لله.. وكان يقول:

«إن قوما عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فى الثواب، فتلك عبادة التجار، وآخرين عبدوه شكرا ومحبة، فتلك عبادة الأحرار»، وتلك الأخيرة هى عبادة على زين العابدين، ولقد ترك أثر السجود فى ركبتيه أثرا لا يُمحى. وقد رؤى فى فناء الكعبة يناجى ربه ويقول وهو ساجد عند الحجر: «عبدك بفنائك، سائلك بفنائك، فقير لك بفنائك»، وظل يكررها، وقال من سمعه، فوالله ما دعوت بها فى كرب إلا كُشِفَ عنى.

وكان من مناجاته كذلك: «يا سيدى، تعذبنى وحبك فى قلبى؟ أما وعزتك لئن فعلت لتجمعنّ بينى وبين قوم طالما عاديتهم فيك».

وكان من شدة ورعه إذا سافر، يكتم نسبه عن الناس خوفا من أن يأخذ برسول الله ﷺ ما لا يستطيع أن يعطى مثله، كما كان كثير الصدقة يعطيها بيده ويقول: إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل، وكان يكثر من الصدقة فى الليل ويقول: صدقة الليل تطفئ غضب الرب وتنوّر القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة.

كما كان يقول: سادة الناس فى الدنيا الأسخياء الأتقياء، وفى الآخرة أهل الدين والفضل والعلم، لأن العلماء ورثة الأنبياء.

ومن أقواله: إنى لأستحى من الله أن أرى الأخ من إخوانى فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا.

ولقد ترك على زين العابدين مآثر علمية تشهد له بورثته العلوم والأنوار المحمدية، ومنها (رسالة الحقوق) سجلها له الحسين بن شعبة

الحلبي في تحفة العقول، كما سجلها له الصدوق في الخصال، وقال: هذه رسالة علي بن الحسين رضي الله عنهما إلى بعض أصحابه، اشتملت على خمسين حقاً تتحدث عن مسئولية كل مسلم تجاه الآخرين، ولنا عود إلى هذه الرسالة.

ومما يؤثر عن عفوه وتسامحه أنه ذات يوم كانت جاريته تصب عليه الماء، فسقط الإبريق من يدها علي وجهه فجرحه، فنظرت إليه معتذرة قائلة: والكاظمين الغيظ، فقال: قد كظمت غيظي، فقالت: والعافين عن الناس، قال: قد عفوت عنك، فقالت: والله يحب المحسنين: فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

كان يقول: إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحب ونحمده على ما نكره.

ولقد كان منصورا على أعدائه بتقواه وورعه، نصره الله وأثلج صدره وأخذ له ثأره ممن ظلموا وأهانوا ذرية رسول الله ﷺ، فشهد في حياته هذا المشهد.. تمكن المختار الثقفي من أن يحاصر ابن زياد الذى أمر بقتل الحسين والذى جز رأسه في كربلاء، فقتله ثم أرسل رأس ابن زياد إلى محمد بن الحنفية بن الإمام على في المدينة، وكان على زين العابدين يجلس مع عمه محمد، وكان الناس في المدينة في فرح شديد لهذا المشهد.. مشهد مصرع الظلم والجبروت، ولما رأي على زين العابدين رأس قاتل أبيه مجزوزة ترحّم على أبيه وقال: جيء برأس أبى الحسين إلى ابن زياد وهو يتغدى، وجيء لنا برأس ابن زياد ونحن نتغدّى، ولم يزد إلا أن دعا الله على نصرة المظلوم ولو بعد حين. وكان ابن عباس يمتدح المختار ويقول: أصاب بثأرنا ووصلنا.

وكان زين العابدين يكن لصحابة رسول الله ﷺ حبًا مخلصا ويُقَدِّر أبا بكر وعمر ويثنى عليهما كثيرا، وكان يغضب ممن يحاول مجاملته بإنقاص حق أبى بكر وعمر وعثمان.

وكثيرا ما وُشِىَ به لدى حكام بني أمية، فكانوا يستدعونه موثقا إلى دمشق، وما يكادون يسمعون كلامه حتى يعتذرون له ويعيدونه إلى المدينة مكرما.. بل إن مروان وعبد الملك كانوا يعرفون منزلته وحقه عليهم. وكانوا يسمعون منه حِكَمًا غالية منها:

- لا يخاف عبد إلا ذنبه.
- ولا يرجو إلا ربه.
- ولا يستحى المرء إذا سئل عما لا يعلم أن يتعلم.
- والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا إيمان لمن لا صبر له.
- وعجبت لمن يحتمى من الطعام لِمَضَرّته ولا يحتمي من الذنب لمعرفته.

وكان كثير البر بأمه لدرجة أنه كان يتورع أن يأكل معها مخافة أن تقع يده فى الإناء قبل يدها.

وله رضي الله عنه «رسالة الحقوق» أوردها (الصدوق) فى الخصال، كما أوردها الحسين بن على بن شعبة الحلبى فى (تحفة العقول).

روى الصدوق فى الخصال عن على بن أحمد بن موسى إلى أن أسندها أبى حمزة الثمالي: هذه رسالة على بن الحسين عليهما السلام إلى بعض أصحابه اشتملت إلى خمسين حقا عن مسئولية كل فرد مسلم تجاه الآخرين:

ومنها: «اعلـم رحمك الله أن لله عليك حقـوقا محـيطة بك في كل حركة تحـركتها، أو سكنة سكنتـها (أو حال حللتها) أو منـزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها، أو آلة تصرفت بها، بعضها أكبر من بعض.

وأكبر حـقوق الله عليك، ما أوجبـه لنفسه تبارك وتعـالى، من حقه الذى هو أصل الحـقوق، ومنه تتـفرع – ثم ما أوجـبه عليك لنفـسك من قرنك إلى قدميك على اختلاف جوارحك:

- فجعل لبصرك عليك حقًا.
- ولسمعك عليك حقا.
- وللسانك عليك حقا.
- وليدك عليك حقا.
- ولرجلك عليك حقا.
- ولبطنك عليك حقا.
- ولفرجك عليك حقا.

فهذه الجوارح السبع التى بها تُكَوِّنُ الأفعال، ثم جعل لأفعالك عليك حقوقا:

- لصلاتك عليك حقا.
- ولصومك عليك حقا.
- ولصدقتك عليك حقا.
- ولهديك عليك حقا.
- ولأفعالك عليك حقا.

ثم تخرج الحقوق منك إلى غيـرك من ذوى الحقوق الواجبة عليك، وأوجبها عليك: حق أئمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمك.

فهذه حقوق يتشعب منها حقوق:

فحقوق أئمتك ثلاثة: أوجبها عليك حق سائسك بالسلطان، ثم سائسك بالعلم، ثم حق سائسك بالملك، وكل سائس إمام.

وحقوق رعيتك ثلاثة: أوجبها عليك: حق رعيتك بالسلطان، ثم حق رعيتك بالعلم، فإن الجاهل رعية العالم، وحق رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت الأيمان.

وحقوق رحمك كثيرة متصلة بقدر اتصال الرحم في القرابة - فأوجبها عليك: حق أمك، ثم حق أبيك، ثم حق ولدك، ثم حق أخيك، ثم الأقرب فالأقرب، والأولى فالأولى.

ثم حق ذى المعروف لديك، ثم حق مؤذنك بالصلاة، ثم حق إمامك فى صلاتك، ثم حق جليسك، ثم حق جارك، ثم حق صاحبك، ثم حق شريكك، ثم حق مالكَ، ثم حق غريمك الذى تطالبه، ثم حق غريمك الذى يطالبك، ثم خليطك، ثم حق خصمك المدعى عليك، ثم حق خصمك الذى تدعى عليه، ثم حق مستشيرك، ثم المشير عليك، ثم مستنصحك، ثم الناصح لك، ثم حق من هو أكبر منك، ثم من هو أصغر منك، ثم حق سائلك، ثم حق من سألته، ثم حق من جرى لك على يديه مسألة بقول أو فعل، أو مسرة بقول أو فعل عن تعمد منه أو غير تعمد، ثم حق أهل ملتك عامة، ثم حق أهل الذمة، ثم الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال، وتصرف الأسباب، فطوبى لمن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه ووفقه وسدده.

(١) فأما حق الله الأكبر عليك:

فأن تعبده لا تشرك به شيئا، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة، ويحفظ لك ما تحب منهما.

(٢) وأما حق نفسك عليك:

فأن تستوفيها في طاعة الله (وفى الخصال أن تستعملها بطاعة الله عز وجل) فتؤدى إلى لسانك حقه، إلى سمعك حقه، وإلى بصرك حقه، إلى يدك حقها، وإلى رجلك حقها، وإلى بطنك حقه، وإلى فرجك حقه، وتستعين بالله على ذلك.

(٣) وأما حق اللسان:

فإكرامه عن الخنا وتعويده علي الخير، وحمله على الأدب، وإحجامه إلا لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا، وإعفاؤه من الفضول الشنعة القليلة الفائدة التى لا يؤمن ضررها مع قلة عائدتها، ويعد شاهد العقل والدليل عليه، وتزين العاقل بعقله حسن سيرته فى لسانه، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(٤) وأما حق السمع:

فتنزيهه عن أن تجعله طريقا إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث فى قلبك خيرا أو تكسب خلقا كريما، فإنه باب الكلام إلى القلب - يؤدى إليه ضروب المعانى على ما فيها من خير أو شر، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق السمع تنزيهه عن سماع الغيبة، وسماع ما لا يحل سماعه.

(٥) وأما حق بصرك:

فغضه عما لا يحل لك، وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصرا أو تستفيد بها علما، فإن البصر باب الاعتبار.

(وفى الخصال): وحق البصر أن تغمضه عما لا يحل لك، وتعتبر بالنظر به.

(٦) وأما حق رجليك:

فأن لا تمشى بهما إلى ما لا يحل لك، ولا تجعلهما مطيتك فى الطريق المستخف بأهلها فيها، فإنها حاملتك وسالكة بك مسلك الدين والسبق لك، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق رجليك أن لا تمشى بهما إلا ما لا يحل لك فيهما، ولا بد لك أن تقف بهما على الصراط، فانظر أن لا تزلا بك فتردى إلى النار

(٧) وأما حق يدك:

فأن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك، فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة فى الآجل، ومن الناس اللائمة في العاجل، ولا تقبضها عما افترض الله عليها، ولكن توقرها بقبضها عن كثير مما لا يحل لها وبسطها إلى كثير مما ليس عليها، فإذا هي قد عقلت وشرفت فى العاجل ووجب لها حسن الثواب من الله فى الآجل.

(وفى الخصال): وحق يدك أن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك.

(٨) وأما حق بطنك:

فأن لا تجعله وعاء لقليل من الحرام ولا لكثير، وأن تقصد له في الحلال، ولا تخرجه من حد التقوية إلى حد التهوين وذهاب المروءة، في الشبع المنتهى بصاحبه مكسلة ومثبطة ومقطعةعن كل بر وكرم، وإن الرى المنتهى بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروءة:

(وفى الخصال): وحق بطنك أن لا تجعله وعاء للحرام، ولا تزايد على الشبع.

(٩) وأما حق فرجك:

فحفظه مما لا يحل لك، والاستعانة عليه بغض البصر، فإنه من أعون الأعوان، وضبطه بالجوع والظمأ وكثرة ذكر الموت والتهدد لنفسك بالله والتخويف لها به، وبالله العصمة، والتأييد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق فرجك أن تحصنه عن الزنا، وتحفظه من أن يُنْظَر إليه.

(١٠) فأما حق الصلاة:

فأن تعلم أنها وفادة إلى الله، وأنك قائم بين يدى الله، فإذا علمت ذلك كنت خليقا أن تقوم فيها مقام الذليل الراغب الراهب، والخائف الراجى، والمسكين المتضرع المعظم من قام بين يديه بالسكون أو الإطراق، وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له والرغبة إليه فى فكاك رقبتك التى أحاطت بها خطيئتك واستهلكتها ذنوبك ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله عز وجل، وأنك فيها قائم بين يدى الله عز وجل، فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل المتواضع، الراغب الراهب، الراجى الخائف، المستكين المتضرع لمن كان بين يديه بالسكون والوقار، وتقبل عليها بقلبك، وتقيمها بحدودها وحقوقها، ولم يذكر فى التحف حق الحج.. وذكره فى الخصال فقال:

وحق الحج:

أن تعلم أنه وفادة إلى ربك، وفرار إليه من ذنوبك، وبه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذى أوجبه الله عليك.

(١١) وأما حق الصوم:

فأن تعلم أنه حجاب ضربه الله على لسانك وسمعك وبصرك، وفرجك وبطنك، ليسترك به من النار، وهكذا جاء فى الحديث: «الصوم جنة من النار».

فإن سكنت أطرافك فى حجبها رجوت أن تكون محجوبا، وإن أنت تركتها تضرب فى حجابها وترفع جنبات الحجاب فتطلع إلى ما ليس لها بالنظرة الداعية للشهوة، والقوة الخارجة عن حد التقية لله لم تأمن أن تخرق الحجاب، وتخرج منه، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): بعد قوله من النار: فإن تركت الصوم خرقت ستر الله عليك.

(١٢) وأما حق الصدقة:

فأن تعلـم أنها ذخرك عند ربـك، ووديعتك التي لا تحـتاج إلى الإشـهاد، فـإذا علمت ذلك كنت بما اسـتودعـته سـرا أوثق منك بما استودعته علانيـة، وكنت جديرا أن لا تكون أسررت إليه أمرا أعلنته، وكان الأمر بينك وبينه فيها سرا على كل حـال، ولم تيتظهر عليه فيما استـودعته منهـا بإشهاد الأسـماع والأبصار علـيه بها كـأنها أوثق في نفسك، وكأنك لا تثق به في تأدية وديعتك إليك، ثم لم تمنن بها على أحد، لأنها لك. . فإذا امتننت بها لم تأمن أن يكون بها تهجين حالك إلى من مننت بهـا عليه، لأن في ذلك دليلا على أنـك لم ترد نفسك بها، لو أردت نفسك بها لم تمنن بها على أحد، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): وحق الصدقة أن تعلم أنها ذخرك عند ربك عز وجل، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الإشهاد عليها، وكنت بما تستودعه سرا أوثق بما تستودعه علانيـة، واعلم أنها تدفع البلايا والأسقام عنك في الدنيا، وتدفع عنك النار في الآخرة.

(١٣) وأما حق الهدي:

فأن تخلص به الإرادة إلى ربك، والتعرض لرحمته وقبوله، ولا تريد عيـون الناظرين دونه، فـإذا كنت كـذلك لم تكن متكلفـا ولا متصنعا، وكنت إنما يقصد وجه الله.

واعلم أن الله يراد باليسـير ولا يراد بالعسـير، كمـا أراد بخلقه التيسيـر ولم يرد بهم التعسير، وكـذلك التذلل أولى بك من التدهق، لأن الكلفـة والمؤنة في المتدهقين، فـأما التـذلل والتمـسكن فلا كلـفة

فيهما، ولا مؤنة عليهما، لأنهما الخلقة، وهما موجودان فى الطبيعة، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق الهدى أن تريد به الله عز وجل وإلا تريد به خلقه، ولا تريد به إلا التعرض لرحمة الله، ونجاة روحك يوم تلقاه.

ثم حقوق الأئمة

فأما حق سائسك السلطان:

فأن تعلم أنك جُعِلْتَ له فتنة، وأنه مبتلى فيك بما جعل الله له عليك من السلطان، وأن تخلص له فى النصيحة، وأن لا تماحكه وقد بسطت يده عليك، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه، وتذلل وتلطف لإعطائه من الرضا ما يكفه عنك ولا يضر بدينك، وتستعين عليه فى ذلك بالله ولا تعانده، فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك فعرضتها لمكروهه، وعرضته للهلكة فيك، وكنت خليقا أن تكون معينا له على نفسك، وشريكا له فيما أتى إليك، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق السلطان أن تعلم - إلى قوله - من السلطان. وبعده: أن عليك أن لا تتعرض لسخطه فتلقى بيديك إلى التهلكة، وتكون شريكا له فيما يأتى إليك من سوء.

فأما حق سائسك بالعلم:

فالتعظيم له والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم، بأن تفرغ له عقلك، تحضره فهمك، وتذكى له قلبك، وتجلى له بصرك، وبترك

اللذات، ونقص الشهوات، وأن تعلم أنك فيما ألقى - رسوله إلى من لقيك من أهل الجهل، فلزمك حسن التأدية عنه إليهم، ولا تخنه فى تأدية رسالته، والقيام بها عنه إذا تقلدتها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وحق سائسك بالعلم: التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وأن لا ترفع عليه صوتك، ولا تجب أحدا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذى يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحدا، وأن تستر عيوبه، وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدوا، ولا تعادى له وليا، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله - جل اسمه - لا للناس.

وأما حق سائسك بالملك:

فنحو من سائسك بالسلطان إلا أن هذا يملك ما لا يملكه ذاك، تلزمك طاعته فيما دق وجل منك، إلا أن يخرجك من وجوب حق الله، ويحل بينك وبين حقه وحقوق الخلق، فإذا قضيته رجعت إلى حقه فتشاغلت به، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): فأما حق سائسك بالملك فأن تطيعه ولا تعصيه إلا فيما يسخط الله عز وجل، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

ثم حقوق الرعية

فأما حقوق رعيتك بالسلطان:

فأن تعلم أنك إنما استرعيتهم بفضل قوتك عليهم، فإنه إنما أحلهم محل الرعية لك ضعفهم، فما أولى من كفاكه ضعفه وذله، حتى صيره لك رعية، وصير حكمك عليه نافذا، لا يمتنع منك بعزة ولا قوة، ولا

يستنصر فيما تعاظمه منك إلا بالرحمة والحياطة والأناة، وما ألاك إذا عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزة والقوة التى قهرت بها أن تكون لله شاكرا، ومن شكر الله أعطاه فيما أنعم عليه، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق رعيتك بالعلم:

فأن تعلم أن الله قد جعلك لهم خازنا فيما آتاك من العلم، وولاك من خزانة الحكمة، فإن أحسنت فيما ولاك الله من ذلك - وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق الناصح لمولاه فى عبيده، الصابر المحتسب الذى إذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال التى فى يديه - كنت راشدا، وكنت لذلك آملا معتقدا وإلا كنت له خائنا، ولخلقه ظالما، ولسلبه وغيره معترضا.

وأما حق رعيتك بملك النكاح:

فأن تعلم أن الله جعلها سكنا ومستراحا، وأنسا وواقية، وكذلك كل واحد منكما يجب أن يحمد الله على صاحبه ويعلم أن ذلك نعمة منه عليه، ووجب أن يحسن صحبة نعمة الله ويكرمها ويرفق بها، إن كان حقك عليها أغلظ وطاعتك بها ألزم فيما أحببت وكرهت ما لم تكن معصية - فإن لها حق الرحمة والمؤانسة، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها لك سكنا وأنسا فتعلم أن ذلك نعمة من الله عليك، فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقك عليها أوجب فإن لها عليك أن ترحمها، وتطعمها وتكسوها، وإذا جهلتْ عفوتَ عنها.

وأما حق خادمك:

فــأن تعلم أنه خَلْقُ رَبِّكَ ، ولحمــك ودمك، وأنك لم تملكه لأنك صنعتــه دون الله، ولا خلقت له سمــعا ولا بصرا، ولا أجـريت له رزقا، ولكن الله كـفاك ذلك، ثم سـخره لك وائتـمنك عليـه، واستـودعك إياه لتحفظه فيه، وتسير فيــه بسيرته، فتطعمه مما تأكل، وتلبــه مما تلبس، ولا تكلفه ما لا يطيــق، فإن كرهته خرجت إلى الله منه، واستـبدلت به، ولا تعذب خلق الله، لا قوة إلا بالله.

(وفي الخـصال): وأمــا حق مملوكك فــأن تعلم أنه خَلْقُ رَبِّكَ، وابن أبيك وأمك، ولحــمك ودمك، ولم تملكه لأنك صنعتــه من دون الله، ولا خلقت شيئا من جوارحه، ولا أخرجت له رزقا، ولكن الله عز وجل كفاك ذلك، ثم سخره لك وائتــمنك عليه، واستودعك إياه ليحــفظ لك ما تأتيه من خير إليه، فأحسِنْ إليه كما أحسن الله إليك، وإن كرهته استبدلت له، ولا تعذب خلق الله عز وجل، ولا قوة إلا بالله.

أما حق الرحم:

فـحق أمك: أن تعلم أنهــا حــملتك حـيث لا يحمــل أحدٌ أحــدًا، وأطعمــتك من ثمرة لبــها ما لا يطعم أحــدٌ أحدًا، وأنهــا وَقَتْكَ بـسمعــها وبصرها ويدها ورجلهــا وشعرها وجــميع جوارحــها، مــستبشرة فــرحة، محــتملة لما فيــه مكروهها وألمها، وثقلهــا وغمها، حــتى دفعتــها عنك يد القدرة، وأخرجتك إلى الأرض، فَرَضِيَتْ أن تــشبَع وتجوع هي، وتكسوك وتعرى، وترويك وتظــمأ، وتظلك وتضحى، وتنعــمك ببؤســها، وتلذذك بالنوم بأرقــها، وكان بطنهــا لك وعاء، وحــجرها لك حــواء، وثديها لك

سقاء، ونفسها لك وقاء، تباشر حر الدنيا وبردها لك ودونك، فتشكرها على قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلا بعون الله وتوفيقه.

(وفى الخصال): وأما حق أمك فإن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحدٌ أحدًا، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطى أحدٌ أحدًا، وقتك بجميع جوارحها ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحر والبرد لتكون لها، فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك:

فأن تعلم أنه أصلك وأنت فرعه، وأنك لولاه لم تكن، فمهما رأيت فى نفسك مما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، واحمد الله واشكره على قدر ذلك، ولا قوة إلا بالله.

أما حق ولدك:

فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك، فى عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسئول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه، والمعونة له على طاعته فيك وفى نفسه، فمثاب على ذلك ومعاقب، فاعمل فى أمره عمل المتزين بحسن أثره عليك فى عاجل الدنيا، المعذر إلى ربه فيما بينك وبينه، بحسن القيام عليه، والأخذ له منه، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): فاعمل فى أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه.

وأما حق أخيك:

فأن تعلم أنه يدك التى تبسطها، ظهرك الذى تلتجئ إليه، وعزك الذى تعتمد عليه، وقوتك التى تصول بها، فلا تتخذه سلاحا على معصية

الله، ولا عدة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على نفسه، ومعونته على عدوه، والحول بينه وبين شياطينه، وتأدية النصيحة إليه، والإقبال عليه في الله، فإن انقاد لربه، وأحسن الإجابة له، وإلا فليكن الله آثر عندك، أكرم عليك منه.

(وفي الخصال): ولا تدع نصرته على عدوه، والنصيحة له، فإن أطاع الله وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله.

أما حق المنعم عليك بالولاء:

فأن تعلم أنه أنفق فيك ماله، وأخرجك من ذل الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها، وأطلقك من أسر الملك، وفكّ عنك حُلُقَ العبودية، وأوجدك رائحة العز، وأخرجك من سجن القهر، ودفع عنك العسر وبسط لك لسان الإنصاف، وأباحك الدنيا كلها، فملكك نفسك، وحل أسرك، وفرغك لعبادة ربك، واحتمل بذلك التقصير في ماله.. فتعلم أنه أولى الخلق بك بعد أولى رحمك في حياتك وموتك، وأحق الخلق بنصرك ومعونتك ومكانتك في ذات الله، فلا تؤثر عليه نفسك ما احتاج إليك.

(وفي الخصال): وَإِنَّ نُصْرَتَهُ عليك واجبة بنفسك وما احتاج إليه منك، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق ذي المعروف عليك:

فأن تشكره وتذكر معروفه، وتنشر له المقالة الحسنة، وتكسبه القالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرا وعلانية، ثم إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته، وإلا كنت مرصدا له، مُوَطِّنًا نفسك عليها.

(وفى الخصال): ثم إن قدرت على مكافأته يومًا كافأته.

أما حق المؤذن:

فأن تعلم أنه مُذَكِّرُكَ بربك، وداعيك إلى حظك، وأفضل أعوانك على قضاء الفريضة التى افترضها الله عليك، فتشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك، وإن كنت فى بيتك متهمًا وعلمت أنه نعمة من الله عليك لا شك فيها، فاحسن صحبة نعمة الله بحمد الله عليها على كل حال، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق إمامك فى صلواتك:

فأن تعلم أنه قد تقلد السفارة فيما بينك وبين الله، والوفادة إلى ربك، وتكلم عنك ولم تتكلم عنه، ودعا لك ولم تدع له، وطلب فيك ولم تطلب فيه، وكفاك هم المقام بين يدى الله والمساءلة له فيك ولم تكفه ذلك، فإن كان فى شيء من ذلك تقصير كان به دونك، وإن كان إثما لم تكن شريكه فيه، ولم يكن لك عليه فضل، فقد وقى نفسك بنفسه، ووقى صلاتك بصلاته، فتشكر له على ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): فإن كان نقص كان به دونك، وإن كان تمام كنت شريكه، ولم يكن له عليك فضل.. فتشكر له على قدر ذلك.

أما حق الجليس:

فأن تلين له كنفك، وتطيب له جانبك، وتنصفه فى مجاراة اللفظ، ولا تغرق فى نزع اللحظ إذا لحظت، وتقصد فى اللفظ إلى إفهامه إذا لفظت، وإن كنت الجليس إليه كنت فى القيام عنه بالخيار، وإن كان الجالس إليك كان بالخيار، ولا تقوم إلا بإذنه، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): ولا تقوم من مجلسك إلا بإذنه، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك. . تنسى زلاته، وتحفظ خيراته، ولا تُسمعه إلا خيرا.

وأما حق الجار:

فحفظه غائبا، وكرامته شاهدا، ونصرته ومعونته في الحالين جميعا، لا تتبع له عورة، ولا تبحث له عن سودة لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلف، كنت لما علمت حصنا حصينا، وسترا ستيرا، لو بحثت الأسنة عنه ضميرا لم تصل إليه لانطوائه عليه.

لا تستمع إليه من حيث لا يعلم، لا تسلمه عند شديدة، ولا تحسده عند نعمة، تقيل عثرته، وتغفر زلته، ولا تدخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ويجب أن تكون سِلْمًا له، ترد عنه لسان الشتيمة، وتبطل كيد من يكيده، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): ونصرته إذا كان مظلوما، فإن علمت عليه سوءاً سترته عليه، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه.

أما حق الصاحب:

فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلا، وإلا فلا أقل من الإنصاف، وأن تكرمه كما يكرمك، وتحفظه كما يحفظك، ولا يسبقك فيما بينك وبينه إلى مكرمة، فإن سبقك كافأته، ولا تقصر به عما يستحق من المودة، تلزم نفسك نصيحته وحياطته، ومعاضدته على طاعة ربه، ومعونته على نفسه فيما يهم به من معصية ربه، ثم تكون عليه رحمة، ولا تكن عليه عذابا، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): فأن تصحبه بالتفضل والإنصاف، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة، وتوده كما يودك، وتزجره عما يهم به من معصية.

وأما حق الشريك:

فإن غاب كفيته، وإن حضر ساويته، ولا تعزم على حكمك دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، وتتقى خيانته فيما عز أو هان، فإنه بلغنا أن يد الله مع الشريكين ما لم يتخاونا، ولا قوة إلا بالله.

أما حق المال:

فأن لا تأخذه إلا من حله، ولا تنفقه إلا فى حله، ولا تحرفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، والمال من الله، فلا تجعله إلا إلى الله، وسببا إلى الله، ولا تؤثر به على نفسك من لعله لا يحمدك، وبالحرى أن لا يحسن خلافته فى تركتك، ولا يعمل فيه بطاعة ربه، فيذهب بالغنيمة وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التبعة، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): فاعمل فيه بطاعة ربك، ولا تبخل به.

وأما حق الغريم المطالب لك:

فإن كنت موسرا أوفيته وكفيته، وأغنيته ولم ترده وتمطله، فإن رسول الله ﷺ قال: «مطل الغنى ظلم».

وإن كنت معسرا أرضيته بحسن القول، وطلبت إليه طلبا جميلا ورددته عن نفسك رداً لطيفا، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته، فإن ذلك لؤم، ولا قوة إلا بالله.

أما حق الخليط:

فـأن لا تغره ولا تغـشه، ولا تكذبه ولا تغـفله، ولا تخدعـه، ولا تعمل فى انتفاضه عمل العدو الذى لا يبقى على صاحبه، وإن اطمأن إليك استقصيت له على نفسك، وعلمت أن غبن المسترسل رِبًا.

(وفى الخصال): ولا تخدعه وتتقى الله تبارك وتعالى فى أمره.

وأما حق الخصم المدعى عليك:

فإن كان ما يدعي عليك حقا فـلا تنفسح في حجته، ولا تعمل فى إبطال دعوته، وكنت خصم نـفسك له والحاكم عليها، والشـاهد له بحقه دون شهـادة الشهود، فـإن ذلك حق الله عليك، وإن كان ما يدعـيه باطلا رفـقت به وردعـته، ونـاشدته بدينه، وكسـرت حـدته عنك بذكـر الله، وابتعدت عن حشو الكلام ولغطه الذى لا يرد عنك عادية عدوك، بل تبوء بإثمه، وبـه يشحذ عليـك سيف عداوته، لأن لفـظة السوء تبعـث الشر، والخير مقمعة للشر، ولا قوة لا بالله.

(وفى الخصـال): فإن كـان ما يدعِي عليك حـقا كنت شـاهده على نفسك ولم تظلمه وأوفيته حـقه، وإن كان ما يدعى به باطلا رفقت به ولم تأت فى أمره غير الرفق، ولـم تسخط ربك فى أمره.

أما حق الخصم المدعى عليه:

فإن كان مـا تدعيه حقا أجـملت فى مقاولته بمخـرج الدعوى، فإن للدعوى غلـظة فى سمع المدعى عليـه، وقصدت قـصد حجـتك بالرفق، وأمهـل المهلة، وأبين البيـان، وألطف اللطف، ولم تتشـاغل عن حجـتك بمنازعته وبالـقيل والقال، فتذهب عنك حـجتك، ولا يكون لك فى ذلك درك، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): إن كنت محقا فى دعواك أجملت مقاولته ولم تجحد حقه، وإن كنت مبطلا فى دعواك اتقيت الله عز وجل، وتبت إليه وتركت الدعوى.

وأما حق المستشير:

فإن حضرك له وَجْهُ رأيٍ جهدت له فى النصيحة، وأشرت عليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملت به، وليكن ذلك منك في رحمة ولين، فإن اللين يؤنس الوحشة، وإن الغلظ يوحش موضع الأنس. . وإن لم يحضرك له رأى وعرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه، وأرشدته إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): إن علمت له رأيا حسنا أشرت عليه، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم.

وأما حق المشير عليك:

فلا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه إذا أشار عليك، فإنما هي الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم، فكن عليه فى رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه.

فأما تهمته فلا تجز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه، وحسن وجه مشورته، فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والإرصاد بالمكافأة فى مثلها إن فزع إليك، ولا قوة إلا بالله.

(وفى الخصال): أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه، إن وافقك حمدت الله عز وجل.

وأما حق المستنصح:

فإن حقه أن تؤدي إليه النصيحة، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): وليكن مذهبك الرحمة له، والرفق به.

وأما حق الناصح:

فأن تلين له جناحك، ثم تشرئب له قلبك، وتفتح له سمعك حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق لها وإلا رحمته ولم تتهمه، وعلمت أنه لم يألك نصحا إلا أنه أخطأ. . إلا أن يكون عندك مستحقا للتهمة، فلا تعبأ بشيء من أمره على كل حال، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): وتصغي إليه بسمعك، فإن أتى بالصواب حمدت الله، وإن لم يوفق رحمته. إلخ.

وأما حق الكبير:

فإن حقه توقير سنه وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيه، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق، ولا تؤمه في طريق، ولا تستجهله، وإن جهل عليك تحملت، وأكرمته بحق إسلامه مع سنه، فإنما السن بقدر الإسلام، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): توقيره لسنه وإجلاله لتقدمه في الإسلام قبلك.

وأما حق الصغير:

فرحمته وتثقيفه وتعليمه، والعفو عنه والستر عليه، والرفق به والمعونة له والستر على جرائر حداثته، فإنه سبب للتوبة والمداواة له، وترك مماحكته، فإن ذلك أدنى لرشده.

(وفى الخصال): رحمته فى تعليمه.

وأما حق السائل:

فإعطاؤه إذا تهيأت صدقه وقدرت على سد حاجته، والدعاء له فيما تنزل به، والمعاونة له على طلبته، وإن شككت فى صدقه وسبقت إليه التهمة ولم تعزم على ذلك، لم تأمن أن يكون من كيد الشيطان، أراد أن يصدك عن حظك، ويحول بينك وبين التقرب إلى ربك، تركته بستره، ورددته ردا جميلا، وإن غَلَّبتَ نفسك فى أمره وأعطيته على ما عرض فى نفسك منه، فإن ذلك من عزم الأمور.

(وفى الخصال): إعطاؤه على قدر حاجته.

وأما حق المسئول:

فحقه إن أعطى قبل منه ما أعطى بالشكر له والمعرفة لفضله، وإن منع طلب وجه العذر فى منعه، وأحسن به الظن، واعلم أنه إن منع ، فماله منع، وأن ليس التثريب فى ماله، وإن كان ظالما، فإن الإنسان لظلوم كفّار.

(وفى الخصال): إن أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله، وإن منع فاقبل عذره.

وأما حق من سرك الله به وعلى يديه:

فإن كان تعمدها لك حمدت الله أولا.. ثم شكرته على ذلك فى موضع الجزاء، وكافأته على فضل الابتداء، وأرصدت له المكافأة، وإن لم يكن تعمدها حمدت الله أولا ثم شكرته وعلمت أنه منه توحدك بها،

وأحببت هذا إذ كان سببا من أسباب نعم الله عليك، وترجو له بعد ذلك خيرا، فإن أسباب النعم بركة حيث ما كانت، وإن كان لم يتعمد، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): أن تحمد الله عز وجل أولا ثم تشكره.

وأما حق من ساءك القضاء على يديه بقول أو فعل:

فإن كان تعمدها كان العفو أولى بك، لما فيه له من القمع وحسن الأدب مع كثير من أمثاله من الخلق، فإن الله يقول: ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾[الشورى: ٤١-٤٣].

وقال عز وجل: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٦].

هذا في العمد، فإن لم يكن عمدا لم تظلمه بتعمد الانتصار منه، فتكون قد كافأته في تعمد على خطأ، ورفقت به، ورددته بألطف ما تقدر عليه، ولا قوة إلا بالله.

(وفي الخصال): أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ** ﴾.

وأما حق أهل ملتك عامة:

فإضمار السلامة، ونشر جناح الرحمة، والرفق بمسيئهم، وتألفهم واستصلاحهم، وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك، فإن إحسانه إلى نفسه إحسان إليك، إذ كف عنك أذاه، وكفاك مؤنته، وحبس عنك نفسه،

فعمهم جميعا بدعوتك، وانصرهم جميعا بنصرتك، وأنزلهم جميعا منك منازلهم. . كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة، وصِلْ أخاك بما يجب للأخ على أخيه.

(وفى الخصال): والرحمة لهم، وكف الأذى عنهم، وتحب لهم ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن يكون شيوخهم بمنزلة أبيك، وشبابهم بمنزلة إخوتك، وعجائزهم بمنزلة أمك، والصغار بمنزلة أولادك.

وأما حق أهل الذمة:

فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله، وكفى بما جعل الله لهم من ذمته وعهده، وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله ﷺ حائل، فإنه بلغنا أنه قال:

«من ظلم معاهدا كنت خصمه»، فاتق الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذه خمسون حقا محيطا بك، لا تخرج منها فى حال من الأحوال. . يجب عليك رعايتها، والعمل فى تأديتها، والاستعانة بالله جل ثناؤه على ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله رب العالمين.

(وفى الخصال): أن تقبل منهم ما قبل الله عز وجل منهم، ولا تظلمهم ما وفوا الله عز وجل بعهده.

وله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كذلك مواعظ نافعة سجلها ابن كثير فى (البداية والنهاية) والحافظ بن عساكر، وفيها يحاسب نفسه فيقول:

«يا نفس، حتام إلى الدنيا سكونك، وإلى عمارتها ركونك، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك، ومن وارته الأرض من آلافك، ومن فجعت به من إخوانك، ونقل إلى الثرى من أقرانك؟

فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها ... محاسنهم فيها بالية داثرة
خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم ... وساقتهم نحو المنايا المقادر
رحلوا عن الدنيا وما جمعوا لها ... وضمهم تحت التراب الحفائر

كم خرمت أيدى المنون من قرون بعد قرون، وكم غيرت الأرض ببلائها، وغيبت فى ترابها ممن عاشرت من صنوف، وشيعتهم إلى الأرماس، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الإفلاس:

وأنت على الدنيا مكب منافس ... لخطابها فيها حريص مكاثر
على خطر تمشى وتصبح لاهيا ... أتدرى بماذا لو عقلت تخاطر
وإن امرءا يسعى لدنياه دائبا ... ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

فحتام على الدنيا إقبالك، وبشهواتها اشتغالك.. قد أتاك النذير، وأنت عما يراد بك ساه، وبلذة يومك وغدك لاه، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات، وعاينت ما حل بهم من المصيبات:

وفى ذكر هول الموت والقبر والبلى ... عن اللهو واللذات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الأربعين تربص ... وشيب قذاك منذر للمكابر
كأنك معنى بما هو ضائر ... لنفسك عمدا وعن الرشد حائر

انظر إلى الأمم الماضية، والملوك الفانية، كيف اختطفتهم عقبان الأيام، ووافاهم الحِمام، فانمحت من الدنيا آثارهم، وبقيت فيها أخبارهم، وأضحوا رمما في التراب، إلى يوم الحشر والمآب.

أمسوا رميما في التراب وعطلت … مجالسهم منهم وأخلت مقاصر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم … وأنى لسكان القبور التزاور
فما أن ترى إلا قبورا ثووا بها … مسطحة تسفى عليها الأعاصر

كم من ذى منعة وسلطان، وجنود وأعوان، تمكن من دنياه، ونال فيها ما تمناه، وبنى فيها القصور والدساكر، وجمع فيها الأموال والذخائر، وملح السرارى والحرائر:

فما صرفت كف المنية إذ أتت … مبادرة تهوى إليه الذخائر
ولا دفعت عنه الحصون التى بنى … وحف بها أنهاره والدساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة … ولا طمعت فى الذب عنه العساكر

أتاه من الله ما لا يرد، ونزل به من قضائه ما لا يصد، فتعالى الله الملك الجبار المتكبر، العزيز القهار، قاصم الجبارين، ومبيد المتكبرين، الذى ذل لعزه كل سلطان، وأباد بقوته كل ديان.

مليك عزيز لا يرد قضاؤه … حكيم عليم نافذ الأمر قاهر
جثا كل ذى عز لعزة وجهه … فكم من عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت … لعزة ذى العرش الملوك الجبابر

فالبدار البدار، والحذار الحذار من الدنيا ومكايدها، وما نصبت لك من مصايدها، وتحلت من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها، وأبرزت لك من شهواتها، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها.

وفي دون ما عاينت من فجعاتها إلى دفعها داع وبالزهد آمر
فجد ولا تغفل وكن متيقظا فعما قليل يترك الدار عامر
فشمر ولا تفتر فعمرك زائل وأنت إلى دار الإقامة صائر
ولا تطلب الدنيا فإن نعيمها وإن نلت منها غبه لك ضائر

فهل يحرص عليها لبيب؟ أو يسر بها أريب؟ وهو على ثقة من فنائها، وغير طامع في بقائها.. أم كيف تنام عينا من يخشى البيات، وتسكن نفس من توقع في جميع أموره الممات

ألا لا ولكنا نغر نفوسنا وتشغلنا اللذات عما نحاذر
وكيف يلذ العيش من هو موقف بموقف عدل يوم تبلى السرائر
كأنا نرى أن لا نشور وأننا سدى ما لنا بعد الممات مصادر

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها، ويتمتع به من بهجتها، مع صنوف عجائبها، وقوارع فجائعها، وكثرة عذابه في مصابها وفي طلبها، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها.

أما قد نرى في كل يوم وليلة يروح علينا صرفها ويباكر
تعاورنا آفاتها وهمومها وكم قد ترى يبقى لها المتعاور
فلا هو مغبوط بدنياه آمن ولا هو عن تطلابها النفس قاصر

كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها، وصرعت من مكب عليها، فلم تنعشه من عثرته، ولم تنقذه من صرعته، ولم تشفه من ألمه، ولم تبرئه من سقمه، ولم تخلصه من وصمه:

بل أوردته بعد عز ومنعة موارد سوء ما لهن مصادر
فلما رأى أن لا نجاة وأنه هو الموت لا ينجيه منه التحاذر

تندم إذ لم تغن عنه ندامة   عليه وأبكته الذنوب الكبائر

إذ ابكى على ما سلف من خطاياه، وتتحسر على ما خلّف من دنياه، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار، ولا ينجيه الاعتذار، عند هول المنية ونزول البلية.

أحاطت به أحزانه وهمومه   وأبلس لما أعجزته المقادر
فليس له من كربة الموت فارج   وليس له مما يحاذر ناصر
وقد جشأت خوف المنية نفسه   ترددها منه اللها والحناجر

هنالك خف عواده، وأسلمه أهله وأولاده، وارتفعت البرية بالعويل، وقد أيسوا من العليل، فغمضوا بأيديهم عينيه، ومد عند خروج روحه رجليه، وتخلى عنه الصديق، والصاحب الشفيق:

فكم موجع يبكى عليه مفجع   ومستنجد صبرا ما هو صابر
ومسترجع داع له الله مخلصا   يعدد منه كل ما هو ذاكر
وكم شامت مستبشر بوفاته   وعما قليل للذى صار صائر

فشقت جيوبها نساؤه، ولطمت خدودها إماؤه، وأعول لفقده جيرانه، وتوجع لرزيته إخوانه، ثم أقبلوا على جهازه، وشمروا لإبرازه، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى، ولا الحبيب المبدى:

وحل أحب القوم كان بقربه   يحث على تجهيزه ويبادر
وشمر من قد أحضروه لغسله   ووجه لما فاض للقبر حافر
وكفن فى ثوبين واجتمعت له   مشيعة إخوانه والعشائر

فلو رأيت الأصغر من أولاده، وقد غلب الحزن على فؤاده، ويخشى

من الجزع عليه، وخضبت الدموع عينيه، وهو يندب أباه، ويقول: يا ويلاه، واحراه:

لعاينت من قبح المنية منظرا يهال لمرآه يرتاع ناظر
أكابر أولاد بهيج اكتئابهم إذا ما تناساه البنون الأصاغر
وربة نسوان عليه جوازع مدامعهم فوق الخدود غوازر

ثم أخرج من سعة قصره، إلى ضيق قبره.. فلما استقر فى اللحد، وهيئ عليه اللبن، احتوشته أعماله، وأحاطت به خطاياه، وضاق ذرعا بما رآه، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب، ثم وقفوا ساعة عليه، وأيسوا من النظر إليه، وتركوه رهنا بما كسب وطلب:

فولوا عليه معولين وكلهم لمثل الذى لا قى أخوه محاذر
كشاء رتاع آمنين بدا لها بمديته باد الذراعين حاسر
فريعت ولم ترتع قليلا وأجفلت فلما نأى عنها الذى هو جازر

عادت إلى مرعاها، ونسيت ما فى أختها دهاها.. أبأفعال الأنعام اقتدينا، أم على عادتها جرينا؟ عد إلى ذكر المنقول من دار البلى، واعتبر بموضعه تحت الثرى، المدفوع إلى هول ما ترى..

ثوى مفردا فى لحده وتوزعت مواريثه أولاده والأصاهر
وأحنوا على أمواله يقسمونها فلا حامد منهم عليها وشاكر
فيا عامر الدنيا ويا ساعيا لها ويا آمنا من أن تدور الدوائر

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة؟.. أم كيف ضيعت حياتك وهى مطيتك إلى مماتك؟.. أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حِمامَك؟ أم كيف تهنأ بالشهوات وهى مطية الآفات:

ولم تتـــزود للرحـــيل وقـــد دنا وأنت على حـال وشيك مـسافـر
فـيا لهف نفـسى كم أسـوف توبتى وعـمـرى فـــان والردى لى ناظر
وكل الذى أسلفت فى الصحف مثبت

فكم ترقع بآخـرتك دنيـاك، وتركب غـيك وهواك؟ أراك ضعـيف اليقين، يا مؤثر الدنيا على الدين.. أبهذا أمرك الرحمن؟ .. أم على هذا نزل القرآن؟.. أما تذكر حال من جمع وثمر، ورفع البناء وزخرف وعمّر؟ أما صر جمعهم بورا، ومـساكنهم قبورا؟

تخـرب مـا يبـقى، وتعـمـر فـانيـا فـلا ذاك مـوفور ولا ذاك عـامـر
وهل لك إن وافـاك حـتـفك بغـتـة ولم تكتـسب خيـرا لدى الله عاذر
أترضى بأن تفـنى الحـيـاة وتنقـضى ودينك منقـــوص ومـالك وافـر؟

وله رضي الله عنه أدعية بعدد أيام الأسبوع.. نوجز منها بعضها:

- اللهم إنى أسألك أن تصلى على محمـد عبدك ورسولك، وأن توزعنى من شكر نعمائك ما تبلغنى به غـاية رضاك، وأن تعيننى على طاعتك، ولزوم عبادتك، واستحقـاق مثوبتك بلطف عنايتك. وأن تصدنى عن معـاصيك ما أحـييتنـى، وتوفقنى لما ينفعنى مـا أبقيـتنى، وأن تشرح بكتـابك صدرى، وتحط بـتلاوته وزرى، وتمنحنى الـسلامـة فى دينى ونفسى، ولا توحش بى أهل أنسى، وتتم إحسانك على فيما بقى من عمرى، كما أحسنت فيما مضى منه يا أرحم الراحمين.

- بسم الله الذى لا أرجو إلا فضله، ولا أخشى إلا عدله، ولا أعتمد إلا قوله، ولا أمـسك إلا بحبله، بك أستـجير يا ذا العفـو والرضوان من الظلم والعـدوان، وإياك أرغب فى إلباسى العـافيـة وتمامـها وشـمول

السلامة ودوامها.

- اللهم اجعل غدى وما بعده أفضل من ساعاتى ويومى أعزنى فى عشيرتى وقومى، واحفظنى فى يقظتى ونومى، فأنت بى خير حافظا وأنت أرحم الراحمين.
- اللهم أعزنى بعزك الذى لا يُضام، واحفظنى بعينك التى لا تنام، واختم بالانقطاع إليك أمرى، وبالمغفرة عمرى، إنك أنت الغفور الرحيم.
- اللهم اجعل أول يومى هذا صلاحا، وأوسطه فلاحا، وآخره نجاحا، وأعوذ بك من يوم أوله فزع، وأوسطه جزع، وآخره وجع.
- اللهم أولنى فى كل يوم اثنين منك نعمتين، سعادة فى أوله بطاعتك ونعمة فى آخره بمغفرتك، يا من أنت الإله، ولا يغفر الذنوب سواه.
- اللهم اجعلنى من جندك، فإن جندك هم الغالبون، واجعلنى من حزبك، فإن حزبك هم المفلحون، واجعلني من أوليائك، فإن أولياءك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
- اللهم لا تدع لى ذنبا إلا غفرته ولا غمّا إلا أذهبته، ولا عدوا إلا دفعته، واختم لى منك بالغفران يا ولى الإحسان.
- اللهم إنى أدعوك دعاء من ضعفت وسيلته، وانقطعت حيلته، واقترب أجله، وخلصت لوجهك توبته، أن تصلّ على محمد خاتم النبيين وعلى آل بيته الطاهرين، وارزقنى شفاعة محمد ﷺ وآله، ولا تحرمنى صحبته، إنك أنت أرحم الراحمين.

- اللهم اقض لى في يوم الأربعاء أربعا:

اجعل قوتى فى طاعتك، ونشاطى فى عبادتك، ورغبتى فى ثوابك، وزهدى فيما يوجب أليم عقابك، إنك لطيف لما تشاء.

- اللهم إنى بذمة الإسلام أتوسل إليك، وبحرمة القرآن أعتمد عليك، وبمحمد المصطفى ﷺ وآله استشفع لديك، فاقض اللهم حاجتى يا أرحم الراحمين.

تلك بعض المقتطفات من أدعية الإمام علىّ زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على كرم الله وجهه، وتوصف بأنها نور فى نور، وله دعاء ختم القرآن مأثور عنه وهو:

- اللهم إنك أعنتنى على ختم كتابك الذى أنزلته نورًا، وجعلته مهيمنًا على كل كتاب أنزلته وفضلته على كل حديث غيره، وفرقانا فرقت به بين حلالك وحرامك، وقرآنا أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتابا فصلته لعبادك تفصيلا، ووحيا أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلا، وجعلته نورا نهتدى من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه، وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لا يضل من أم قصد سنته ولا تنال أيدى الهلكات من تعلق بعروة عصمته.

- اللهم فإذا أفدتنا المعونة على تلاوته، وسهلت بحسن عبارته فاجعلنا ممن يرعاه حق رعايته، ويدين لك باعتقاده التسليم لمحكم آياته، ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه، وموضحات بيانه.

- اللهم إنك أنزلته على نبيك محمد صلى الله عليه وآله مجملا، وألهمته علم عجائبه مكملا، وورثتنا علمه مفسرا، وفضلتنا على من جهل علمه، وقويتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله.

- اللهم فكما جعلت قلوبنا له حملة وعرفتنا برحمتك شرفه وفضله، فصل على محمد الخطيب به، وعلى آله الخزان له، واجعلنا ممن يعترف بأنه من عندك، حتى لا يعارضنا الشك فى تصديقه ولا يختلجنا الزيغ عن قصد طريقه.

- اللهم صل على محمد وآله، واجعلنا ممن يعتصم بحبله، ويأوى من المتشابهات إلى حرز معقله ويسكن فى ظل جناحه، ويهتدي بضوء صباحه، ويقتدى بتبلج أسفاره، ويستصبح بمصباحه، ولا يلتمس الهدى في غيره.

- اللهم وكما نصبت به محمدا علمًا للدلالة عليك، وأنهجت بآله سبل الرضا إليك، فصل على محمد وآله، واجعل القرآن وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة وسلما نعرج فيه إلى محل السلامة، وسببا نجزى به النجاة في عرصة القيامة، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة.

- اللهم صل على محمد وآله واحطط بالقرآن عنا ثقل الأوزار، وهب لنا حسن شمائل الأبرار، واقف بنا آثار الذين قاموا لك به آناء الليل وأطراف النهار، حتى تطهرنا من كل دنس بتطهيره، وتقفو بنا آثار الذين استضاءوا بنوره ولم يلههم الأمل عن العمل فيقطعهم بخدع غروره.

- اللهم صل على محمد وآله، واجعل القرآن لنا فى ظلم الليالى مؤنسا،

ومن نزغات الشيطان وخطرات الوساوس حارسا، ولأقدامنا عن نقلها إلى المعاصى حابسا، ولألسنتنا عن الخوض فى الباطل مخرسا، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجرا، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الاعتبار ناشرا، حتى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه وزواجر أمثاله التى ضعفت الجبال الرواسى على صلابتها عن احتماله.

- اللهم صل على محمد وآله، وأدم بالقرآن صالح ظاهرنا، واحجب به خطرات الوساوس عن صحة ضمائرنا، واغسل به درن قلوبنا وعلائق أوزارنا، واجمع به منتشر أمورنا وارو به فى موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا واكسنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر فى نشورنا.

- اللهم صل على محمد وآله واجبر بالقرآن خلتنا من عدم الإملاق، وسق إلينا به رغد العيش وخصب سعة الأرزاق، وجنبنا به الضرائب المذمومة ومدانى الأخلاق واعصمنا به من هوة الكفر ودواعى النفاق، حتى يكون لنا فى القيامة إلى رضوانك وجناتك قائدا، ولنا فى الدنيا عن سخطك وتعدى حدودك ذائدا، ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهدا.

- اللهم صل على محمد وآله، وهون بالقرآن عند الموت على أنفسنا جهد الأنين، وترادف الحشارج إذا بلغت النفوس التراقى وقيل من راق، وتجلى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب، ورماها عن قوس المنايا بأسهم وحشة الفراق، وداف لها من زعاف الموت كأسا مسمومة المذاق، ودنا منا إلى الآخرة رحيل وانطلاق، وصارت الأعمال قلائد فى الأعناق، وكانت القبور هى المأوى إلى ميقات يوم التلاق.

- اللهم صل على محمد وآله، وبارك لنا فى حلول دار البلى، وطول المقامة بين أطباق الثرى، واجعل القبر بعد فراق الدنيا خير منازلنا، وافسح لنا برحمتك فى ضيق ملاحدنا، ولا تفضحنا فى حاضرى القيامة بموبقات آثامنا، وارحم بالقرآن فى موقف العرض عليك ذل مقامنا، ونجنا به من كل كرب يوم القيامة، وشدائد أهوال يوم الطامة، وبيض وجوهنا يوم تسود وجوه الظلمة فى يوم الحسرة والندامة، واجعل لنا فى صدور المؤمنين وداً، ولا تجعل الحياة علينا نكداً.
- اللهم صل علي محمد عبدك ورسولك كما بلّغ رسالتك وصدع بأمرك ونصح لعبادك.
- اللهم اجعل نبينا، صلواتك عليه وعلى آله، يوم القيامة أقرب النبيين منك مجلسا، وأمكنهم منك شفاعة، وأجلهم عندك قدرا، وأوجههم عندك جاها.
- اللهم صل علي محمد وآل محمد وشرف بنيانه، وعظم برهانه، وثقل ميزانه، وتقبل شفاعته، وقرب وسيلته وبيض وجهه، وأتم نوره وارفع درجته، وأحينا على سنته، وتوفنا على ملته، وخذ بنا منهاجه واسلك بنا سبيله، واجعلنا من أهل طاعته، واحشرنا فى زمرته، وأوردنا حوضه، واسقنا بكأسه.
- وصل اللهم على محمد وآله صلاة تبلغه بها أفضل ما يأمل من خيرك وفضلك وكرامتك، إنك ذو رحمة واسعة،وفضل كريم.
- اللهم اجزه بما بلغ رسالاتك، وأدى من آياتك، ونصح لعبادك، وجاهد فى سبيلك أفضل ما جزيت أحدا من ملائكتك المقربين

وأنبيائك المرسلين المصطفين، والسلام عليه وعلي آله الطيبين الطاهرين، ورحمة الله وبركاته.

وفاة زين العابدين :

قال ابن كثير: وقد اختلف أهل التاريخ فى السنة التى توفى فيها على بن الحسين «زين العابدين».

والمشهور عند الجمهور أنه توفي فى سنة أربع وتسعين، عن ثمان وخمسين سنة، وصُلِّي عليه بالبقيع ودفن به.

وقال: مات على بن الحسين، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر فى هذه السنة، ولذلك يقال لها: سنة العلماء.

قال: وقال بعضهم: توفى سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين. وقيل: إنه توفى سنة تسع وتسعين. رضى الله عنه وعن سائر أهل البيت .. أحفاد النبى العظيم، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

●●●

الإمام محمد الباقـــر

رضى الله عنه

هو محمد بن على زين العـابدين بن الحسين بن الإمام على كرم الله وجهه، ولقب بـ«الباقر»، لأنه بقر العلم، واستنبط الحِكم. أمه بنت الحسن بن على كرم الله وجهـه، فأمه ابنة عم والده، فهو حسنى وحسينى، ولد سنة سبع وخمسين من الهـجرة فى شهر صفر بالمدينة المنورة قبل اسـتشهاد جده الحـسين بثلاث سنوات، وكـان يقال له «أبو جـعفر»، فـابنه جعـفر الصادق، وقـد تلقى العلم على يد والده على زين العابدين، وكان كـأبيه بحرا زاخرا فى العـلم، فقد ورث علم أبيه وجده المصـطفى ﷺ، وعاصر من خلفاء بنى أمية معاوية وابنه يزيد بن معاوية ثم مروان وابنه عبد الملك، ثم ابنه الوليد بن عبـد الملك، وأخاه سليمان وعمر بن عـبد العزيز، ويزيد بن عبـد الملك بن هشام بن عـبد الملك وتوفى فى عهـده سنة سبع عـشرة ومائة للهجرة.

وكان أهل البـيت فى هذه الحقبـة يعيشون مـأساة مقـتل الحسين فى كربلاء، فقد كانوا يعلمون أنه قتل ظلما، وأنهم مضطهدون من بعده، وقد فُرض عليهم الاستـسلام لبنى أمية، ومـا كان ليعوضهـم عن هذا الشعور بالظلم سوى أنهم كانوا محاطين بسياج من حب الناس ووفائهم لآل البيت ذرية المصطفى ﷺ، وأحـفـاده الذين أذهب الله عـنهم الرجس وطهـرهم تطهيرا.

غيـر أنه لم يكن أحد يجـرؤ على التعـبير عن ولائـه لآل البيت إلا القليل، وإلا تعـرضـوا للأذى من الأمـويين، ومع هذا كان لـهم شعـراء يتحدثون عن فـضائل آل البيت، ومنهم الكميت، صاحب الهـاشميات، ومما قاله في شجاعة حسبت له:

ما أبالي إذا حفظـــــت أبا	القاسم فيهم ملامة اللوام
فهم شيعتي وقسمي من الأمة	حسبي من سائر الأقسام

وهي قصـيدة طويلة، ولما انتهى منهـا دعا له الإمام مـحمد البـاقر: «اللهم اغفر للكميت»، وبعث الباقر إليه بهدية ثياب ومال، فرد المال وقال: أما الثياب، فقبلتها لبركتها.

وللكميت ديـوان في آل البيت يعرف بالهـاشمـيات، وهو ديوان في التَّغَنِّي بفضائلهم، وأنهم أحق الناس بقيادة الأمة، وقد تعرض بـسبب ذلك إلى السجن على أيدي خلفاء بني أمية، ولم ينقـذه من بطشهم إلا احتماؤه بمذهب (التُّقْية)، ومعناه أنه قام بمدح بني أمية، اتِّقاء شرهم، والتقية جائزة عند الشيعة إذا اضطروا إليها للنجاة من البطش والعقاب.

والإمام محـمد الباقر عُرِفَ عنه أنه لم يظهـر لأحد من أولاد الحسن والحسين من علم الدين والسنن وعلوم القرآن والشعر وفنون الأدب ما ظهر عند أبي جعفر الباقر، وفـيه قالوا: إذا طلب الناس علوم القرآن كانوا عليه عيالا. وذات مرة سأله أعرابي: هل رأيت الله حين عبدته؟

فقال: لم أكن لأعبد من أراه، قال: فكيف ذلك؟ قال الباقر: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ورأته القلوب بحـقائق الإيمان، فسبحانه لا يُدْرَك بالحواس، ولا يشـبه الناس، ولا يدخل تحت القياس، مـعروف بالآيات، منعوت بالعلامات، ذلك هو الله السميع البصير.

وكان الجاحظ شديد الإعجاب بفكره الثاقب. كما كان الأمويون يعرفون عنه عمق فهمه وكثرة علمه، فكانوا يدسون له من يختبره لعله يستطيع أن يُعَثِّرَهُ، فلم يجدوا طائلا من وراء ذلك.

كما كان العلماء وبخاصة علماء الفقه يقصدونه للاستفادة من فقهه، وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة النعمان، شيخ فقهاء العراق.

ومن أقواله: ما دخل قلب امرئ شيء من الكِبْر إلا نقص من عقله مثلما دخله.

ومن وصيته لابنه جعفر الصادق: يا بني، إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كل شر، إنك إن كسلت لم تؤد حقا، وإن ضَجِرْتَ لم تصبر على حق.

ومن أقواله كذلك: «إن رأيتم العالم يحب الأغنياء ويسعى إليهم، فهو صاحب دنيا، وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص».

وعن منزلة العلم والعلماء عنده يقول: «والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابدا» [١].

ولقد كان له ذوق صريح فى التفسير، فمن ذلك حين سئل عن البرهان الذى رآه سيدنا يوسف عليه السلام حين همّت به امرأة فرعون، فقال: «حدثنى أبى علىّ عن جدى على بن أبى طالب أنه لما همّت به وتهيأت وتزينت قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض ليكون بينها وبينه. فسألها يوسف: أى شيء تصنعين؟ قالت: أستحى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة. فقال يوسف عليه السلام: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا يعقل ولا يسمع ولا

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

يبصر ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت وهو السميع البصير، والله لا يكون ما تريدين مني أبدا، فذلك هو البرهان الذي رأى يوسف».

ومما نطق به من الحكمة قوله: «آفة العلم النسيان».

وقوله: «أشد الأعمال ثلاثة، ذكر الله على كل حال، وإنصافك من نفسك، ومواساة الأخ في المال».

وكان يحفظ وصايا أبيه علي زين العابدين ويرددها لينتفع بها الناس، ومنها قوله: «وصاني أبي فقال:

- لا تصحبنّ خمسة ولا ترافقهم في طريق، فقلت، جعلت فداك أبي، من هؤلاء؟ قال:
- لا تصحبنّ فاسقا، فإنه بائعك بأكلة فما دونها، فسألته: فما دونها؟ قال أبي: يطمع فيها ثم لا ينالها.
- لا تصحبنّ بخيلا، فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه.
- ولا تصحبنّ كذّابًا فإنه بمنزلة السراب، يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد.
- ولا تصحبنّ أحمقًا، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.
- ولا تصحبنّ قاطع رحم، فإني وجدته ملعونا في كتاب الله في مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٢، ٢٣].

وعندما وصى جليسه، ويسمى جابر الجعفى، قال:

يا جابر، إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله ذلك عما سواه.

يا جابر، ما الدنيا وما عسى أن تكون؟ إنها ليست إلا مركبا ركبته أو ثوبا لبسته.

يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار، وإن أهل التقوى هم أيسر أهل الدنيا مؤنة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكّروك، وإن ذكرت أعانوك، قوّالين بحق الله، قوامين بأمر الله، قُطعوا لمحبة ربهم عز وجل، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم، وعلموا أن أمرها زائل، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه، وكماء أصبته في منامك، فلما استيقظت إذ ليس في يدك منه شيء، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته.

ولم يكن هذا الزهد الذى عبرت عنه هذه الوصية الغالية بمانع له من الكرم والجود والسخاء.. فقد حكت عنه مولاته قالت:

كان يدخل عليه الجماعة من إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب ويكسوهم فى بعض الأحيان ويعطيهم الدراهم.

قالت: وكنت أكلمه فى ذلك لكثرة عياله وتوسط حاله، فيقول: يا سلمى، ما حسنة الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف.

وقد وصف أخًا له فقال: كان لى أخ فى عينى عظيم، وكان الذى عظّمه فى عينيّ صغر الدنيا فى عينيه.

وكان يقول: اعرف مودة أخيك لك بما له من المودة فى قلبك، فإن القلوب تتكافأ.

ومن حكمه الغالية: إن أسرع الخير ثوابا البر، وأسرع الشر عقابا البغى، وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه وأن يؤذى جليسه بما لا يعنيه.

قال ابن كثير عن هذه الحكمة، إنها كلمات جوامع لا ينبغى لعاقل أن يغفلها.

وكان يقول: بئس الأخ أخٌ يرعاك غَنِيّاً ويقطعك فقيرا.

وكان محمد الباقر تَقِيّاً بكّاءً، شديد الخوف من الله مع رجاء عظيم فى فضله، ولم يكن الخوف يُئِسُهُ من الرحمة، ولا يوقعه الرجاء فى التفريط، فبعد أن طاف بالبيت قام فركع خلف مقام إبراهيم، فلما فرغ إذا موضع سجوده مبتل من الدموع [1].

---

(١) نور الأبصار للشبلنجى

وكان له موقف من الشيعة، يتلخص في توجيههم وتصحيح فكرهم، فكان يرفض منهم ما يزعمونه كذبا من افتراءات حول آل البيت، وكان دائم الثناء على صحابة رسول الله ﷺ وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان يطلق على المغالين من الشيعة «أصحاب الخصومات» وينهى عن مجالستهم لأنهم يخوضون في آيات الله بتأويلاتهم.

وقد سئل: هل كان أحدكم يا آل البيت مسيئاً لأبي بكر وعمر، قال: لا، إنما نحن الذين نحب الله ونعظمه، ونحب من يحبون رسوله ﷺ ويوقرونه.

ويقول: شيعتنا هم من أطاعوا الله عز وجل واتّقوه.

وكان يغضب من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم شيعة، ثم يتهمون الصحابة ويسيئون إلى أبي بكر وعمر أو يصفون أهل البيت بصفات تجعلهم فوق البشر، وكان يقول: من لا يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة.

وتوفي رضي الله عنه ودفن بالبقيع في القبر الذي دفن فيه أبوه علي زين العابدين وعم أبيه الحسن بن علي في القبة التي فيها قبر العباس رضي الله عنهم في سنة سبع عشرة ومائة، وقد ترك ثروة علمية عظيمة وعلما ينتفع به ومحبة في قلوب الناس.

●●●

الإمام جعفر الصادق
رضى الله عنه

ومن مشاهير أهل البيت، أحفاد النبى ﷺ .. بل أشهر أئمة الشيعة الإثنى عشرية من بعده، الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على كرم الله وجهه، وكان يُكنى بأبى القاسم.

نشأ الإمام العالم فى بيئة طاهرة، فأبوه محمد الباقر، وسمى بالباقر، لأنه كان بحرا زاخرا فيّاضًا فى العلوم والحقائق، فبقر العلم، واستخرج كنوزه الثمينة وورثها عنه ابنه جعفر، وزاد عليها كثيرا من عطاء الله له، وجده لأمه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم.

وكان الإمام جعفر الصادق أحد الفقهاء السبعة فى المدينة المنورة، قال أحد تلاميذه عند موته: ما رأيت فقيها أعلم من القاسم، وقال عنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لو كان لى من الأمر شىء لاستخلفت فقيه بنى تيّم (يعنى أبو القاسم)، وقد بلغ جعفر رضي الله عنه شهرة في العلم، فاقت الحد، وأخافت الخليفة أبا جعفر المنصور فى بغداد، الذى كان لا يجرؤ أن يفعل شيئا مع الإمام جعفر الصادق، مع أنه كانت له نظرة مستريبة فى أبناء محمد الباقر لشدة إقبال الناس عليهم ومحبتهم لهم، وخاصة جعفر الصادق، مع أنه لم يكن يطلب الخلافة، بل اكتفى بهذا السلطان الروحى، حيث جعل الله له المحبة فى قلوب الناس.

روى الإمام أبو حنيفة النعمان أن الخليفة أبو جعفر المنصور قال له (أى لأبى حنيفة): إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيّئ له من المسائل الشداد ما يعجز عنه أمام الناس، فينصرف الناس عنه، قال الإمام أبو حنيفة: ففعلت، والتقى الإمامان بالحيرة فى حضرة المنصور، وقد وصف أبو حنيفة دخوله على المجلس، عندما وجد الخليفة وإلى يمينه جعفر الصادق قال: فلما أبصرت جعفر الصادق دخلتنى من الهيبة لجعفر ما لم يدخلنى للخليفة، فسلمت عليه، ثم جعلت ألقي على جعفر الأسئلة، فيجيبنى حتى أتيت على الأربعين مسألة، فما أخل منها بواحدة، فأثنيت عليه، وأشدت بغزارة علمه وفقهه.

وبعد ذلك توثقت العلاقة بين الإمامين بعد ذلك بعد أن أدرك أبو حنيفة شأن هذا الإمام فى العلم والفقه. وقد حدثت بعد ذلك محاورات شيّقة بين الإمامين العظيمين، انتفع منها الناس.

ولقد كان لجعفر رأى فيما كان يأخذ به أبو حنيفة من كثرة استخدام القياس فى الأحكام الفقهية، وربما نصح أبا حنيفة فى عدم الاعتداد بهذا المبدأ الذى أولع به أبو حنيفة. قال له يوما: اتق الله ولا تقس الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس، إذ قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فأخطأ بقياسه، فتقبل منه أبو حنيفة ذلك راضيا لمنزلته عنده.

وعندما أراد أن يعرض عليه مسألة ليظهر له بعض أضرار الولع بالقياس فى الأحكام، قال له: يا أبا حنيفة، أتحسن أن تقيس رأسك من جسدك؟ قال أبو حنيفة: لا، ولكن يا ابن رسول الله بيّن لى. فقال له جعفر الصادق: أخبرنى أبى عن جدى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى بمنّه وفضله جعل لابن آدم الملوحة فى العينين لأنهما شحمتان،

ولولا ذلك لذابتا، وجعل المرارة فى الأذنين حجابا من الهوام، فإن دخل شيء منها تلتمس الدماغ، فإذا ذاقت المرارة خرجت لأن الأذن لا تقفل لا فى نوم ولا فى يقظة، وجعل الله تعالى بمنّه وفضله العذوبة فى الفم ليجد بها استطعام الطعام، وجعل الحرارة فى الأنف ليستنشق به الريح ، ولولا ذلك لأنتن الدماغ فيها ما فيها، فهذه الرأس وما حوت بقدرة الله وفضله ورحمته بخلقه، جمعت أسرارا عجيبة ومتناقضة وهى كتلة واحدة وتجزأت إلى أجزاء مختلفة. ثم قال له: يا إمام، أتدرى كلمة أولها كفر وآخرها إيمان، فسأله أبو حنيفة عنها فقال: إذا قال العبد لا إله، وسكت، فقد كفر، فإذا قال: إلا الله ، فهو إيمان، ثم استطرد فى بيان خطورة الولع بالقياس.

فقال: يا نعمان، أيهما أعظم، قتل النفس أو الزنا؟ فقال أبو حنيفة النعمان: قتل النفس أعظم عند الله، فقال له جعفر الصادق: فإن الله تعالى قبل فى قتل النفس شاهدين، ولم يقبل فى الزنا إلا أربعة شهود، يريد بذلك أن يحوله عن الولع بالقياس فى أمور الدين، ثم فصّل له الأمر فقال: إن الزنا، مع أنه أقل جرما من القتل، لا يُقبل فيه إلا أربعة شهود، وذلك طلبا للستر، كما أن الصلاة رغم أهميتها عن الصوم، لا تقضيها الحائض كما تقضى الصوم، لأن الصلاة متكررة فى اليوم والليلة، ففى عدم قياسها على الصوم فى القضاء دفع للمشقة، بخلاف الصوم، فإنه مرة واحدة فى السنة، ثم قال له: يا أبا حنيفة، إنا نقف بين يدى الله غدا، فنقول: قال الله وقال الرسول، وأصحاب القياس يقولون: سمعنا ورأينا، فيفعل الله بالجميع ما يشاء.

هذا ومن المعلوم أن أبا حنيفة الفقيه العالم لم يشأ أن يرد على جعفر الصادق، دفاعا عن مبدأ القياس الذى كان مولعا به فى المسائل التى ليس فيها نص، حيث يحيله إلى الاجتهاد بالرأي، وهو أحد مصادر التشريع الإسلامى، لأنه كان يُكِنّ لجعفر ولآرائه كل تقدير واحترام، فلم يدافع عن رأيه أدبا منه وطلبا للاستفادة بآرائه رضى الله عنهما.

ولم يقف الإمام جعفر عند حد العلوم الشرعية، بل تجاوزها إلى العلوم الكونية. قال عنه ابن خلكان فى وفيات الأعيان: جعفر الصادق أحد الأئمة الإثنى عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه فى مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر، وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفى الطرسوسى كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهى خمسمائة رسالة، وكان جابر بن حيان عالما مستنيرا، اتصل بجعفر وارتبط به فترة من عمره، كانت مؤثرة فى حياة جابر فى نهاية النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فى أواخر حياة جعفر من سنة ١٢٨ -١٤٨ هـ.

وكان جابر بن حيان يلقب جعفر الصادق بقوله: سيدى ومولاى، وهذه الوصية تدل على حكمة جعفر، فهي أجدر بأن تشيع بين الخلق وتشتهر، حوت بعضا من آثار القريحة الصافية، ومنها بعض هذه الوصايا التي وصى بها ابنه موسى الكاظم:

- يا بنى، من رضى بما قسمه الله له استغنى، ومن مدّ عينيه إلى ما فى يد غيره مات فقيرا، ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله فى قضائه، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه.

- يا بني، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سل سيف البغي قُتِلَ به، ومن حفر لأخيه حفرة سقط فيها، ومن صاحب السفهاء حُقِر، ومن خالط العلماء وُقِر. ومن دخل مداخل السوء اتُّهِم.
- يا بني، قل الحق لك وعليك تستشان (يكون لك الشأن) من بين أقرانك.
- يا بني، كن لكتاب الله تاليا، وللسلام مُفْشِيًا، وبالمعروف آمِرًا، وعن المنكر ناهيا، ولمن قطعك واصلا، ولمن سكت عنك مبتدئا، ولمن سألك مُعطيا، وإياك والنميمة، فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، وإياك والتعرض لعيوب الناس.
- يا بني، إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن، وللمعادن أصولا، وللأصول فروعًا، وللفروع ثمرا، ولا يطيب ثمر إلا بأصول، ولا أصل ثابت إلا بمعدن طيب.

ومن وصاياه كذلك التي نقلها عنه الأصمعي:

الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعي إلى الله بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وما عال من اقتصد، والتدبير نصف العيش، والتودد نصف العقل، ومن أحزن والديه فقد عقّهما، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته فقد حبط أجره، والله منزل الصبر على قدر المصيبة، ومنزل الرزق على قدر المئونة، ومن قدر معيشته رزقه الله، ومن بذرها حرمه الله تعالى.

لقد كان رضي الله عنه ذا علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام في المدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه بعلمه الغزير، ثم دخل العراق مدة لم يتعرض فيها للإمامة مطلقا، ولم ينازع أحدا الخلافة، فإن من غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومن أنس بالله استوحش من الناس، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس.

وحدث عنه الإمام مالك رضي الله عنه فقال:

كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضرّ واصفرّ، ولقد اختلفت إليه زمانا، فما كنت أراه إلا علي إحدى ثلاث خصال: إما مصليا وإما صائما وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العباد الزهاد الذين يخشون الله، وما رأيته إلا يخرج الوسادة من تحته ويضعها تحتي.

ولقد انتفع بوصايا أبيه محمد الباقر وعمل بها، فنفعته، وهذه الوصايا أثرت في سلوك الإمام جعفر وفي علمه، فكان مفهومه عن الصداقة قوله: للصداقة خمسة شروط، فمن كانت فيه فانسبوه إليها وهي:

أن يكن الصديق زينة في أخلاقه، وأن تكون سريرته كعلانيته، وألا يغيره علي صديقه مال، وأن يرى صديقه أهلا لجميع مودته، وألا يتركه عند النكبات.

وكان يقول: صحبة عشرين يوما قرابة، أى الذى يصاحب إنسانا عشرين يوما أصبح له حق كحق القرابة، يجب الوفاء له.

ومن مآثره:

- لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله وتصغيره وستره.

ويقول:

- من لا يستح من العيب ويرعوى عند الشيب، ويخشى الله بظهر الغيب فلا خير فيه.

ومن حكمته التي ورثها عن جده باب مدينة العلم على كرم الله وجهه، والمستمدة من أنوار جده المصطفى ﷺ هذه العبارات النورانية الهادية التى لقنها للإمام سفيان الثورى، فقد كان سفيان الثورى يقصده لينهل من علمه، كما كان يقصده العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم الإمام مالك بن أنس ليستفيد من غزارة علمه وحكمته.

قال له سفيان الثورى، العالم الفقيه الصوفى: لا أقوم من مجلسك حتى تحدثنى.. فقال له الإمام جعفر نصائح نوجز منها:

يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله عز وجل قال فى كتابه العزيز: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال فى كتابه العزيز: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢].

يا سفيان، إذا حزبك أمر من سلطان أو غيره، فأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج، وكنز من كنوز الجنة.

ولقد عقل سفيان هذه النصائح الغالية، فكان هو أيضا من آيات الله فى خلقه، ونفع الله به الناس حتى قال ابن المبارك عنه: أخذت عن ألف ومائة شيخ وما فيهم أفضل من سفيان.

وكما انتفع سفيان بروايات جعفر، انتفع كثيرون بحكمته وعلمه الفياض، ومن هؤلاء العلماء الذين كانوا حريصين على الاجتماع به والانتفاع بعلمه، الإمام مالك الذى قال فيه الإمام أبو حنيفة: لولا السنتان لهلك النعمان. (يشير إلى السنتين اللتين التقى فيهما بالإمام جعفر واللتين صحبه فيهما فانتفع منه بعلمه وبركته).

ومما أثر عن الإمام جعفر:

- من أكرمك فأكرمه، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه.
- دعا الله الناس فى الدنيا بآبائهم ليتعارفوا، ودعاهم فى الآخرة بأعمالهم ليتمايزوا، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[التحريم: ٦]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[التحريم: ٧].
- أولاد المرء أسراؤه، فمن أنعم الله عليه نعمة فليوسّع على أبنائه، فإن لم يفعل يوشك أن تزول النعمة عنه.

وسئل الإمام: لِمَ يُكْرَهُ صوم الحجاج أيام التشريق(أى الأيام الثلاثة التى تلى عيد الأضحى)؟ فأجاب: لأنهم فى ضيافة الله ولا يجب على الضيف أن يصوم عند من أضافه.

وسئل عن سبب تحريم الربا، فقال: لئلا يتمانع الناس عن المعروف.

وروى أنه لما بلغه مصرع عمه زيد بن علي، حين قتل الخلفاء العباسيون عددا من أهل البيت خوفا من التفاف الناس حولهم والدعوة لهم بالخلافة.. وبعد مصرع زيد قام أحد المنافقين وقال: هذا البيت متشفيا فى مقتل زيد:

صلبنا لكم زيدًا على جذع نخلة ولم أر مهديًا على الجِذْعِ يُصلب

عندئذ دعا جعفر على هذا الشاعر واسمه الحكم بن عباس الكلبى وقال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك. فسافر الحكم إلى الكوفة وفي الطريق افترسه أسد، فلما بلغ ذلك جعفرا خر ساجدا لله وقال: الحمد لله الذى استجاب دعائى.

وكان فى سخائه وجوده مضرب المثل، كما كان يحاول أن يمنع الخلافات والمخاصمات بين الناس، فإن كانت بسبب المال فيعطى طالب المال من ماله.

وكان كثيرا ما يعطى حتى لا يبقى لعياله شيء، ولم تكن شجاعته أقل فى ميزان الفضائل من كرمه وسخائه، فكان يقول الحق فى وجه السلطان وإن كان جائرا.

فقد وجه النصيحة للخلفاء الذين كان الناس يهابونهم، ومما قاله للخليفة المنصور:

عليك يا أمير المؤمنين بالحلم، فإنه ركن العلم، وبملك نفسك عند أسباب القدرة فإنك إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن يحب أن يذكر بالصولة، واعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل، والحال التى تستوجب الشكر خير من تلك التى تقف عند حد العدل.

ولما سمع رجلا يخطب فى الناس وينال من علىّ أمير المؤمنين رضي الله عنه، انبرى للرجل وقال: إن أفسق الناس من باع دينه بدنياه، وأشد فسقا منه من باع آخرته بدنيا غيره، مثل هذا الفاسق.

ولما مات ابن له بين يديه، تسلح بالصبر، والرضا، ثم قام يناجى ربه ويقول:

لئن أخذت فقد أبقيت، ولئن ابتليت فقد عافيت، ثم أقسم على النساء ألا يصرخن، ثم قام فدفن ابنه وهو يقول: سبحان من يأخذ أولاده ولا تزداد له إلا حبا، ثم قال: إنّا قوم نسأل الله فيما نحب، فيعطينا، فإذا أحب فيما نكره، رضينا.

ومن مأثوراته فى مجال الصبر والرضا بالقضاء، قال لرجل:

أعظِم بنعمة فى مصيبة أوجبت أجرا وأفظِع بمصيبة فى نعمة أكسبت كُفرا.

وكما كان صابرا، كان حليما سمحا، وكان يوصى بهذه الأخلاق فيقول:

إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول، كانت عقوبة قد عجلت، وإن كان على غير ما يقول، كانت حسنة لم تعملها.

وقد أرسل غلاما له فى حاجة، فأبطأ، فبحث عنه، فوجده نائما، فجلس عند رأسه، وحاول أن يوقظه بلطف، فلما انتبه لم يعنفه، بل قال له: لك الليل فقط ولنا النهار، وكان كثيرا ما يستغفر لذنبه ولذنوب من أساءوا إليه.

(١) عن كتاب، جعفر الصادق، الشيخ محمد أبو زهره

فلقــد كان يطبـق حديث جـده المصطفى ﷺ «كـاد الحليم أن يكون نبيا».

ومع حلمه وعفوه، كانت له هيبة في قلوب الناس، وهذه مزية وهبها الله له، لأنه خاف الله فـأخاف الله منه كل شيء، وكانت هذه الهيـبة ترى في وجوه أصحاب السـلطان أكثر مما تُرى في وجوه الناس.

وكان الزنادقة في العراق لا يستطيعون الكلام أمـام جعفر، فقد التقى بأحـدهم يتكلم إلى الناس، فلما رأي جـعفـر الصادق خـرس الرجل عن الكلام، فقال له جـعفر: ما يمنعك من الكلام؟ قـال: إني ناظرت العلماء والمتكلمين فما تداخلتني هيبة قط مثل هيبتي منك. لقد كان له جلال العلم وقوة الحق فلا يقوى الباطل أن يواجه هذا الحق.

ولم يكن تواضـعه أقل في الفـضل من هيـبتـه، فالتـواضع هو رداء العلماء، فـكان يجل العلماء، ويكرم الفـقراء إذا دخل عليـه أحدهم ينزع الوسادة من تحته ويجلسه عليه.

●●●

كتـــــاب الجفـــــر

ينسب البعض إلى الإمام كتابا يسمى الجفر وهذا الكتاب كتب فيه الإمام لآل البيت كل ما يحتاجون إليه من علم إلى يوم القيامة، ويخبرهم فيه بأمور غيبية، والجفر هو الجلد الذى يضمه هذا الكتاب وهو من جلد الماعز وكان جلد الجفر يتخذ للكتابة عليه فى ذلك الزمان.

وهذا المضمون الذى يضمه الكتاب فيه مغالطة لأن الإمام برىء من أن يكتب لآل البيت عن الغيب، فالغيب يعلمه الله وحده وقد أنكر نسبة الكتاب إليه ابن قتيبة. فلقد كان الإمام من الذين اتقوا الله فعلمهم الله وأفاض عليهم علما نافعا، فلا يجب أن ينسب إليه علم يحتوى على كل ما سيحدث لآل البيت من بعده إلى يوم القيامة، ومهما أوتى من إلهام وفتح ربانى وفراسة المؤمن، فطالما افترى عليه الشيعة المغالون افتراءات كثيرة هو منها براء.

ولقد عرض لهذا الموضوع الشيخ محمد أبو زهرة ونفى نسبة هذا الكتاب إلى الإمام جعفر، وقال إن نفى هذا عن الإمام لا ينقص من قدره، فهو الحجة فى دين الله، وقد تلقى عنه العلم كبار الفقهاء كأبى حنيفة ومالك وكبار المحدثين كسفيان الثورى وسفيان بن عيينة من أئمة الحديث، كما نفى الإمام على الرضا وهو من الأئمة الإثنى عشرية هذه النسبة للكتاب المذكور إلى الإمام جعفر ونفى معهم أئمة كثيرون نسبة الكتاب للإمام، ولكن الذين نسبوا الكتاب للإمام هم طائفة الخطابية وهم مغالون وكاذبون[١]، فالمغالاة فى التشيع للإمام أدت بهؤلاء المغالين إلى ظلم الإمام

(١) الخطط للمقريزى

ومن هؤلاء من شط في غلوه وهم الرافضة، وقد صورهم بعض الشعراء فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم في جعفر قال منكرا

فطائفة قالوا إله ومنهم ... طوائف سمته النبي محمدا

فإن كان يرضى ما يقولون جعفرٌ ... فإني إلى ربي أفارق جعفرا

وحاشى لله أن يرضى جعفر بهذا الشرك.

ولكن للإنصاف، ترك جعفر أتباعا صادقين تأسوا بأخلاقه وسلوكه وترك حياة عقلية نشطة كما ترك ذرية طيبة من آل بيت النبي ﷺ، أشهرهم ابنه الإمام موسى الكاظم وابنته السيدة عائشة التي تزار بمقامها وبمسجدها بالقاهرة، وكانت وفاته رضي الله عنه بالمدينة المنورة، ودفن في البقيع سنة ١٤٨ هـ فرضي الله عنه وعلى سائر أهل البيت الطاهرين الذين كان حرصهم على تبليغ علم رسول الله ﷺ إلى الناس وقد اكتفوا بالسلطان الروحي الذي حبب الناس فيهم وصاروا به أئمة الهدى وأنوار الدجى فإنهم الأعلام في حياتهم والأئمة بعد موتهم فظلوا في قلوب المؤمنين أحياء بعلمهم وبمناقبهم مع شرف الانتساب إلى جدهم خير خلق الله، فهم وصيته إلى أمته، فرضي الله عن الإمام جعفر الصادق وأرضاه وعن سائر آل البيت أحفاد النبي ﷺ الذين جاءوا من بعده، ونشروا علمه وتأسّوا بأخلاقه.

●●●

الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه

هو الإمام موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي كرّم الله وجهه، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة للهجرة في عصر آخر خلفاء بني أمية مروان الثاني.

وكان يطلق عليه لعلمه وعبادته العبد الصالح، فقد أفاض الله عليه من العلم والمعرفة ما جعل الصوفية يعدونه من أعلام التصوف، وهذه المعارف والفتوحات الربانية إنما نالها لتقواه وزهده ومجاهداته في العبادة ولكرامات جرت على يديه.

ولقب بالكاظم لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين، فقد كان دائم العمل بالآية الكريمة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وكان يعرف عند أهل العراق بباب الحوائج إلى الله، فمن كان يدعو به لقضاء حوائجه قضيت بإذن الله، ورغم أنه نشأ في الحجاز حيث ولد في الأبواء بين مكة والمدينة، إلا أنه لم يسلم من ظلم الأمراء الأمويين والعباسيين بسبب تقدير الناس له والتفافهم حوله وتعاطفهم معه ورحيلهم إليه من بلاد كثيرة، فكان يطلق على أتباعه الموسوية، وكانوا يعتبرونه الإمام بعد أبيه جعفر الصادق.

ولما ولي المهدي الخلافة استراب في أمر موسى الكاظم بسبب الوشاية فأمر باعتقاله وسجنه خوفا من منازعته في سلطانه وتأييد الناس له وحبهم إياه، فقد كان سلوكه يؤلف قلوب الناس، ولذلك زج به المهدي في السجن بتهمة لا دليل عليها، فعاش فيه مدة طويلة، ولكن الله مكنه من

قلوب الناس في السجون التي ألقي فيها لعلمه وسخائه وتقواه، مع أنه كان عازفا عن الخلافـة غير راغب فيها تمامـا إلى أن توفاه الله ودفن في مدافن قريش ببغداد سنة ثلاث وثمانين ومائة في عهد الرشيد.

لقد وُضِعَ الإمام بسجون متعددة بتهمة ادعاء الخلافة وهو منها برىء، فكانوا ينقلونه من سجن لآخر بسبب أنه كلما أمضى مدة في سجن صحبه السجـانون وتحولوا إلى محبين له. فـعندما أدخل سجن البصـرة سنة ثمان وسبـعين ومائة للهجـرة، كان المشرف على سجنـه عيسى بن جعـفر والي البصرة ورويدا رويدا تحول هذا الرجل من لاه يشـرب الخمر إلى عابد وأمر لموسى بحجرة مناسبة يعيش فيها معززا مكرما، ثم كتب عيسى إلى الخليفة أن انقل هذا الرجل موسى من عندي فإني قد أحـرره بنفسي. ولأن عيسى هذا كان ابن عم الخليفة وحفيد المنصور الخليفة الأسبق، فلم ينله شيء من غضـب الخليفة.

ثم نقلوه إلى سجن بغداد ولكن حدث له نفس الشيء، تحول سجانه إلى محب له وقـد وشى بعضهم بالســجان إلى الخليفة هارون الرشـيد أن موسى الكاظم يعـيش في السجن عيشـة طيبة هنيئة في سـجن الفضل بن الربيع فنقلوا مـوسى إلى سـجن آخر فـحدث نفس الشيء ولم يهـدأ بال الخليفة إلا بعد أن أسلمه إلى سجان لم يكن مسلما أصلا وبقي في سجنه.

وفي أواخـر أيام الإمـام موسى الكاظـم أرسل إليه الخلـيفـة هارون الرشيد رسـالة مضمونهـا أنه قد تأكد عنده أنه غيـر مذنب وأنه لا ذنب له فيما نـسب إليه من طلب الخلافة، ولكن لأنه كان قد أقـسم إذا لم يعترف موسى بهذه التهمة ويطلب العفو من الخليفة فإن الخليفة لا يمكنه أن يحنث في اليمين وقال له لك الآن أن تختار بين الاعتراف بالتهمة ثم تطلب العفو

منى لتتحرر من السجن، ولكن الإمام أبى أن يجارى الظلم فرد على الخليفة إنى أرى أنه لم يبق من عمرى شيء، فقد أحس بدنو الأجل بعدما وضعوا له السم فى طعامه، فمات بعد ذلك بأسبوع، كما أخبرت الروايات بذلك.

والإمام موسى لم يقم بثورة علنية ضد الخليفة يطلب فيها خلافة المسلمين، ولكنها كانت ثورة عقائدية روحية عندما علم موسى أن هارون نوى أن يعلن ولاية ابنه الأمين ومن بعده المأمون ثم المؤتمن ويعلنها على الناس فى مكة ويدعو الناس للحضور لأخذ البيعة منهم فى مكة وقد رأى الخليفة هارون أن العقبة فى سبيل تنفيذ هذا الأمر هو موسى الكاظم فأمر باعتقاله وكان فى مسجد جده رسول الله ﷺ يصلى فلما انتهى من صلاته حملوه إلى حيث السجن فى العراق ولم يكن الإمام يطلب الخلافة وإنما كان يتحدث عن اغتصابها فقط.

وهذا الموقف يجرنا إلى موقف الخليفة المأمون الذى أظهر تعاطفا كبيرا مع واحد من أحفاد النبى ﷺ هو الإمام على الرضا ابن الإمام موسى الكاظم، ، فقد أعطاه ولاية العهد ولكن أبناء الإمام كانوا يؤكدون أنها خطة ماكرة وأن الخليفة كان يخفى خلاف ما يظهره للناس والله أعلم بالنيات، والرواية ظلت ما بين مؤيد ومعارض لصدق النية أو لغير ذلك، وسنعرض لها فى الحديث عن الإمام على الرضا.

ولا يذكر الإمام موسى الكاظم إلا ويذكر معه هذه الواقعة: كان الإمام يمر فى شارع ببغداد فرأى رجلا يحاول رمى القمامة أمام قصر يصدر منه أصوات الغناء والرقص فسأل الإمام الرجل عن صاحب هذا القصر قائلا: أحُرٌّ هو أم عبد؟ فأجاب الرجل: بل حر، ألا تعرف من هو

صاحب هذا القصر؟ إنه سيدى بشر أحد الأشراف فى قومه، فرد عليه الإمام، واضح أنه حر لأنه لو كان عبدا لم تكن هذه الأصوات ترتفع من داره، ولما علم بشر بما دار بين خادمه وبين موسى الكاظم، وقد عرفه من وصف الخادم له، لم يمهل بشر نفسه حتى يلبس حذاءه، فأسرع إلى موسى في الطريق، وقد فطن بشر إلى ما يقصده من قوله لو كان عبدا (أى عبدا لله يستحى أن يعصى الله تحت سمعه وبصره)، وقال له: يا سيدى، أريد من الآن أن أكون عبدا لله، ولما كان قد ترك حذاءه فى هذا الوقت، فقد عُرف بهذا اللقب «بشر الحافى»، وتحول بشر على يدى موسى الكاظم إلى صوفى من أقطاب الصوفية الكبار. ومثل هذه الأخبار كانت تصل إلى هارون الخليفة فيقول، إن وجد مثل هذا، فذلك خطر على الخلفاء، فإن لهم حياة روحية تجذب الناس إليهم، فقد كثرت كراماتهم مع الناس مما كان يزيد تخوف الحكام منهم.

وقبل أن يتوفى الإمام موسى فى السجن شعر أنه قد سقوه سما فكان يقول ما بقى من عمرى سوى يوم أو يومين. ولما توفى حملوا جثمانه ووضعوه على جسر بغداد ليراه الناس جثمانا سليما ليس فيه جزء مكسور أو مقطوع ليؤكدوا للناس أنه لم يعذب حتى الموت، وأنه قد جاء أجله الطبيعى، ولكن أتباعه شكوا فى ذلك وعلموا أنه مثل كثير من الأئمة الذين اضطهدوا بسبب تهم كاذبة، بل بسبب حب الناس وانصرافهم إليهم مما جعل الخلفاء يتوجسون ويتخوفون منهم ويكيدون لهم، لذلك فإن معظم الأئمة الأحفاد استشهدوا فى معظم الأحوال جهادا، ملتزمين بمبدأ التقية التى تتطلب الجهاد سرا فقد استشهد الإمام على زين العابدين بن

الحسين وكذلك الإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق والإمام موسى الكاظم رضى الله عنهم جميعا بهذه الطريقة.

وقد روى أنه وهو فى الحبس فى عهد الرشيد دخل عليه أمير الشرطة ليخرجه من الحبس بأمر أمير المؤمنين ويعطيه ثلاثين الف درهم وخيّره إن أراد البقاء فى بغداد معززا مكرما فعل، وإن أراد العودة إلى المدينة المنورة فذلك له، لكن أمير الشرطة كان فى عجب من أمر موسى الكاظم فقد أمر الخليفة أن يسجن ويشدد عليه فى السجن فلما سأله رئيس الحرس عن أمره الذى حوّل الخليفة هذا التحول، قال موسى: بينما أنا نائم إذ أتانى جدى النبى ﷺ فقال لى: يا موسى حبست ظلما، فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت الليلة فى الحبس. فقلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما أقول؟ فقال، قل: يا سامع كل صوت، ويا سابق كل فوت، ويا كاسى العظام لحما وناشزها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذى لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليما ذا أناة، يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدا ولا يحصى عددا، فرّج عنى، فكان ما ترى[1]، وهذا الدعاء يعرف بدعاء الفرج ينفع عند الشدائد.

وهكذا كان موسى الكاظم ذا علم جم فقد نشأ فى بيت علم وورع وتقوى فى بيت أبيه الإمام جعفر الصادق فى مدينة رسول الله ﷺ مهد العلم والنور.

كما روى أن هارون الرشيد سأله يوما كيف تقولون أنكم ذرية النبى ﷺ وأنتم أبناء على بن أبى طالب وإنما ينسب الرجل لأبيه لا لجده؟ فقال: إنما ألحقنا بذرية النبى ﷺ من جهة أمنا فاطمة رضى الله عنها واستمع إلى قوله تعالى فى كتابه الكريم لتعلم أن عيسى عليه السلام إنما ألحق بذرية

---

(١) مروج الذهب.

الأنبياء من جهة أمه مريم في كتاب الله، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]، فقد نسب عيسى عليه السلام إلى ذرية الأنبياء من جهة أمه الصِّدِّيقة مريم، ونحن كذلك.

ودليل آخر، أن في آية المباهلة عندما باهل رسول الله ﷺ نصارى نجران لم يكن معه إلا على وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، فمنهم إذن الأبناء أخذا من قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]، فأبناء النبى ﷺ منهم الحسن والحسين في قوله تعالى﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾، وإنما نحن أحفاده أبناء الحسن والحسين، وهما ابناه ﷺ كما أخبر بذلك.

وكما كان الإمام أبو حنيفة النعمان يناظر الإمام جعفر الصادق فى بعض المسائل الشرعية فقد كان أبو يوسف صاحب أبى حنيفة وقاضى القضاة، يذهب إلى موسى الكاظم فى السجن فى عهد الرشيد ليختبره وليعرف مكانته فى العلم فوجد عنده ما يبهر العقول من العلوم الربانية.. وكان الإلهام الربانى لموسى حافظا له فى كثير من المواقف والمآزق التى حدثت له كثيرا فى حياته ورواها عنه الرواة.

وكان الناس يعبرون عن تعاطفهم معه وحبهم له فكانت الأموال تحمل إليه من جميع الجهات تقديرا لمنزلته، ولشرف انتسابه إلى جده المصطفى ﷺ وقد ترك أولادا كثيرين أشهرهم الإمام على الرضا رضى الله عنهما.

●●●

الإمام على الرضا رضي الله عنه

الأئمة الإثنى عشرية يرتبون على هذه الصورة: الإمام على بن أبى طالب، فالحسن فالحسين فعلى زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسى الكاظم فعلى بن موسى الكاظم (على الرضا) فمحمد الجواد بن على الرضا فعلى الهادى بن محمد الجواد فالحسن بن على الهادى فمحمد بن الحسن العسكرى (المهدى المنتظر).

والإمام على الرضا بن الإمام موسى الكاظم هو الإمام العاشر الذى اختاره المأمون على خلاف العرف السائد بين الخلفاء العباسيين والأمويين اختاره وليا لعهده، مما أثار العجب والدهشة من تصرف المأمون الخليفة العباسى حتى أن البعض اعتبر هذا التصرف براعة سياسية فقط، كما اعتبره آخرون إخلاصا وحبا لآل البيت وتعويضا لهم عما لحق بهم من اضطهاد وظلم منذ استشهاد الحسين، كما أفصح الخليفة المأمون نفسه بذلك.

أبوه موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى الله عنهم وأشهر ألقابه على الرضا.

نشأ على الرضا فى بيت علم وتقوى وعبادة، وقد بلغ شأنا صار به إماما من كبار الأئمة وكان مولده بالمدينة المنورة فى جوار جده المصطفى ﷺ فهو من ورثة النور المحمدى والحكمة المحمدية سنة ثمان وأربعين ومائة من الهجرة.

وفى قصة تولية الخليفة المأمون العباسى لعلى الرضا ولاية عهده قال ابن خلكان فى وفايات الأعيان إن المأمون استحضر أولاد العباس وهو بمدينة مرو وكان عددهم كثيرا رجالا ونساء كبارا وصغارا ثم استدعى على الرضا وقد أنزله أحسن منزلة وجمع الخواص من الصالحين وأخبرهم أنه نظر فى أولاد العباس وأولاد على بن أبى طالب فلم يجد فيهم أفضل ولا أحق بالأمر من على الرضا فبايعه بولاية العهد ولكن الخبر لما نما إلى العباسيين بالعراق رأوا أن المأمون بهذا العمل أخرج أمر الخلافة عنهم فقاموا بخلع المأمون من الخلافة وبايعوا إبراهيم المهدى فى سنة ثلاث ومائتين غير أن المأمون أسرع بالعودة إلى بغداد ومكن لنفسه وقد فر إبراهيم من بغداد، وكما قال ابن كثير لم ير المأمون أفضل منه (أى من على الرضا) فى بنى العباس فى علمه ودينه وعمله وقد زوجه ابنته. مما يدل على أن المأمون كان على اقتناع تام بشخصية على الرضا.

كما ذكر الرواة أنه لما تولى المأمون الخلافة بعد أن أقصى أخاه الأمين وبعد خلافات كثيرة كان المأمون فى هذه الفترة يقيم بخراسان حين قتل الأمين ثم قصد بغداد عاصمة الخلافة وفى طريقه استقدم على الرضا واختاره وليا لعهده وقد رشحه للخلافة من بعده كذلك فأبى على الرضا الخلافة، ولما رأى على الرضا إصرار الخليفة على ولاية العهد وافق.

ويرجع البعض هذا التصرف إلى ميول بعض وزراء المأمون للعلويين فأقنعوا الخليفة بذلك كما أن المأمون قد ظهر منه ميل طبيعى للعلويين وكثيرا ما كان يشاركهم فى جنائزهم يريد أن يعوضهم قطيعة الرحم لمدة مائتى سنة منذ خلافة معاوية، كما روى عنه أنه لما حضرته الوفاة وصى أخاه المعتصم الذى تولى الخلافة من بعده بالعلويين وقال له هؤلاء

بنو عمك علي بن أبي طالب فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى.

وكان يفسر ميله إلي أبناء علي فيقول: إن عليا كرم الله وجهه لما تولى الخلافة كان يحسن إلى بني العباس وما رأيت أحدا من أهل بيتي من بني العباس كا فأوه على فعله في ولده فأحببت أن أكافئه على إحسانه إلينا.

غير أن هناك من ذهب إلى تفسير صنيع المأمون حين ولى على الرضا العهد أن هذا العمل من قبيل البراعة السياسية واستدلوا على رأيهم بمناقشة دارت بين المأمون وعلي الرضا عندما سأل المأمون علي الرضا قائلا: بم تدعون هذا الأمر؟ يقصد الخلافة، فقال علي الرضا، بقرابة علي من النبي ﷺ وبقرابة فاطمة، فجاء رد المأمون مظهرا عدم ميله للعلويين حيث قال: إن من أهل بيت رسول الله من هو أقرب منه من علي يقصد عم رسول الله ﷺ العباس. كما أن هناك الحسن والحسين أبناء فاطمة وهما أقرب إلى النبي ﷺ من علي أبيهما. وليس لعلي حق في حياتهما، ثم أضاف أصحاب هذا الرأي إلى براعة المأمون السياسية أنه لما رأي الكثيرين يرفعون العلويين إلى مرتبة تكاد تكون أعلى من البشر وخاصة غلاة الشيعة فأراد المأمون أن يظهر العلويين عن طريق مخالطتهم الناس حتى يتأكد لهم أنهم ليسوا من معدن أفضل ولا يزيدون على غيرهم في شيء، وهذا العمل أفضل من محاولة القضاء عليهم كما فعل الخلفاء قبله، مثل المنصور الذي كان دائم البطش بهم.

وعلى كل حال، فإن حسن الظن في هذه القضية أفضل فإن الله تعالى جعل للمؤمنين في قلوب الناس ودا ومحبة والذي يهمنا في هذا

الأمر أن على الرضا لم يكن قد اغتر بـهذا المنصب وكان يعتـقد أن ولاية العـهد لن تدوم إلا قليـلا ثم تزول، ويستدل على ذلك أنه لما رأي أحـد أتباعه فى غاية من السـرور وهو فى مجلس الاحتفال بتوليتـه العهد عندما اجتـمع المهنئون والشعـراء أسرّ على الرضا فى أذن الرجل من أتبـاعه: لا تشغل قلبك بشيء مما ترى ولا تستبشر، فإنه لن يتم به الذى ترى.

وكانت مبايعة علي الرضا فى شـهر رمضان سنة إحدى ومائتين وبعد أن تلقى تهنئة الخطباء والشعراء قال له المأمون قم فاخطب الناس فقام على الرضا فـحمـد الله وأثنى عليه وثنى بذكـر النبى ﷺ فصلى عليـه ثم قال للناس:

أيها الناس إن لنا عليكم حقا برسول الله ﷺ ولكم علينا حق به فإذا أديتم إلينا ذلك وجب لكم علينا حقكم والسلام ولم يقل غير ذلك.

ثم أصبح بمقتضى هذا العهد يذكـر اسمه على المنابر مع أمير المؤمنين المأمون وكان المأمون قد كتب بخطه العهد عهد الولاية وأشهد عليه ووضع ختمه عليه وجاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتبه عبد الله بن هارون الرشيد لعلى بن موسى بن جعفر .. أما بعد.

فإن الله اخـتار الإسلام دينا، واخـتار له محـمدا ﷺ نبيـا وسولا، انتهـت إليه النبـوة والرسالة، فلمـا انقضت النبـوة وختم الله بمحـمد ﷺ الرسالة جعل قوام الدين ونظام المسلمين فى الخلافة، ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليـه الخلافة مطيـلا لفكره فيما فـيه عز الدين وقـمع المشركين وصلاح الأمة وجمع الكـلمة. فاختار لولاية عهده ورعـاية الأمة من بعده أفضل من يقـدر عليها فى دينه وورعـه وعلمه، وأرجاهم للقيـام بأمر الله وحقه.

اخترته بعد استخارة الله تعالى على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم لما ظهر من فضله البارع وعلمه الذائع،وورعه الظاهر الشائع، وزهده الخالص.. الخ.

وقد كتب على الرضا على ظهر هذا العهد بخطه ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الفعال لما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لفضله، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وصلاته على نبيه محمد ﷺ خاتم النبين وعلى آله الطيبين الطاهرين أقول وأنا على بن موسى بن جعفر أن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووفقه للرشاد عرف من حقنا ما جهله غيره فوصل أرحاما قطعت، وأمن نفوسا فزعت وإنه جعلنى إلى عهده وجعل الإمرة الكبرى إن بقيت بعده فإنى جعلت لله تعالى على نفسى عهدا أن أعمل بطاعة الله فيهم وطاعة رسول الله ﷺ وإن أحدثت أو غيرت كنت للعزل مستحقا.

وكانت هذه الولاية قد تمت في مرو فى سنة إحدى ومائتين عندما كان المأمون فى طريقه من خراسان إلى بغداد حيث استغرقت رحلته عامين تقريبا لأنه كان ينزل ليوطد حكمه ويجلس مع الناس يتعرف على شئونهم ولكن على الرضا لم يمهله الأجل فمات فى الطريق مات فى طوس سنة ٢٠٢ هـ فلم تستمر ولايته للعهد إلا فترة قصيرة وهو فى صحبة الخليفة في طريق العودة إلى بغداد.

ولا أن التاريخ أبى إلا أن يظهر ولاية على الرضا للعهد فقد أدرك الركب المتحرك فى مدينة طوس صلاة العيد فأحب الخليفة أن يؤم على الرضا الناس فى صلاة العيد .. ولكن على الرضا اعتذر ولم يقبل إلا بعد

أن رأى إصرار الخليفة فخرج مقتديا بسنة رسول الله ﷺ فى خروجه وصلاته العيد وتكبيراته.. والناس فرحين مكبرين ورافعين أصواتهم بالتهليل والحمد.. غير أنه لم يسلم على الرضا من ألسنة النمامين والحاقدين الذين خافوا من تحول الناس إلى آل البيت فأظهروا للمأمون عاقبة إمامة على الرضا الناس فى صلاة العيد فعاد المأمون واعتذر لعلى الرضا وقام هو وصلى بالناس بعد أن قال له قد كلفناك بهذا الأمر ولا نحب أن تلحقك مشقة فليصل بالناس من اعتادوا الصلاة خلفه فى أيام العيد. فرجع على الرضا إلى بيته ولم يصل بالناس، إلا أن الناس قد علموا بالأمر.

ولقد كان لعلى الرضا هيبة فى نفوس الناس، وكانت له مكانة عالية ومنزلة رفيعة لنسبه من جهة ولعلمه وحكمته من جهة ثانية وكان الشعراء يمدحونه ويثنون عليه ومنهم أبو نواس الحسن بن هانئ الذى لما قيل له ما تركت شيئا إلا قلت فيه شعرا وهذا ابن رسول الله ﷺ لم تقل فيه شيئا فقال والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله ثم فكر وبعد ذلك أنشد هذه الأبيات:

قيل لى أنت أحسن الناس طرًا ... فى فنون من الكلام النبيه

لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر فى يدى مجتنيه

فعلى ما تركت مدح ابن موسى ... والخصال التى تجمَّعْنَ فيه

قلت لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل قائما لأبيه

وكان الشاعر دعبل الخزاعى من أعظم الشعراء فى عصره، وقد خصّ الإمام على الرضا بقصائد ومن أشهر قصائده فى مدح آل البيت قصيدته التى جاء فيها:

أئمة عدل يقتدى بفعالهم ... وتُؤمَنُ منهم زلة العثرات
فيا رب زد قلبي هدى وبصيرة ... وزد حبهم يا رب في حسناتي
لقد آمنت نفسي بهم في حياتها ... وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي

ثم قال:

وآل رسول الله نُحْفٌ جسومهم ... وآل زياد غُلَظ القصرات
سأبكيهم ما دام في الأفق شارق ... ونادى منادي الخير بالصلوات
فيا نفس طيبي ثم يا نفس فاصبري ... فغير بعيد كل ما هو آت

وكان دعبل قد أنشد القصيدة بأكملها بين يدي علي الرضا، فبكى كثيرا وأجزل لدعبل العطاء وهي قصيدة طويلة تظهر حسرة الناس على ما فعل بآل البيت من قبل بني أمية وما صاروا إليه وهم الأعزاء من ذرية النبي ﷺ وأن الناس لهم الرجاء في أن ترد لآل البيت مكانتهم ومنزلتهم وليس ذلك على الله بعزيز.

كما كان علي الرضا شاعرا لا يقول الشعر إلا في باب الحكمة ومن شعره:

إني ليهجرني الصديق تجنبا ... فأرى بأن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته ... فأرى له ترك العتاب عتابا
فإذا بليت بجاهل متحكم ... يجد الأمور من المحال صوابا
أوليته مني السكوت وربما ... كان السكوت عن الجواب جوابا

كما كان يقول في نصحه لإخوانه:

أعذر أخاك على ذنوبه ... واصبر وغط على عيوبه

واصبر على سفه السفيه ... وللزمان على خطويه
ودع الجواب تفضلا ... وكِلِ الظلومَ إلى حسيبه

ولما مات الرضا رضي الله عنه حفروا قبره بجوار قبر الرشيد في طوس. وكان له يوم مات خمس وخمسون سنة فرضي الله عنه وأرضاه ونفع بعلمه وحكمته الناس. فقد كان كما قيل عنه قليل النوم كثير الصوم وما سئل عن شيء إلا علمه، ولا رؤى أعلم منه في زمانه وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيبه الجواب الشافي، كما كان كثير الصدقة، وأكثر ما يكون ذلك في الليالي المظلمة، وقد أثر عنه كلاما كثيرا في الحكمة فقد سمع رجلاً يقول «يكلف الله العباد ما يطيقون» فرد عليه، يا رجل، «الله أعدل من ذلك» قال الرجل، فإنهم يقدرون على كل ما يريدون، قال له الرضا: «هم أعجز من ذلك».

وقد روى الأحاديث الكثيرة عن جده المصطفى ﷺ فكان العلماء يفدون إليه لطلب الحديث الشريف منه، فقد كان من رواة الحديث الشريف، ومن ذلك حديث رسول الله ﷺ «من لا يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ومن لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي».

سأله أحد العلماء في مجلس المأمون، يا أبا الحسن، الخلق مجبرون؟ قال: الله تعالى أعدل من أن يجبر ثم يعذب، قال: فمطلقون؟ قال: الله تعالى أحكم من أن يهمل عبده ويكله إلى نفسه. وكان لورعه وتقواه وعبادته في نظر الصوفية أن اعتبروه أحد كبار أئمتهم وكانت له كرامات تناقلها الصوفية عنه ومنها:

لما جعله المأمون ولي عهده وأقامه خليفة من بعده كره أناس ذلك

وخاصة رجال من حاشية المأمون واتفق هؤلاء على أنه حين يأتى ليدخل على المأمون يعرضون عنه ولا يرفعون له الستر ليدخل كما هى العادة واتفقوا فيما بينهم على ذلك، فلما حضر وهم جلوس لم يملكوا أنفسهم فقاموا وسلموا عليه ورفعوا الستر على عادتهم ولم يظهر على وجه واحد منهم كراهة وكأن القادم عليهم رجل من أحب الناس إلى قلوبهم فبعد أن دخل أخذ كل منهم يلوم صاحبه ويسأله كيف تبدل الحال بهذه الصورة ثم اتفقوا أن يصروا على ما اتخذوا من قرار غير أنه لما جاء فى اليوم الثانى قاموا متكاسلين ولم يرفعوا الستر ليدخل على الخليفة فإذا بريح شديدة هبت فرفعت الستر بصورة أحسن مما كانوا يرفعونه ولما خرج جاءت ريح من الجانب الآخر فرفعت الستر فخرج ولم يشعر بشىء مما مكر به هؤلاء عندئذ أقبل بعضهم على بعض يقولون إن لهذا الرجل لشأنا عند الله وله من الله عناية انظروا كيف جاءت الريح مرتين من جهتين ارجعوا إلى ماكنتم عليه من خدمة، فرجعوا.

وروى الحاكم أن رجلا يقال له أبو حبيب ذكر أنه رأي رسول الله ﷺ يجلس فى مسجد فدنا منه وسلم عليه وكان رسول الله ﷺ يجلس على حصير وأمامه تمرٌ من تمر المدينة، فأعطاه تمرات فعدها الرجل فوجدها ثمانى عشرة تمرة فتأولها أنه سيعيش بكل تمرة سنة وبعد عشرين يوما دخل المسجد الذى رأى رسول الله ﷺ يجلس فيه فى المنام وكان الذى يجلس على الحصير مكان رسول الله ﷺ وأمامه تمر هو على الرضا فسلم عليه واستدناه منه وأعطاه تمرات فعدها فوجدها ثمانى عشرة تمرة فقال الرجل سبحان الله . . فقال له زدنى أكرمك الله فاعتذر الإمام، ولم يزد العدد.

وقد رويت عنه كرامات كثيرة فقد كان ينظر بنور الله فرضي الله عنه من إمام وحفيد كريم من أحفاد النبى ﷺ.

الإمام محمد الجواد بن على الرضا

هو الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى الله عنهم.

عاصر المأمون والمعتصم من خلفاء بني العباس فقد ولد بالمدينة المنورة سنة خمس وتسعين ومائة في شهر رمضان في اليوم التاسع عشر منه وكنيته أبو جعفر الثانى لأن جده محمد الباقر كان يكنى أيضا بأبى جعفر وغلب عليه لقب الجواد لسخائه وكرمه.

نشأ محمد الجواد فى بيت النبوة فورث العلم النبوى والحكمة فأحبه الناس وعرفوا له منزلته وقدره وكان الخليفة المأمون أكثر الناس معرفة لقدره ومنزلته وحكمته منذ طفولته.. فاختاره زوجا لابنته أم الفضل وقد قدم إلى بغداد بعد رجوع المأمون إليها فقربه وأحله مكانا مرموقا وبعد أن تزوج محمد الجواد أم الفضل انتقلت معه إلى المدينة المنورة ويدل على إعجاب الخليفةالمأمون به منذ طفولته أن المأمون كان خارجا للصيد فى أحد الأيام بعد وفاة على الرضا والد محمد الجواد فمر بصبيان يلعبون فلما اقترب منهم المأمون ومعه جنده وحاشيته فر الصبيان إلا محمد الجواد ظل واقفا مكانه فلما اقترب منه الخليفة ألقى الله فى قلب الخليفة على الغلام محبته فابتسم له وسأله ما منعك من الفرار مع الصبية؟ فرد عليه محمد وقد عرف أنه أمير المؤمنين قال: يا أمير المؤمنين لم يكن بالطريق ضيق فأوسعه لك وليس لى جرم فأخشاه والظن بك حسن أنك لا تضر من لا ذنب له.. فأعجبه كلامه وأدبه فسأل عنه فقالوا له: محمد بن على الرضا فترحم على أبيه وانصرف يحمل للغلام حبا وعطفا عظيمين وبعد ذلك

أخذه معه إلى قصره وبالغ في إكرامه لعقله وعلمه وأدبه وعزم على تزويجه ابنته أم الفضل وكان له ذلك فيما بعد.

وقد اشترط محمد الجواد أن يقدم لزوجته صداقا مثل صداق جدته فاطمة الزهراء رضى الله عنها وصنع له الخليفة عرسا فخما أطعم فيه الطعام وعم السرور ووزعت الصدقات ووضعت الموائد ووزعت الجوائز على الحاضرين.. وأنجب من أم الفضل البنين والبنات وعاشت معه أم الفضل فى المدينة إلى أن قدم إلى بغداد فى خلافة المعتصم ومعه زوجه سنة عشرين ومائتين في شهر المحرم وعاش في بغداد حتى توفى ودفن فى مقابر قريش في قبر جده موسى الكاظم وكان عمره آنذاك خمسا وعشرين سنة فرضى الله عنه وأرضاه بعد أن ترك علما نافعا نقتطف منه هذا البعض اليسير.

- إن لله عباداًيخصهم بدوام النعم فلا تزال فيهم ما بذلوها فإن منعوها نزعها الله عنهم وحولها إلى غيرهم.
- ما عظمت نعمة الله على أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرّض تلك النعمة للزوال.
- أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة إليه لأن لهم أجره وفخره وذكره فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه بنفسه.
- من جهل شيئا عابه، ومن أجَلَّ إنسانا هابه، والفرصة خلسة، ومن كثر همه سقم جسمه، وعنوان صحيفة المسلم حسن خلقه، وعنوان صحيفة السعيد حسن الثناء عليه.
- من استغنى بالله افتقر الناس إليه، ومن اتقى الله أحبه الناس.

- الجمال في اللسان والكمال في العقل.
- العفاف زينة الفقر، والشكر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام، والحفظ زينةالرواية، وخفض الجناح زينة العلم، وحسن الأدب زينة الورع، وبسط الوجه زينة القناعة.
- حسب المرء من كمال المروءة أن لا يلقى أحدا بما يكره ومن حسن خلق الرجل كفه أذاه، ومن كرمه إيثاره على نفسه، ومن إنصافه قبول الحق إذا بان له، ومن نصحه نهيه عما لا يرضاه لنفسه ومن حفظه لجواره تركه التوبيخ عند ذنب أصابه، ومن حسن صحبته إسقاطه مؤنة التحفظ، ومن شكره كثرة إحسانه إلى من أساء إليه.
- المعين على الظلم والعامل به والراضي به شركاء.
- العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم، والصبر عن المعصية مصيبة على الشامت.
- ثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله، كثرة الاستغفار ولين الجانب وكثرة الصدقة وثلاث من كن فيه لم يندم؛ ترك العجلة والمشورة، والتوكل على الله عند العزم.
- لو سكت الجاهل مااختلف الناس.
- ثلاث خصال تجتذب بهن المودة، الإنصاف في المعاشرة والمواساة في الشدة والانطواء على قلب سليم.
- من جازاك بالشكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك.
- من وعظ أخاه سرا فقد زانه.

- ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من الله إلا كتب الله على اسمه شكرها له قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب ذنبا فعلم أن الله مطلع عليه وأنه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له إلا غفر له قبل أن يستغفره.
- موت الإنسان بالذنوب أكبر من موته بالأجل، وحياته بالبركة أكبر من حياته بالعمر.
- من استفاد أخًا في الله فقد استفاد بيتا في الجنة.
- الدين عز، والعلم كنز، والصمت نور، وغاية الزهد الورع، ولا هدم للدين مثل البدع، ولا أفسد للرجال مثل الطمع، وبالراعى تصلح الرعية، وبالدعاء تصرف البلية، ومن ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر ومن غرس أشجار التقى جنى ثمار المنى.

وفى هذا القدر ما يكفى دليلا علي حكمته وعمق معارفه رضي الله عنه.

وقد توفى رضي الله عنه عن عمر قصير حوالى ثلاثين عاما بعد أن ولدت له أم الفضل بنت أمير المؤمنين المأمون ولدين وبنتين وهما على الجواد وموسى والبنات فاطمة وأمامة. وابنه على الهادى كان يلقب بأبى الحسن وهو الإمام العاشر من أولاد الحسين رضي الله عنه وابن محمد الجواد.

على الرغم من أنه لم يعش طويلا إلا أن حياته كانت حياة حافلة بالعلم والورع فكان يروى الحديث الشريف مسندا عن آبائه ومن رواياته عن جده على كرم الله وجهه «بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال لى وهو يوصينى: يا على ما خاب من استخار ولا ندم من استشار يا على عليك بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار، يا علىّ اغْدُ باسم الله فإن الله بارك لأمتى فى بكورها.

وكان يقول إن الشريف كل الشريف من شرفه علمه والسؤدد كل السؤدد لمن اتقى الله ربه. . واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة منكم.

وقد سأله أحدهم عن معنى حديث رسول الله ﷺ «إن فاطمة رضى الله عنها حَرّمَ الله ذريتها على النار» فقال له محمد الجواد ذلك خاص بالحسن والحسين رضى الله عنهما، فقد فهم قرابته من رسول الله ﷺ التزامه بالمسئولية وليست عصمة كما فهم بعض الشيعة لكن يجب على من جاء بعد الحسن والحسين أن يسيروا على نهجهما لينتفعا بما انتفعا به رضى الله عنهما فقد بشرهما رسول الله ﷺ بالجنة قال الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

ولمحمد الجواد كرامات ذكر منها الشبلنجى في نور الأبصار، هذه الكرامة أنه وهو في طريقه إلى المدينة المنورة أدركته صلاة المغرب فدخل مسجدا ليصلي وكان في صحن المسجد شجرة نبق لم تثمر قط فدعا بكوز ماء فتوضأ في أصل الشجرة وقام فصلى بالناس المغرب ثم تنفل ثم سجد لله شكرا ثم ودع أهل المكان وانصرف وما هى إلا فترة قصيرة حتى رأى الناس النبقة تحمل ثمرا طيبا فتعجبوا وأعزوا هذا الصنيع بعد قدرة الله تعالى إلى أن الله تعالى يحيى الأرض بعد الموات بالصالحين من عباده وصدق القائل:

تحيا بكم كل أرض تخطرون بها   كأنكم في بقاع الأرض أمطار

فرضى الله عن الإمام محمد الجواد وعن سائر أحفاد النبى ﷺ.

●●●

الإمام على الهــادى
الملقب بأبى الحسن العسكرى
وهو الإمام الحادى عشر

هو الإمام على بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصــادق بن محمد الباقر بــن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى الله عنهم.

وأشهر ألقابه الهادى، ولد سنة أربع عشــرة ومائتين للهجرة فى شهر رجب وقيل غــير ذلك، فى بيت عــلم وأدب فورث العلوم المحــمدية عن آبائه الأئمة الأطهار، رضى الله عنهم.

نشأ فى المدينة، ثم انــتقل إلى مدينة سُرَّ مَنْ رأى، فى العــراق حيث استقدمــه المتوكل الخليفة العباسى بعد أن تبــين له أنه على خلاف ما بلغه من وشاية به فما كــان يدعو لنفسه بالخلافة وكان يعيــش عــيشة الفقراء فى المدينة ثم اســتكمل حــيــاته فى هذه المدينة بالعــراق حــتى توفى سنة أربع وخمسين ومائتين فــعاش حياة العابد الزاهد، وكان يضع فى أصــبعه خاتما نقش عليــه (الله ربى وهو عصــمتى من خلقــه) وعاش فى خلافــة الواثق والمتــوكل وسمى بالعــسكرى كمــا ذكــر الشبلنجى فى نور الأبصــار لأن الخليفة المتوكل استقدمــه إلى مدينة سر من رأى وكانت تسمى العسكر اسم المدينة التى بناها المعتصم وانتقل إليهــا بعــسكره سنة إحدى وعشرين ومائتين للهجرة ومع حياته المتواضعــة كان كريما وسخيا. ورُوى أن رجلا ذهب إليه فى داره فلم يجده، فدلــوه على مكانه فلمــا ذهب إليه سأله على الهادى

ما حاجتك؟ فقال الرجل: أنا رجل من أعراب الكوفة المستمسكين بولاء جدك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد ارتكبتني الديون وأثقلت ظهري ولم أر من أقصده لقضائها عني سواك فقال له أبو الحسن العسكري كم دينك؟ قال الرجل: نحو عشرة آلاف درهم، فقال له: طب نفسا وقر عينا، إن شاء الله تقضى دينك. ثم أنزله فلما أصبح قال له، يا أخا العرب أريد منك حاجة فلا تعصني فيها ولا تخالفني وسيقضى دينك إن شاء الله إن فعلت ما أطلبه منك. فأخذ علي الهادي ورقة وكتب فيها بخط يده دينا عليه للأعرابي بالمبلغ المذكور وقال للأعرابي إذا حضرت إلى «سر من رأى» فتراني أجلس مجلسا عاما مع الناس، عندئذ تحضر إليّ ومعك هذه الورقة وتطالبني بالدين الذي هو عليّ لك وأغلظ عليّ في طلب الدين، فلما رأى في وجه الرجل استحياء قال له: قلت لك لا تخالفني كي يقضى دينك، فذهب الرجل ورأى علي الهادي بين وجهاء القوم وأصحاب الخليفة فتقدم إليه ومعه الورقة وفعل الرجل ما أمره به علي الهادي، فجعل علي يعتذر ويطيّب نفس الرجل ولكن الرّجل أغلظ في القول فوعده أن ينتظر ثلاثة أيام فقط وسيعيد إليه الدين فلما انتهى المجلس وبلغ الخليفة هذا الأمر أمر لعلي بثلاثين ألفا فلما جاء الأعرابي قال له علي الهادي خذها كلها فقال الأعرابي إن العشرة فقط هي كل مطلبي يا ابن رسول الله ولكن علي الهادي أصر على أن تكون كلها للأعرابي وقال له هي رزقك ساقه الله إليك ولو انه أكثر من ذلك ما نقصنا منه شيئا. فأخذها الأعرابي وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وروى أنه لما زاره المتوكل ووجده يعيش عيشة رقيقة قال له أنشدني شعرا فاعتذر الهادي بأنه قليل رواية الشعر فلما أصر أنشده هذه الأبيات:

استنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهمو صارخ من بعد ما قُبروا ... أين الأسرّة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأشعار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرا معطلة ... وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

وروى أنه عُثر علي أبيات تكمل هذه القصيدة وإن كانت على غير الوزن إلا أنها تتواصل معها في الموعظة.

انظر ماذا ترى أيها الرجل ... وكن على حذر من قبل أن تنقل
وقدم الزاد من خير تُسَرُّ به ... فكل ساكن دار سوف يرتحل
وانظر إلى معشر باتوا على دعة ... فأصبحوا في الثرى رهنا لما عملوا
بنوا فلم ينفع البنيان وادخروا ... مالا فلم يغنهم لما انقضى الأجل
باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

وقد ودع علي الهادى الملقب بأبي الحسن العسكرى بن محمد الجواد الدنيا بعد عمر لم يزد على أربعين سنة يوم الإثنين لخمس ليال بقيت من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين ودفن في داره بسر من رأى وخلف أولادا هم: محمد والحسن ومحمد أبو جعفر وعائشة رضى الله عنهم وأرضاهم.

●●●

الإمام الحسن بن على الهادى

وكنيته أبو محمد ولقبه العسكرى

هو والد الإمام محمد المهدى المعروف بالمنتظر، وابن الإمام على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ولقب بالعسكرى وعاصر من الخلفاء العباسيين المعتز والمهتدى والمعتمد. ولد بالمدينة المنورة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة فى شهر ربيع الآخر فى خلافة الواثق بالله العباسى وقد تعرض للحبس بتهمة جرت على كثير من أئمة أهل البيت وهى تهمة سوء الظن والتوجس من سعيهم للخلافة، وقد ظلت هذه تهمتهم فى عصر حكام بنى أمية وبنى العباس باستثناء بعض الخلفاء. وقد نسبت إليه كرامات كثيرة فروى أنه لما أدخل السجن سأل أحد المسجونين ألك ولد؟ فقال له لا. . فدعا له بولد يكون له عضدا، ثم سأله الرجل وأنت آلك ولد؟ فقال الحسن إنى والله سيكون لى ولد يملأ الأرض قسطا وعدلا وأما الآن فلا.

وقد رزقه الله بولد هو محمد المهدى المنتظر، وصف بأنه حسن الوجه والشعر وهو آخر الأئمة الإثنى عشرية والذى قيل إنه غاب فى السرداب والحرس حوله بعد أن دخل المسجد وغاب فيه، وسيأتى ذكره إن شاء الله.
وكان ابن الرومى يمتدح الحسن ومن شعره:

آراؤكم وسيوفكم ووجوهكم   فى الحادثات إذا دجَوْنَ نجوم
فيها معالم للهدى ومصابيح   تجلوا الدجى والأخريات رجوم

وقد نشأ فى بيت علم وحكمة فلقن العلم والحكمة والمعارف الشرعية وهو فى سن صغيرة، كما وظهرت عليه علامات المعرفة فى سن مبكرة،

فكان عابدا زاهدا كريما وهي سجايا وصفات أئمة أهل البيت أحفاد النبي ﷺ.

ومن كلامه «ما للعب خلقنا» قالها في سن مبكرة حيث كان أقرانه يلعبون ويلهون فلما سئل قال خلقنا للعلم والعبادة. ألم يقل ربنا عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥]، ولما قيل له: إنك لا تزال صغيرا ولا ذنب لك.. قال: إن الناس يوقدون النار بالحطب الصغار ثم الكبار، وإني لأخشى أن أكون من صغار حطب جهنم. وحدث أن السماء أمسكت عن المطر في عهد الواثق فأقحط الناس فأرسل إلى الإمام الحسن وأخرجه من السجن الذي أدخل فيه بتهمة هو منها بريء كسائر أهل البيت ليستسقي به فلما حضر ودعا الله أن ينزل المطر هطل من السماء فسقى الناس وفرحوا، وقد كشف الله به الغمة، فأخرجه الخليفة ومن كانوا معه في السجن كرامة له.

وعاش الحسن رضي الله عنه في «سر من رأى» إلى سنة وفاته سنة ستين ومائتين في شهر ربيع الأول على أرجح الأقوال، وقد ارتجت مدينة سر من رأى لخبر وفاته رضي الله عنه فعطلت الأسواق وغلقت الدكاكين وشارك أهل المدينة كلهم في جنازته وساروا به إلى أن دفن في القبر الذي دفن فيه أبوه في المدينة.

وقد أثر عنه الكثير من العلم والحكمة ومنها:

إن في الجنة بابا يقال له المعروف لا يدخل منه إلا أهل المعروف وإن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة.

وكان يقول بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من

سواد العين إلى بياضها.

ومن كراماته أن رجلا أتاه وقال له يا أبا محمد إنى لا أملك الدرهم الواحد وشكا إليه الحاجة وكان الرجل يملك مالا كثيرا فقال له الحسن أخشى أن تفقد ما معك من المال وليس هذا دفعا لك عن العطية وأعطاه. وقد روى عن هذا الرجل بعد ذلك أنه كان له مال كثير دفنه فى مكان ولما ذهب يستخرجه لم يجده مكانه فقد عرفه أحد أبناء هذا الرجل وأخذه وأنفقه ولم يحصل الرجل على شىء منه فكان كما أنذره الحسن ﵁. وقد عاش فى سر من رأي عشرين سنة يعلم الناس العلم ويلقنهم الحكمة وكان الناس يجتمعون عنده ليأخذوا عنه ويتعلموا على يديه وكلهم محبة له وعرفانا لمنزلته وقدره ولحسبه ونسبه ﵁ وأرضاه.

ولقد تعرض للمحن التي تعرض لها آباؤه من قبله وهى سوء الظن به والخوف من تأييد الناس له ورغبتهم فى إمامته لهم فقبض عليه وأودع السجن أربع سنوات رغم صلاحه فقد أخرجوه من السجن ليستسقوا به حين أجدبت الأرض فى خلافة المعتمد العباسي وقيل إنه أفرج عنه وعمن كانوا معه عقب ذلك.

وأما سبب سوء الظن به والتوجس من وجوده فى سر من رأي بين الناس خاصة أنه كان قد أشيع أن من نسله سيولد ابنه محمد المهدى الملقب بالمنتظر، وكان الجند يراقبونه ويراقبون بيته كذلك ويرصدون عليه تحركاته حتى أنهم كانوا يراقبون أهل بيته بعد وفاته ﵁. وقد رزقه الله ابنه محمدا الذى لقب بالمهدى المنتظر. وهذا اللقب أطلقه عليه الشيعة لاعتقادهم أنه دخل سردابا وهم ينتظرون خروجه من هذا السرداب فى «سر من رأى» فى آخر الزمان [١].

---

(١) وفيات الأعيان - الجزء الثانى.

الإمام محمد بن الحسن

الملقب بالمهدى المنتظر

هو محمد بن الحسن بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى الله عنهم، والملقب بالمهدى المنتظر، آخر الأئمة الإثنى عشرية وهو الإمام الثانى عشر ولقب بالمنتظر لاعتقاد الشيعة بأنه دخل سردابا فى مدينة سر من رأى ولم يخرج منه وهم ينتظرون خروجه فى آخر الزمان وكان عمره حين دخل السرداب عشر سنين فقد ولد سنة خمس وخمسين ومائتين فى يوم الجمعة منتصف شهر شعبان وتوفى والده وكان عمره خمس سنين وكان مولده بالمدينة المنورة وقد علق ابن خلكان على دخوله السرداب فقال هذا ممكن ولكن خروجه منه فى آخر الزمان فأمرٌ لا يقوم على أساس. . كما قيل عن محمد بن على بن أبى طالب من زوجته الحنفية ما قيل عن محمد المهدى من أنه اختفى بجبل رضوى بالحجاز وسوف يظهر مرة ثانية. وقد وردت أحاديث كثيرة بسند صحيح حول المهدى المنتظر أما أن هذه الأحاديث جاءت فى محمد بن الحسن بن على الهادى الذى نتحدث عنه فهذا أمر غير مؤكد. ولقد وردت فى شأن المهدى المنتظر مهدى آخر الزمان وذكرها الشبلنجى فى نور الأبصار ومنها عن على كرم الله وجهه قال، قال رسول الله ﷺ «لو لم يبق إلا يوم لبعث الله تعالى رجلا من أهل بيتى يملأها عدلا كما ملئت جورا»، أخرجه أبو داود فى سننه، وأخرج أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدى منّى أجْلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما» زاد

أبو داود «يملك سبع سنين» وقال الترمذى حديث ثابت صحيح ورواه الطبرانى فى معجمه وغيره وأخرج ابن شبرويه فى كتاب الفردوس فى باب الألف واللام عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «المهدى طاووس أهل الجنة» وعنه بإسناده عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «المهدى ولدى وجهه كالقمر الدرى واللون منه لون عربي والجسم جسم إسرائيلى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا يرضى بخلافته أهل السموات والأرض والطير فى الجو يملك عشر سنين» وأخرج الحافظ أبو نعيم عن ثوبان رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيتم الرايات السود قد أقبلت من خراسان فأتوها ولو حبوا على الثلج فإن فيها خليفة الله المهدى» وأخرج أبو نعيم أيضا عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «يخرج المهدى من قرية يقال لها كريمة». وأخرج الحافظ أبو عبدالله محمد بن ماجة القزوينى فى حديث طويل فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام عن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ وذكر الدجال فقال فيه إن المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص قالت أم شريك بنت أبى العسكر فأين العرب يومئذ قال ﷺ هم يومئذ قليل وجلهم ببيت المقدس وأمامهم المهدى وقد تقدم ليصلى بهم الصبح إذ نزل عيسى ابن مريم فرجع ذلك الإمام ينكص عن عيسى القهقرى ليتقدم عيسى يصلى بالناس فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له تقدم» وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال فينزل عيسى بن مريم، على

نبينا وعليه الصلاة والسلام، فيقول أميرهم صل بنا فيقول ألا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله لهذه الأمة» أخرجه مسلم فى صحيح عن أبى هرون العبدى وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد وجابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده عدا». وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أبشركم بالمهدى يملأ الأرض قسطا كما ملئت جورا وظلما يرضى عنه سكان السماء والأرض يقسم المال صحاحا فقال رجل ما معنى صحاحا قال بالسوية بين الناس ويملأ قلوب أمة محمد ﷺ غنى ويسعهم عدله حتى يأمر مناديا ينادى يقول من له بالمال حاجة فليقم فما يقوم من الناس إلا رجل واحد فيقول أنا فيقول له ائت السادن يعنى الخازن فقل له إن المهدى يأمرك أن تعطينى مالا فيحثو له فى ثوبه حثوا حتى إذا صار فى ثوبه يندم ويقول كنت أجشع أمة محمد ﷺ نفسا أعجز عما وسعهم فيرده إلى الخازن فلا يقبل منه ويقول إنا لا نأخذ شيئا مما أعطيناه فيكون المهدى كذلك سبعة سنين أو ثمانيا أو تسعا ثم لا خير فى العيش بعده أو قال ثم لا خير فى الحياة بعده» وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يكون عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له المهدى عطاؤه هينا». أخرجه أبو نعيم فى الرد على من زعم أن المهدى هو المسيح وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله أمنا آل محمد المهدى أو من غيرنا؟ فقال ﷺ «لا، بل منا يختم الله له الدين كما افتتح بنا، وبنا ينقذون من الفتنة كما أنقذوا من الشرك، وبنا يؤلف الله قلوبهم بعد عداوة الفتنة كما ألف بين قلوبهم بعد عداوة

الشرك، وبنا يصبحون بعد عداوة الفتنة إخوانا في دينهم» قال بعض أهل العلم هذا حديث حسن عال رواه الحفاظ في كتبهم أما الطبراني فقد ذكره في المعجم الأوسط وأما أبو نعيم فرواه في حلية الأولياء وأما عبد الرحمن بن حماد فقد ساقه في عواليه وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «يخرج المهدي وعلى رأسه غمامة فيها ملك ينادي هذا خليفة الله المهدي فاتبعوه» أخرجه أبو نعيم والطبراني وغيرهما وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي يفتح القسطنطينية وجبل الديلم ولو لم يبق إلا يوم طول الله ذلك اليوم حتى يفتحها» هذا سياق الحافظ أبي نعيم وقال هذا هو المهدي بلا شك وفقا بين الروايات وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «سيكون بعدي خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة ثم يخرج المهدي من بيتي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا» رواه أبو نعيم في فوائده والطبراني في معجمه وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي أنه قال: «تتنعم أمتي في زمن المهدي نعمة لم ينعموا مثلها قط ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدع الأرض شيئا من نباتها إلا أخرجته» رواه الطبراني في معجمه الكبير وروى أبو داود عن ذر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي» وفي رواية «واسم أبيه اسم أبي».

ثم ذكر الشبلنجي في نور الأبصار هذه الأمور التي استمدها من المصادر عن المهدي فقال:

الأظهر أن خروج المهدي قبل نزول عيسى وقيل بعده (الثانية) تواترت الأخبار عن النبي ﷺ أنه من أهل بيته وأنه يملأ الأرض عدلا

(الثالثة) تواترت الأخبار على أنه يعاون عيسى على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين من الشام (الرابعة) جاء في بعض الآثار أنه خرج في وتر السنين سنة إحدى أو ثلاث أو خمس أو سبع أو تسع (الخامسة) أنه بعد أن تعقد له البيعة بمكة يسير منها إلى الكوفة ثم يفرق الجند إلى الأمصار (السادسة) أن السنة من سنيه مقدار عشر سنين (السابعة) أن سلطانه يبلغ المشرق والمغرب تظهر له الكنوز لا يبقى في الأرض خراب إلا عمره. وهذه علامات قيام القائم مروية عن أبي جعفر ﷺ قال: «إذا تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال وركبت ذوات الفروج السروج وأمات الناس الصلوات واتبعوا الشهوات واستخفوا بالدماء وتعاملوا بالربا وتظاهروا بالزنا وشيدوا البناء واستحلوا الكذب وأخذوا الرشا واتبعوا الهوى وباعوا الدين بالدنيا وقطعوا الأرحام وضنوا بالطعام وكان الحلم ضعفا والظلم فخرا والأمراء فجرة والوزراء كذبة والأمناء خونة والأعوان ظلمة والقراء فسقة وظهر الجور وكثر الطلاق وبدأ الفجور وقبلت شهادة الزور واستغنت النساء بالنساء واتخذ الفيء مغنما والصدقة مغرما واتقى الأشرار مخافة ألسنتهم وخرج السفياني من الشام واليماني من اليمن وخسف بالبيداء بين مكة والمدينة وقتل غلامًا من آل محمد ﷺ بين الركن والمقام وصاح صائح من السماء بأن الحق معه ومع أتباعه قال فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع عليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أتباعه فأول ما ينطق به هذه الآية ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، ثم يقول أنا بقية الله وخليفته وحجته عليكم فلا يسلم عليه أحد إلا قال السلام عليك يا بقية الله في الأرض فإذا اجتمع

عنده العقد عشرة آلاف رجل فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا أحد ممن يعبد غير الله تعالى إلا آمن وصدق وتكون الملة واحدة ملة الإسلام وكل ما كان في الأرض من معبود سوى الله تعالى تنزل عليه نار من السماء فتحرقه والله أعلم».

وقد جاء وصفه الجسماني بأنه شاب مربوع القامة حسن الوجه والشعر أقنى الأنف. وقد عاصر محمد بن الحسن الخليفة المعتمد بالله العباسي وهو آخر الأئمة الإثنى عشر، ويعتقد الشيعة أنه غاب في السرداب برغم وجود الحرس الذين معه فغاب ولم يعرف أحد مكانه حين دخل المسجد الذي يصلي فيه الشيعة في مدينة «سر من رأى»، ولذلك فكل يوم يقف أناس في المكان الذي غاب فيه ينتظرون خروجه ويستدلون على كونه حيا بعد غيابه وأنه سيظهر وأنه لا امتناع عن بقائه حيا حتى ظهوره، يستدلون على ذلك بسيدنا عيسى عليه السلام الذي لا يزال حيا عند ربه وكذلك حياة إبليس والمسيخ الدجال ثم سيدنا إلياس عليه السلام، كما استدلوا بتأويل الآية القرآنية ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]،فقالوا هو المهدى من أبناء فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وبعد خروجه تكون علامات الساعة الكبرى وهو من هذه العلامات.

وقد نسبت الشيعة الإمامية للمهدى المنتظر كرامات كثيرة والله أعلم بمدى حقيقتها وكل ما يعرف عنه أنه إمام من أئمة آل البيت الذين وجبت محبتهم ومعرفة منزلتهم برغم ما ينسب إليهم من أقوال وخوارق ونقول إن من اتبع منهم جدهم المصطفى ﷺ فهو مكرم من ربه أخذا من الآية

الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]، فهؤلاء أحفاد النبى ﷺ وذريته المباركين الطيبين رضى الله عنهم أجمعين.

وحول ما ظهر فى أحقاب متتالية أدعياء يصفون أنفسهم بالمهدى فقد ادعى النبوة أناس كذابون وفى الحديث الشريف «أن الله يبعث على رأس كل مائة فى هذه الأمة من يجدد لها دينها وهؤلاء المجددون هم علامات وإرهاصات لظهور الإمام المهدى ومنهم الأئمة المجددون والأقطاب النورانيون فالمهدى حق وإن اختلفت فى شخصيته ووقته الآراء، ونقول هل هناك مانع عقلى من أن يبعث الله تعالى بقدرته رجلا من أمة هى خير أمة أخرجت للناس يصحح للناس إسلامهم بعد أن تفشت المعاصى واختلط الحلال بالحرام، إن العقل الواعى لا يمنع بل ينتظر هذا اليوم الذى سيظهر فيه المسيخ الدجال الذى رويت عن مجيئه الأحاديث الصحيحة، فالأولى أن يظهر المصلح الذى يمثل الخير الغالب وهو المهدى المنتظر. ويكون من أبناء خير النساء وأحب الرجال إلى الله تعالى السيدة فاطمة الزهراء والإمام على كرم الله وجهه، ومن أحفادهما الذين هم أحفاد النبى ﷺ.

ونختتم بحديث رسول الله ﷺ الذى رواه الحارث بن سعيد بسند حسن عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال، قال ﷺ: «لتملأن الأرض ظلما وعدوانا ثم ليخرجن من أهل بيتى من يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا».

وفى مسند أبى داود قال رسول الله ﷺ «المهدى من عترتى من ولد فاطمة» أخرجه ابن ماجه والحاكم.

وقد اختلف في ظهور المهدى هل هو من علامات الساعة الصغرى أم الكبرى والرأى الراجح أنه من علامات الساعة الكبرى وأنه من بيت النبوة جده الحسين لأبيه وقيل جده الحسن لأمه، أو العكس فهو حسنى وحسينى ويكون كبير الشبه بجده المصطفى ﷺ صورة وأخلاقا وعملا وعلما وقيل إنه لا يدعو لنفسه وإنما يختاره الله تعالى ويطلبه الناس لشدة حاجتهم إليه ويتم الله له نعمة القيادة والأسوة ويقولون إنه عندما يموت يدفن فى القدس، فرضى الله عنه وعن سائر أهل البيت أحفاد النبى ﷺ.

●●●

السيد أحمد البدوى رضي الله عنه

من الأحفاد الأشراف

شريف علوى، له شهرة واسعة وقد ربى رجالا ونفوسا مؤمنة دافعت معه عن العقيدة الإسلامية، فقد كانت حياته جهادا كلها مجاهدة النفس مع جهاد أعداء دين الله الإسلام، وقد ظل طوال حياته يغترف من مناهل العلم حتى نور الله قلبه فكان القطب وكما وصفه الإمام الشعرانى أنه نور الصوفية الذى لا يخبو وصارت شهرته فى أقطار الأرض علاوة على شهرته فى مصر حيث قضى حياته الطويلة مستغرق القلب بمعرفة الله ومستغرق الجوارح بعبودية الله تعالى يغترف من موارد الأنوار الإلهية ويستمد من فيوضاتها لا ينثنى عن ذلك ولا يحيد (١).

والسيد البدوى حفيد من أحفاد الرسول ﷺ يرجع نسبه الشريف إلى سيدى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على كرم الله وجهه. وقد اشتهر بقوة الروح وصفاء النفس مع شهرته فى الجهاد ضد أعداء الإسلام الصليبيين فكان يعبئ الشباب ويقودهم فى طريق البذل بأرواحهم دفاعا عن الدين والوطن فجاء النصر على الصليبيين على يدى رجاله الفتيان فقد كان يلقب بأبى الفتيان.

وقد ترك أجداده مسقط رأسهم في الحجاز سنة ثلاث وسبعين للهجرة بعد مقتل الإمام الحسين مع هجرة الأسر الهاشمية من آل البيت بعيدا عن الأمويين إلى مصر والمغرب واستقرت أسرة البدوى فى المغرب حتى نهاية القرن السادس الهجرى حيث ولد القطب الصوفى سيدى أحمد البدوى عام

---

(١) آراء فى حياة السيد البدوى للشيخ أحمد محمد حجاب.

ستة وتسعين وخمسمائة للهجرة فى مدينة فاس بالمغرب ولما واجهت أسرته ظروفا قاسية من قبل دولة الموحدين في المغرب هاجرت إلى مكة المكرمة وكان عمره حوالى سبع سنين وفى طريق رحلتها استقرت فترة فى مصر فأقام البدوى في مصر فى تلك الفترة منذ وصلت أسرته إلى مصر سنة ستمائة وثلاث للهجرة حتى رحلت إلى مكة بعد ذلك بقليل وكان البدوى سادس إخوته وأصغر إخوته الذكور.

وفى مكة تفقه على المذهب الشافعى وكان دائما يضع اللثام على وجهه وهى عادة مغربية فعرف بلقب البدوى كما تعلم الفروسية فى مكة حتى صار فارسها المشهور، ولما كانت رغبته فى تحصيل العلوم الشرعية علي أيدي كبار علماء عصره هاجر إلى العراق وتلقى العلوم على سيدى أحمد الرفاعى وسيدى عبد القادر الجيلانى، وقد وصل البدوى إلى العراق سنة أربع وثلاثين وستمائة وهناك التقى بفاطمة بنت برى فى شمال العراق وكانت امرأة لها حال عظيم سيدة تتمتع بقسط وافر من الجمال والمال فُتن بسبب جمالها كثير من الرجال ولكن ما إن رأته حتى أقرت بولايته واتبعت بعد ذلك طريق الشرع والتزمت الحق وقالت اشهدوا أنى استغفر الله فلقد كانت تسلب الرجال أموالهم بجمالها العجيب ولكن السيد البدوى سلبها حالها فتابت على يديه.

وكان لقاء البدوى بفاطمة بنت برى شهادة له بالولاية وأنه قطب أقطاب عصره. وبعد ذلك عاد إلى مكة وظل فى عبادة دائمة، فكان يقوم معظم الليل وبصره شاخص إلى السماء ويصوم نهاره حتى انقلب سواد عينيه إلى حمرة.

وروى أنه ذات ليلة رأى رؤية ثم ألحت عليه ثلاث مرات «سر إلى طندتا (طنطا فى مصر) فإنك تقيم فيها وتربى رجالا» وكان قد أوشك على الأربعين من عمره، فاستجاب لهذا النداء ورحل إلى مصر واستقر فى طنطا عام سبعة وثلاثين وستمائة للهجرة فى أواخر دولة الأيوبيين .

وفى طنطا علّم الناس فى مجلس فوق سطح منزل بن شحيط أن الدين قوة محركة تفعل المستحيل، وفى طنطا أصبح بطلا شعبيا وقطبا صوفيا وأيضا زعيما سياسيا فقد جاء إلى مصر فى زمن عصيب كان شعب مصر يئن من ظلم بعض المماليك واستبدادهم كما كان يعانى من تهديد الصليبيين باحتلال مصر ومن بعدهم التتار فعبأ الرجال وكان يقول لهم إياكم وحب الدنيا فذلك يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل فاجتمع حوله المريدون الذين عرفوا بالسطوحيين وقد خرج هؤلاء الأتباع يدعون الناس إلى التمسك بالدين والجهاد فى سبيله على طريقة البدوى حتى صار له أتباع كثيرون.

وكان أول نزوله فى طنطا فى منزل الشيخ ركين الدين الذى كان قد تعرف عليه فى مكة فى موسم الحج عندما التقى به هناك، ولما توفى هذا الشيخ انتقل البدوى إلى دار ابن شحيط شيخ الناحية آنذاك وظل بها يدعو الناس إلى التمسك بالدين والدفاع عنه إلى آخر حياته بطنطا.

ولعلمه الفياض وأيضا لصفاته وأخلاقه الكريمة ولأثره الطيب في كل من اجتمع به أطلقوا عليه ألقابا منها:

البدوى: لشبهه بأهل البادية فى ملازمته اللثام حيث كانوا يطلقون عليه الملثم لأنه كان يضع على رأسه غطاء يتدلى على وجهه دون عينيه

لستر أحواله التي لا تظهر على وجهه والتى تأتيه من مشاهداته ومن أحواله قبضا وبسطا فكان وجهه يتحول من أبيض شديد البياض إلى أحمر شديد الحمرة وهكذا.

كما كان يكنى بأبى الفتيان، فهو من أهل الفتوة البدنية والروحية فقد كان شجاعا منذ كان يعيش فى مكة والمدينة فلم يكن هناك من هو أشجع منه كما قيل إنه لم يكن فى أنحاء مصر من هو أكبر منه فتوة فى الولاية فى عصره.

وأما لقبه السيد فيعنى الرياسة الناتجة من الشرف شرف النسب النبوى الشريف، كما لقب بالقطب لأنه ممن انتظموا أمر العبادة واهتدى بهم الناس فهو قطب الهداية إلى الله ورسوله فقد عرّفَ الناس بربهم سبحانه وتعالى ليعبدوه حق عبادته.

ومن ألقابه الفرّاج لقوله إن الفقراء كالزيتون فيهم الصغير والكبير ومن لم يكن له زيت فأنا زيته أساعده في جميع أموره وقضاء حوائجه لا بحولي ولا بقوتي ولكن ببركة النبى ﷺ تقضى حاجات الفقراء لذلك لقبوه بباب المصطفي ﷺ.

ومن ألقابه العطاب لكثرة ما يقع من الضرر لمن آذاه فسبحان الله يغضب لغضب أوليائه ويحارب من حاربهم ويرضى لرضاهم، فرضى الله عن سيدى أحمد البدوي ونفع المسلمين بعلومه فقد كان بحرا زاخرا، كما أنه علاوة على علمه وفقهه.. أثر عنه قوله الشعر، ومنه:

ليس لى شيخ ولا قدوة   غيرخير الرسل طه الأولا
قرشيّ الوقت حقا نسبتى   تنتهى للمصطفى من قد علا

كل وليّ أخـذ عـهـدى كـمـا كل قـطب كـان قـبـلى أولا
مـا عطى قـبلى ولا بعـدى أحـد من علـومى واتصـالـى خـردلا

وقد ذكر المقريزى النسب الشريف الذى حـمله البدوى معه حين جاء إلى طنطا من الحجاز فقال هو السيـد أحمد البدوى بن السيد على البدوى بن السيد إبراهيم بن السيد محمد بن السيد أبو بكر بن السيد إسماعيل بن السيد عمر بن السيد على بن السيد عثمان بن السيد حسين بن السيد محمد بن السـيد محمد بن السيد موسى بن السيد يحيى بن السيد عيسى بن السيد على بن السيد محـمد بن السيد حسن بن السيد جعـفر بن السيد على بن السيد مـحمد بن السيـد على بن السيد موسى بن السـيد جعفـر بن السيد محمد بن السـيد على زين العابدين بن السيد الحسين بن الإمام على كرم الله وجهه.

واتفق المؤرخون على أن فى أجـداد البدوى من الأئمة الإثنى عـشرية تسعة أئمة وهم [١]:

الإمام على كرم الله وجهه والإمام الحسين المتوفى ٦١ هـ والإمام على زين العابدين المتوفى ٩٤ هـ والإمام محـمد الباقر المتوفى ١١٣ هـ والإمام جعـفر الصـادق المتوفـى ١٤٨ هـ وابنه على الرضا المتـوفى ٢٠٢ هـ وابنه محمد الجواد المتوفى ٢٢٠ هـ وابنه على الهادى المتوفى ٢٥٤ هـ.

كما أثبت المقـريزى من أجداده كذلك جعفرا وابنه حسـنا وجعفر هو أخو حـسن العـسكرى وحـسن هو ابن أخى حـسن العسكرى الذى سـمى باسمه ومن بعد جعفر وابنه حسن أثبت المقريزى محمدا وابنه عليا ومحمد هذا غير محمد الجواد وابنه على غـير على الهادى ثم أثبت المقريزى عيسى بعد محمد وابنه على.

(١) السيد البدوى آراء فى حياته، أحمد محمد حجاب

ولقد كانت للبدوى خصوصيات وكرامات مبهرة منها أنه كان يأتيه الرجل القروى البسيط فلا يلبث يتلقى منه العلوم والتوجيهات حتى يصبح في حالة حب لربه لم يعهدها من قبل مما يدل على قوة تأثير روح الشيخ في مريديه وهذا إنما يرجع إلى صدق إخلاصه في دعوته إلى الله.

وقد تعدى حاله هذا إلى العلماء أنفسهم فقد روى أن شيخ الإسلام آنذاك ابن دقيق العيد لما علم بقوة تأثير روح البدوى على أتباعه في الدعوة إلى الله أرسل أحد العلماء ليستوثق مما سمع فعاد العالم وهو الشيخ عبد العزيز الدرينى وأكد صدق كرامات البدوى وقال إنه بحر علم لا يدرك له قرار فأكثر شيخ الإسلام من لقائه مع البدوى حتى أصبح واحدا من أتباعه ومريديه وقد تحول سطح دار بن شحيط من كثرة اجتماع الناس مع البدوى إلى ما يشبه مجلس أهل الصفة في عهد رسول الله ﷺ فكان أتباعه عابدين يقومون الليل بالذكر وتلاوة القرآن ويتلقون علوم الشرع الحنيف وقد تخرج من هذا المكان المجاهدون على يدى البدوى وهم الذين حققوا بجهادهم النصر على الصليبيين وأسروا لويس التاسع ملك فرنسا قائد الحملة الصليبية على مصر في دار ابن أم لقمان في المنصورة، فهكذا كانوا مجاهدين في الدين والدنيا بقوة التأثير الروحى للبدوى الذى انبهر حافظ إبراهيم بعظمة البدوى حتى بعد موته فقال يغبطه على عطاء الله له.

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
يسعى الأنام له ويجرى حوله بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى به الحاجات

يشير حافظ إبراهيم إلى أن صناديق النذور التى فى مسجد البدوى توضع فيها ما لا يستطيع الأحياء جمعه لكثرتها كما يشير إلى أنه كان يلقب بباب المصطفى ﷺ تقضى ببركته الحاجات وهذا من باب الاعتراض من الشاعر.

وقد كان شيخ الإسلام قد أعطى الناس الثقة فى علم البدوى فقد كان يحضر مجلسه، كما كان السلطان الظاهر بيبرس نفسه يعتقد كما ذكر الإمام الشعرانى فى كرامات السيد البدوى اعتقادا كبيرا، حيث كان يذهب لزيارته في طنطا بل إنه كان يقبل يده ويجله ويعمل بمشورته، كما شهد له بالولاية أقطاب التصوف آنذاك وهم سيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أبو الحسن الشاذلى وسيدى أبو العباس المرسى وسيدى أبو القاسم القبارى وسيدى عبد الله الشاطبى[1]، وكلهم شهدوا له بالولاية واعتبروه إمام التصوف فى عصره.

وهكذا ترك البدوى فى مصر رجالا ومريدين يتزايدون عاما بعد عام كما سجلت تعاليمه فى كتب محفوظة. ولما توفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفن فى منزل ابن شحيط ثم أقام تلميذه عبد العال بجوار القبر خلوة تحولت إلى زاوية فيما بعد عرفت بالأحمدية ثم تطورت إلى المسجد الحالى المشهور فى طنطا وهذا المسجد قد وضع أساسه عام تسعة وستين ومائتين وألف للهجرة وتمت عمارته فى عهد الخديوى إسماعيل ثم تطورت عمارة المسجد عدة مرات حتى أصبح له ميدان فسيح يفد إليه كل يوم ألوف الزائرين فى سياحة دينية لما عرف من فضله وعلمه وكراماته، وبداخل هذا المسجد الذى تتوالى عليه يد التعمير حجرة لمخلفات السيد البدوى، كما يوجد في أحد الأركان تحت

(١) ذو الكرامات السيد البدوى، أنور طلب، ومناقب الأقطاب الأربعة، أحمد الشرنوبى.

قبة المسجد أثر قدمين، ولا يعرف تماما لأى قدمين وهناك من يقول إنهما أثرا قدمى رسول الله ﷺ والله أعلم. كما توجد بعض الآثار النبوية وهى عبارة عن شعرة من شعر النبى ﷺ نقلت من مخلفات الرسول ﷺ المحفوظة الآن بمسجد الإمام الحسين بالقاهرة بركة للمكان.

لقد عاش السيد البدوى تسعة وسبعين عاما حتى توفى عام خمسة وسبعين وستمائة للهجرة قضى منها أربعين عاما فى طنطا وما عداها قضاها متنقلا بين مكة والمدينة والعراق وفاس وقد أسس أكبر مدرسة صوفية فى مصر والعالم الإسلامى وطريقته الأحمدية تفرعت منها طرق كثيرة كلها تنتمى إلى هذا القطب الصوفى الشهير سيدى أحمد البدوى رضي الله عنه.

واليوم تدور الحياة فى طنطا حول هذا القطب الذى أصبح مصدر خير لهذا الإقليم الذى يقع فى وسط دلتا مصر.

وتتجلى شخصية أحمد البدوى الوعظية من دروسه ومواعظه التى وجه بها أتباعه واستمال بها قلوب الناس والتى كان يوجهها لأشهر مريديه السيد عبد العال رضي الله عنه المدفون فى قبر مجاور له فى نفس المسجد البدوى ومنها:

يا عبد العال.. إياك وحب الدنيا فإنه يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل واعلم أن الله يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

يا عبد العال اشفق على اليتيم واكس العريان وأطعم الجوعان واعطف على الغريب وأكرم الضيفان عسى أن تكون عند الله من المقبولين، واعلم أن كل ركعة بالليل خير من ألف ركعة بالنهار.

يا عبد العال لا تتشمت بمصيبة أحد ولا تنطق بغيبة أو نميمة، ولا تؤذ من يؤذيك واعف عمن ظلمك واعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك واعلم أن أحسن الناس أخلاقا أكثرهم إيمانا.

وكان يردد دائما «طريقتنا قائمة على الكتاب والسنة وما خالف ذلك فهو مدسوس لا بد من الحذر منه.

ومن هذه المواعظ كذلك؛ لا تتعلق بالدنيا وراع الإحسان فى العمل، وابعد النفس عن الشح بالعطاء، واستمر فى ذكر الله، ولا تغفل عن قيام الليل ولا تكن سيء الخلق في المعاملة، واصبر على تحمل الأذى، والزم الصدق دائما وكن صافي النفس والقلب حسن الوفاء حافظا للعهد.

ولم يترك البدوى أولادا لأنه لم يتزوج، فقد كان مشغولا بتعليم الناس دينهم ولكنه ترك أبناء عهد لا يزالون حتى اليوم ينشرون علمه ويواصلون جهاده فى حمل الرسالة الإسلامية ونشر تعاليم الإسلام على منهج هذا القطب البدوى فذلك هو الميراث العظيم ومع ذلك كان يحث مريديه على الزواج فكان وجوده فى طنطا بركة عليها وعلى أهلها وعلى من يعرفون منزلته كأحد أحفاد النبى ﷺ، ويلقبونه بشيخ العرب البدوى رضي الله عنه ومن مشاهير الأحفاد الطاهرين.

وكما وصفه المقربون إليه أنه كان بدينا ضخما طويل القامة طولا غير بائن، عظيم الوجه وكبيره كث اللحية سهل الخدين قمحى اللون يضرب لونه إلى البياض، أكحل العينين أقنى الأنف، وبوجهه ثلاث حبات من أثر الجدري، يعلو وجهه مسحة من الهيبة ولصوته غير الجهورى نبرات حادة حاسمة وكان مرحا إذا أراد المرح جادا إذا أراد الجد لا يثنيه عن عزمه إلا

القضاء المبرم، ولا تأخذه فى الحق لومـة لائم، وكان حريصا فى عباراته، يعمل فى الخفاء قبل أن يعمل فى الظهور وكـان كثير القيام فى الليل وكان يقول ركـعتان فى الليل خيـر من ألف فى النهار وكان الناس يحـبونه لعلو همته وخلوص نيته ولحبه لأن يعمل لغيره، وكان شديد الاعتزاز بنفسـه لأنه من أهل البادية الذين يعـتزون بشخـصياتهم،كمـا كان كثـير العطف على الفقراء والضعفاء وذا رحمة بهم ويتطوع لخدمتهم ويشملهم بكرمه السابغ. وكان يقـول إن أصحاب الشفـاعة عند الله هم أهل الشفـقة على خلق الله كما كان يقول إن المنزلة عند الله لا تنال إلا بالتقوى وإن الحرص على العلم يتطلب تزيينه بالحلم وتتويجه بالكرم والسخاء.

ولقد كـان يقول لمريديه كلمـا حسنت أخلاق المريـد حسن إيمانه ولا معنى لأن يتخلق المرء بخلق ولا يعـمل به، ومن حصل على كمال الإيمان بالتـقوى والأخـلاق حصل على أثمـن شىء وهو المعرفـة بالله وهو مقـام النيابة عن رسـول الله ﷺ ومقام الإمـامة العظمى، والزهد لا يتـحقق إلا بشيئين بترك شهوات الدنيا مع ترك سبعين بابا من الحلال مخافة الوقوع فى باب من الحرام، ويجب أن يقف الإنسان مع نفسهِ موقف المخالفة لشهواتها الدنيوية التى تعرض عليـه كل يوم من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهـب والفضـة وسائر الشهوات الأخـرى، فأسلافنا الصـالحون لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بزهدهم فى شهوات الدنيـا ومهلكاتها وجهادهم فى الله وعملهم لله وسعيهم فى مـصالح المسلمين لله لا يبغون حظوظا دنيوية ولا نفسية فدانت لهم الدنيا وهم عنها معرضون.

وكان يعظ مريديه كذلك فيـقول لهم: يجب التسليم والرضا بحكم الله وهذا هو الصبـر وأن تكون النعمة والبليـة عند العبد سواء، وإذا أكـثر

العبد من ذكر ربه قذف الله فى قلبه نورا يشوقه للمحبوب الذى لا إله إلا هو فيزداد تعلقه بربه تعلقا كاملا فيزداد درجات فى السمو الروحى ويفيض الله عليه من الكمالات الروحية. وأما إذا غفل عن ذكر ربه امتلأ قلبه قسوة، وأفضل الذكر أن يكون بالقلب مع اللسان.

ودعا مريديه أن تكون البداية بالتوبة وهى الندم والإقلاع عن الذنوب والاستغفار منها مع العزم والتصميم على عدم العود إليها فيتطهر القلب ويتخلص من كل ما يغضب الرب فتلك هى التوبة التى تقوم مقام الواعظ فى نصح الناس فإنها تنصحهم للرجوع إلى الله تعالى وترك معاصيه، حتى لا يرجع إلى الذنب كما لا يرجع اللبن إلى الضرع.

ويجب على المرء أن يكثر من التفكير فى خلق الله لأن التفكير فى ذلك لا بد أن يؤدى إلى نتيجة مترتبة على مقدمات تفكيره فمن يفكر فى صنع الله يخرج بحقيقة توحيد الله وشمول قدرته. كما حذر من التفكير فى ذات الله تعالى فإن ذلك خطأ عظيم فالمقدمات الخطأ تؤدى إلى نتيجة خطأ وإن الله تعالى لا يحفظ به تفكير أحد من مخلوقاته ومن فعل ذلك ففكر فى ذات الله وقع فى الضلال المبين.

وهكذا حث البدوى أبناءه على التفكر والذكر والتوبة والمحبة لله والصبر والزهد والإيمان وكان ذلك وهو يجيب على أسئلة تلميذه عبد العال حول هذه الأمور فجاءت إجاباته منهجا للسالكين فى طريق الله .. فجزاه الله خير الجزاء.

ولئن تعددت كرامات البدوى فإن الكرامة الكبرى أنه أصبح رائد أعظم مدرسة تخرج منها الآلاف من حملة لواء الدعوة والجهاد فى سبيل

الله فقد خرج أجيالا من دعاة الهداية ينتسبون إلى الطريقة الأحمدية والتى على رأسها البيومية الأحمدية ثم الخليلية الأحمدية وغيرها من الطرق الصوفية المنتشرة فى مصر وفى سائر البلاد العربية وغير العربية وهؤلاء بدورهم ساروا على منهج البدوى فى الجهاد، جهاد النفس وجهاد الأعداء وقد جمعهم حب شيخهم ومعلمهم البدوى فساروا على منهجه فى العبادة الخالصة ونشر دعوته فقد كان بحق رائدا للدعاة من الصوفية الذين واصلوا منهجه فى الدعوة إلى طريق الله على أساس القرآن والسنة مؤيدين من الله تعالى بصدق التوجه إليه تعالى وحب الخير للناس

وأخيرا يمكننا أن نقول إن أعظم كرامات البدوى أنه ربى رجالا فى طريق الله نشروا منهجه فى العبادة على أساس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ولقد نالت بركة سيدى أحمد البدوى مستشاره سيدى عبد العال الأنصارى الساكن ضريحه فى حجرة مجاورة لضريح سيدى أحمد البدوى فقد جاء إلى طنطا من بلاد الحجاز ولزم مجلس السيد البدى وصحبه طول حياته فاختاره سيدى أحمد البدوى كأول أبنائه لطهارة نفسه وخلوص قلبه فكان خليفته بإذن منه لطهرة ولصلاحه كما روى عنه، فقد كان مشهورا بأبى العواجز وبعطفه على المساكين وقد خدم أستاذه نحو أربعين سنة خدمة كريمة وتوفى رضي الله عنه سنة سبعمائة وثلاث وثلاثين للهجرة فرضى الله عنه وأرضاه.

●●●

سيدى إبراهيم الدسوقى رضي الله عنه

من الأحفاد الأشراف

اشتهر عن هذا القطب الربانى أنه ولد وليا، فهو من أولياء الله الصالحين، كما عرف عنه أنه قد ذاع صيته في خارج مصر بفضل علمه الغزير شعرا ونثرا وفلسفة، فقد انتشرت مؤلفاته واهتمت بها الجامعات فى ألمانيا وهولندا والمراكز العلمية المهتمة بالدراسات والفلسفة الإسلامية، كما اهتم بفكره الصوفي وفلسفته المستشرقون وترجموا له كثيرا من مؤلفاته العربية وغير العربية فقد كان يجيد لغات شرقية منها السريانية والعبرية والفارسية وله قصيدة مشهورة ترجمت إلى الألمانية وإلى لغات أخرى وهى محفوظة فى المتحف البريطاني فى لندن حتى الآن، بالإضافة إلى مؤلفاته الكثيرة. ولقد كان لهذا القطب، الكبير دور عظيم في انتصار المسلمين على الصليبيين وعلي التتار حيث أعد الرجال للدفاع عن الإسلام ضد أعداء الإسلام خاصة الصليبيين كما بشر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون باستيلائه على حصن عكا وتحريره من الصليبيين سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة وحقق الله هذه البشرى للمسلمين وكان إعجاب هذا السلطان بشخصية الدسوقي وعلمه وورعه عظيما فقد أوقف نصف الجزيرة المواجهة لدسوق علي أتباع الدسوقى بعد أن ارتبط به عن قرب واقتنع بصدقه وورعه وكراماته فكان راجيا دعواته وملتمسا بركاته ولهذا أكرم أتباعه كرامة له.

وكان رضي الله عنه فى تشجيعه على الجهاد ضد الصليبين يقول لأتباعه:

يا أبنائى.. قاتلوا عدو ربكم وعدوكم فقد انتهك حرمات دينكم وعطل دور العلم واقتحم بلادكم يا أبنائي كونوا شجعانا فإن أعداء الإسلام

هدفهم كما قال تعالى فى قرآنه الكريم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

ولقد أصدر الظاهر بيبرس قراره بتعيين الدسوقى شيخا للإسلام وكان الدسوقى يهب مرتبه عن هذه المهمة الكريمة للفقراء وظل يشغل هذا المنصب حتى توفى الظاهر بيبرس سنة ستٍ وسبعين وستمائة للهجرة توازى سنة سبع وسبعين ومائتين وألف للميلاد.

كما أمر الظاهر بيبرس ببناء زاوية يلتقى فيها الدسوقى مع مريديه يعلمهم ويفقههم فى العلوم الشرعية والمعارف الصوفية فجمعوا بين علوم الحقيقة مع علوم الشريعة والجهاد فى سبيل الله.

وسيدى إبراهيم الدسوقى الملقب بأبى العينين إشارة إلى أنه جمع بين عين الشريعة وعين الحقيقة، أى علم الشرع وعلم الحقيقة حيث حاز السبق فى العلوم الشرعية وألف كتابا مشهورا فى الفقه الشافعى اسمه شرح الدسوقى على متن الغاية للقاضى أبى شجاع، كما ألف فى سائر العلوم الشرعية فجمع إلى علوم الشرع علوم الحقيقة والتصوف والفلسفة الإسلامية وقد بهرت هذه المؤلفات علماء الغرب فقد كان رضي الله عنه نابها منذ حداثة سنه، حيث درس فى الأزهر ودرس علوم الإسلام .

وموطن ولادة هذا القطب الربانى، سيدى إبراهيم الدسوقى، هى مدينة دسوق على فرع رشيد بدلتا مصر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة للهجرة وهو قرشى الأصل ومن آل بيت النبى ﷺ ينتهى نسبه من جهة أبيه إلى الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على كرم الله وجهه ورضى الله عنهم أجمعين.

وسيدى الدسوقى من الأحفاد الأطهار من الطبقة التى ظهرت فى المرحلة الثانية فى القرن السابع الهجرى وكان يعاصر سيدى أحمد البدوى فرضى الله عنهما وفى تاريخ ميلاده قيل إنه ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وقيل سنة ثلاث وخمسين وستمائة للهجرة وقد عاصر السلطان الظاهر بيبرس والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون وقد جمع ﷺ بين الحسنين فأبوه حُسَيْنى وأمه كذلك من آل البيت وهى قريبة القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى وقيل أنها أخته ونسب الدسوقى متصل بالبدوى ﷺ كذلك عند الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر، والدسوقى كما ذكر المناوى فى طبقاته هو شيخ الطريقة البرهامية وصاحب المحاضرات القدسية والعلوم الدينية والأسرار العرفانية وأحد الأئمة الذين خرقت لهم العادات وامتلك زعامة الكلام على خواطر الأنام وقد كان يتكلم بكثير من اللغات من عربى وسريانى وفارسى وغيرها، ولقد كانت نشأته ﷺ دينية خالصة مثل خاله سيدى أبو الحسن الشاذلى، فقد احتجب فى خلوته وهو طفل بعد أن حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، كما تفقه فى مذهب الإمام الشافعى، فهو العالم الورع المجاهد بل هو الولى المنسب ﷺ.

روى أنه لما جاءه رجل يريد أن يلتحق بطريقته قال له ناصحا: يا ولدى إلزم أولا طريق النسك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإذا عملت بذلك انقدح لك علم الحقائق والأسرار فاسلك يا أخى على التدريج شيئا بعد شىء والله يحفظك إن صدقت. وكان يقول لمريديه طريقتنا طريقة جهد وتحقيق وتصديق وعمل وغض بصر وتنزه وطهارة يد وفرج ولسان فمن خالف شيئا منها رفضته الطريق طوعا أو كرها.

كما كـان يقول لمريديه وأولاده: من لم يكن منكم متـشرعا متحـققا نظيفا عفيفا شريفا فليس من أولادي وإن كان من صلبي.

وكان يرى أن الصـوفي الحقـيقي يكون حـمالا للأذى ولا يؤذى من يؤذيه ولا يتحدث فيما لا يعنيه.

وهذه إحدى درر الدسـوقي التي ترجمت إلى اللغـات الأوربية وهي قصيدة فـريدة محفوظة الآن في المتحف البريطاني كـمخطوط صوفي نادر يتغنى بها أتباعه في المناسبات الدينية والحضرات ومنها هذه الأبيات:

سَقـانيَ محـبـوبي بكأس المحبـة فتهت على العـشاق سكرا بخلوتي
ولاح لنا نور الجـلالة لو أضـاء لِصُمّ الجـبـال الراسـيـات لدكت
وكنت أنا الساقي لمن كان حاضرا أطوف عـليـهم كَرّةً بعـد كَرّةِ
بإذن من المختـار خـير مـهـذب فـإن رسـول الله شيـخي وقـدوتي
وعـاهدته عهـدا حـفظت لعهـده وعـشت وثيـقـا ثابتـا بمحـبـتي

كما نقتـطف من أدبه وحكمته ما يؤكد أنه كان ملهـما ينطق بالحكمة ويلقن العلوم الربانية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد فطم على التدين وكـان نابغة منذ نعومة أظفاره فقد تلقى العلوم الصوفية عن خاله أبي الحسن الشاذلي وكذلك عن أبيه سيدى أبو المجد بعد أن حـفظ القرآن الكريم وتفقه على مذهب الإمام الشافعي في سن مبكرة ثم دخل خلوة في مدينة دسوق ولم يخرج منها إلا بعد أن تعلم أمور الدين وعلوم التصوف ثم لما ألح عليه الناس بالخروج من الخلوة خرج وجعـل له مجلس علم بجوارها فالتف حـوله الناس وتعلموا على يديه ولا يزال الناس يـنهلون من علمـه وحكمتـه ويسـتـفيـدون من بركاته، فقـد كان واسع المعرفة كمـا كان يعايش حيـاة الناس ويتفاعل مع

مجتمعه ويتخذ حرفة يتكسب منها فكان نموذجا لأتباعه ومريديه وكان يقول لهم:

البسوا قميص الفقر النظيف واعلمو أن التصوف هو أن تخلص عملك بقلبك وأن حياة العبد لا تكون إلا باثنين بالعلم والعمل وإذا جمع الله لعبده الإثنين أفاد الله به الناس. وقال لأحد مريديه:

إذا وعظت الناس فعظهم بعلمك وعملك، فإذا رآك الناس بالعلم عاملا سمعوا منك وعملوا، وعظ الناس بأعمالك.

ومن كلامه:

شربت دنان الصرف فى حضرة الرضا

وكان دليلى فى الهدى سيد العرب

يشير إلى أن معلمه ومرشده فى سلوك طريق الله أولا وهو جده رسول الله ﷺ فقد شرب من خلاصة الشراب الربانى على يدى رسول الله ﷺ ولذلك يصفه سيدى عبد الوهاب الشعرانى فيقول: كان له المعراج الأعلى فى المعارف، والمنهج الأسنى من الحقائق، والطور الأرفع فى المعالى والقدم الراسخ فى أحوال النهايات واليد البيضاء فى علوم الحقيقة والباع الطويل فى التصريف الناقد والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود وأبرزه رحمة للخلق وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام ومكنه من أحكام الولاية وقلب له الأعيان، وخرق له العادات وأظهر على يديه العجائب منذ طفولته رضي الله عنه.

ومن كلامه رضي الله عنه كذلك: الكامل من جمع بين الشريعة والحقيقة أى بين الظاهر والباطن بين طهارة الظاهر وصفاء الباطن فيكون عمله مطابقا لسريرته.

وقد استخلص طريقته بعد دراسة لطريقة القطب الرفاعى كما درس فكر القطب الشاذلى وفكر السيد البدوى، فهناك وحدة فى الفكر الصوفى لأن جميع الطرق مستمدة من مشكاة النبوة قائمة على ذكر الله تعالى، فهدف الطرق واحد هو إعداد المؤمن الصادق المجاهد فى سبيل الله الراغب فى الترقى الروحى إعدادا يوصله إلى درجة عالية من الكمال الخلقى على أساس الشرع الحنيف.

وجميع مشايخ الطرق يدعون المريدين إلى ملازمة مجالس ذكر الله ويوجهونهم إلى الورع وحفظ الأدب وطلب العلم مع اتّباع الكتاب والسنة.

ولقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى ناذرا نفسه لخدمة الإسلام عن طريق تربية المريدين وموالاتهم فانشغل بذلك عن الزواج فعاش حياته مثل أخيه سيدى أحمد البدوى كان مثله مشغولا بإعداد الرجال للجهاد وقتال الصليبيين وتخليص بلاد الإسلام مبن شرهم، الذين كانوا يتطلعون إلى القضاء على دين الله وقد ظل فى جهاد وتربية لأتباعه حتى لقي وجه ربه وترك علما نافعا ورجالا صالحين وبعضهم يسكنون قبورهم فى جواره بمدينة دسوق رضي الله عنه، وهكذا كانت حياته على قصرها مملوءة بالعلوم النافعة والمعارف، وإن كانت هذه العلوم المدونة فى كتبه قد نقلت إلى مكتبات خارج مصر. نسأل الله أن يهتدى بها إلى نور الحق أينما كانت.

ولا نختم الحديث عن هذا القطب حفيد رسول الله ﷺ إلا بأجمل ما قاله شعرا رضي الله عنه فى قصيدته التى أشرنا إليها:

سقانى محبوبى بكأس المحبة فتهت على العشاق سكرا بخلوتى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضاء لصم الجبال الراسيات لدكت
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضرا أطوف عليهم كَرّةً بعد كَرّة
وكان دليلى يوم حضرة قدسه علي المرتضى الكرار يوم الكريهة
بإذن من المختار خير مهذب فإن رسول الله شيخي وقدوتى
وعاهدته عهدا حفظت لعهده وعشت وثيقا صادقا بمحبتى
وكم عالم قد جاءنى وهو منكر فَرُدَّ بفضل الله من أهل فرقتى

وكان من آخر وصاياه لأبنائه: يا أولادى اطلبوا العلم ولا تسأموا، فإن الله تعالى قال لسيد المرسلين ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

يا أولادى من لم يكن فى قلبه شفقة على خلق الله لا يرقى إلى ما رقى إليه أهل الله وقد بارك الله فيه وفى أسرته فأخوه سيدى العتريس هو المدفون فى الضريح الملاصق لمسجد السيدة زينب حيث كان ملازما لمسجد السيدة الطاهرة وتوفى فى آخر القرن السابع الهجرى كما دفن بجواره بعد ذلك الإمام العيدروس وهو حسينى أيضا دفن فى ضريحه فى رحاب السيدة زينب رضى الله عنهم جميعا فقد كان الشيخ العيدروس والشيخ العتريس من أحباب حفيدة رسول الله ﷺ ملازمين ضريحها ومسجدها حتى لقيا ربهما فظلا ملازمين لها بعد وفاتهما رضى الله عنهم جميعا فى تلك الرحاب الطاهرة مسجد السيدة زينب بنت الإمام الحسين رضى الله عنهم

●●●

سيدى أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه

من الأحفاد الأشراف

ينتسب رضي الله عنه إلى الذرية المباركة ذرية آل البيت فجده الأكبر الإمام الحسن بن الإمام على كرم الله وجهه ولقبه الشاذلى نسبة إلى شاذلة قرية بشمال إفريقية قرب تونس وقد نشأ ضريرا واشتغل بالعلوم الشرعية فأتقنها إتقانا عظيما ثم سلك طريق التصوف حتى صار قطب وقته وقد تلقى علوم الحقيقة النورانية على يد شيخه سيدى عبد السلام بن بشيش حيث التقى به فى مغارته بأعلى الجبل ببلدة تسمى غمارة بعد أن ساح فى البلاد يطلب علم التصوف، حيث رحل إلى بغداد وهناك قيل له ارجع إلى بلدك فاطلبه فيها فصعد الجبل والتقى بسيدى عبد السلام بن بشيش قطب زمانه وذكر له نسبه إلى رسول الله ﷺ وأقام عنده أياما فوجد من حاله العجب كما روى فابن بشيش ولىٌّ من أولياء الله قال عنه صاحب الدرر البهية «هو القطب الأكبر والعلم الأشهر وهو البدر الطالع الواضح البرهان قد سرى سره فى الآفاق، قضى عمره فى العبادة وكان رضي الله عنه فى العلم فى الغاية وفى الزهد فى النهاية، وجمع الله له الشرفين شرف الدين وشرف النسب. وكان متمسكا بالكتاب والسنة عاملا بهما فلما نصح رجلا سأله أن يوظف له أورادا، قال له: أنا لا أوظف أورادا فلست رسولا وإنما الفرائض معلومة والمعاصى مشهورة فكن للفرائض حافظا وللمعاصى رافضا واعلم أن مصدر الخير فى صدق الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم ولا يتم لك ذلك إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح.

ويقول الشاذلى إن الشيخ ابن بشيش قد بهره بكراماته وبولايته وبعلمه المستمد من الكتاب والسنة.

كمـا قال إن شيـخي ابن بشيش لما لزمـته رسم لى حيـاتي المستـقبلة فعندما انتهت مدة إقامتى معه بعد أن تلقيت على يديه علم الحقيقة قال لى يا على ارتحل إلى شمال إفريقية اسكن بـهـا بلدا تسمى شاذلة فإنك ستكون الشاذلى. وبعـد ذلك تنتقل إلى مـدينة تونس وهناك تمتحن وتُبْتَلى وبعد ذلك ترحل إلى أرض المشرق. وقد تحقق هذا الذى رسمه شيخى الذى كان ينظر بنور الله وقـد أنذره شيـخه بالابتـلاء فى تونس كمـا بشره بالـعاقـبة الحميدة في بلاد المشـرق فأقام في شاذلة فترة عبادة وصـقل وتهيئة للولاية والتف الناس حوله وذاع صيته ثم صعد على جبل زغوان وكان يصحبه فى حله وترحـاله صديقه الـصالح أبو محـمد الحـبيـبى الذى روى كثيرا من كرامات الشاذلى كما رآها رؤية العين.

ثم سافر إلى تونس بعد أن قـضى على الجبال مدة عام يتعبـد ويتهيأ للولاية وكـان فى رحـيله إلى تونس يلبى النداء الذى بشـره به شـيخـه: «اذهب إلى تونس لينتـفع الناس بعلـمك»، وفى تونس سـبقـتـه شهـرته وكراماته وكثر حوله المريدون وأخـذوا يزدادون حتى كثر عددهم مما تسبب فى إثارة حقد ابن البراء قاضى القضاة بالمدينة عليه فعندما رأي إقبال الناس على الشاذلي وقد هجـروا مجلسه هو أحس أن الشاذلى انتـزع منه الزعامة الشعـبية. حيث برع الشـاذلى فى شتى العلوم الشـرعية والعلوم الصوفـية فكان يفسر ويفتى ويشرح كما كانت تؤيده الكرامات التى يجريها الله على يديه فظن ابن البراء قـاضى القضاة هذا أن الشـاذلى ربما ينتزع منه وظيفـته فوشى به إلى السلطـان واتهمه كذبا وزورا ثم أوعـز إلى السـلطان أن ملك السلطان ذاته قد أصبح مهددا بسبب هذا الرجل الشاذلى الذى جذب الناس إليه.

ولما أراد السلطان أن يتأكد من ذلك أرسل إلى الفقهاء والعلماء وأمرهم أن يسألوا الشاذلى فى العلوم وكان السلطان حاضرا إلا أنه جعل بينه وبينهم حجابا فلما سمع إجابات الشاذلى وجده كما قال عنه بعضهم بأن كلامه كلام قريب العهد بالله تعالى يجذب القلوب.

فلما دخل عليهم السلطان رآه شيخا مهيبا فقال لابن البراء: هذا رجل من الأولياء ما لك به طاقة.

غير أن السلطان قد تأثر بوشاية ابن البراء فأمر بحجز الشاذلى فى قصره ولم يخرج منه إلا بكرامة، فقد كان للسلطان جارية مقربة إليه وكان يقدر رأيها لأنها كانت ذات فكر ثاقب ورأى سديد ويوم أمر السلطان بالتحفظ على الشاذلى فى قصره كان يوم انتهاء أجل هذه الفتاة وقد أشعلوا جمرا فى القصر بعد وفاة الجارية وانشغلوا عن النار فشب حريق فى القصر وكان للسلطان أخ عاقل يحب الشيخ الشاذلى ويتبرك به فلما بلغه ما حدث فى القصر من وفاة وحريق قال لأخيه السلطان إن هذا ذنب الشيخ الذى وشى به إليك ابن البراء ثم دخل علي الشيخ الشاذلى واعتذر له، عندئذ أمر السلطان بخروج الشيخ إلى داره فى نفس اليوم فكان خروجه من القصر بكرامة

وعندما عزم الشيخ علي الحج إلى بيت الله وبعد أن علم ابن البراء بذلك وعلم أن الشيخ سيمر بمصر فى طريقه إلى مكة وأنه سيقيم بالإسكندرية مدة فى طريق الحج عاود وشايته إلى السلطان الذى استجاب له فأرسل كتابا باعتقال الشيخ فى الإسكندرية غير أن الله نجاه من ذلك بكرامة فواصل طريقه من الإسكندرية إلى بلاد الحجاز وبعد الحج عاد إلى مدينة تونس، وظل بها هاديا مرشدا داعيا إلى الله حيث زاد أتباعه بعد أن

كثرت كراماته وظل بتونس وهو يعلم أن مقامه فى تونس لن يستمر طويلا فإن شيخه ابن بشيش قد أخبره أنه سيستقر بالمشرق فظل بتونس ينتظر الإذن بالتوجه إلى بلاد المشرق وفي هذه الأثناء اجتمع به أحب تلاميذه سيدى أبو العباس المرسى الذى لم يفارقه لحظة منذ التقى به وكان ثمرة هذا اللقاء الروحى أن المرسى صار وارث علم شيخه وأصبح خليفته من بعده.

ثم أتاه الإذن بالرحيل كما قال رضي الله عنه «رأيت رسول الله ﷺ في المنام يقول لى يا على انتقل إلى الديار المصرية تربى فيها أربعين صديقا».

ولبى الشاذلى النداء ووصل إلى الإسكندرية سنة خمس عشرة وسبعمائة للهجرة.

وتزوج فى الإسكندرية وأنجب أولادا . . وقد أقبلت عليه فى مصر أيام المنن وانتهت أيام المحن حيث استقبلته مصر بعلمائها أحسن استقبال فصار يدعو الخلق إلى الله تعالى وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام العز بن عبد السلام وظل يدعو الناس إلى الحق وإلى طريق الله إلى أن عزم على الحج ولما وصل إلى حميثره بصحراء عيذاب بين قنا والقصير جمع أصحابه في إحدى الأمسيات وأوصاهم ثم خلا بأبى العباس وأوصاه بأشياء واختصه بخلافته ثم قال لأصحابه بعد ذلك إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى فإنه الخليفة من بعدى، وسيكون له من بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى ولما كان السحر وهو يناجى ربه وظنوا أنه نام، جاء أبو العباس يحركه فوجده قد فارق الدنيا فغسله ثم صلوا عليه ودفنوه فى مكانه الذى يزار اليوم وقد بنوا له فى المكان مسجدا في حميثره بصحراء عيذاب بين قنا والقصير وعلي المقام

قبة مكتوب عليها نسبه إلى سيدنا الحسين ﷺ وهو مخالف لما هو معروف من أن نسبه يرجع إلى الإمام الحسن بن علي كرم الله وجهه وكان ذلك سنة ست وخمسين وستمائة في شهر رمضان. وقد أخبر سيدي ياقوت العرش المدفون قريبا من شيخه ابى العباس المرسى بالإسكندرية نقلا عن شيخه أن سيدى أبو الحسن الشاذلى كان يحج كل سنة فلما كان فى آخر سنة خرج فيها قال لخادمه استصحب فأسا وحنوطا فسأله لماذا يا سيدى؟ قال الشيخ: فى حميثرا سوف ترى، فلما بلغ حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين ثم قبضه الله تعالى إليه فى آخر سجدة من صلاته ودفن فى هذا المكان ﷺ وأرضاه وضريحه يزار بل ويأتى إليه أحبابه من مصر ومن بلاد أجنبية ممن درسوا علمه واعتقدوا فى ولايته . وقد أصبح الطريق إلى ضريحه ممهدا للتيسير علي أحبابه وزواره من كل مكان ﷺ وأرضاه، فهو حفيد من الأحفاد المطهرين المرضيين.

وعن علمه وحكمته، تحدث العلماء كثيرا عن تراثه العلمى والصوفى فقالوا ما علي وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلس الشاذلى لذلك كان يحضر مجلس علمه علماء مصر وكان المجلس ينعقد في المدرسة الكاملية بالقاهرة فى شارع بين القصرين، ومما أثر عن علمه الفياض «إذا عرضت لك حاجة إلى الله فاقسم علي الله بى تقضى بإذن الله». قال سيدى أبو العباس المرسى والله ما ذكرت شيخي الشاذلى فى شدة إلا انفرجت ولا فى أمر صعب إلا هان، وقال؛ وأنت يا أخى إذا كنت فى شدة فاقسم على الله به فقد نصحتك والله يعلم ذلك.

وهذه بعض أقواله التى تدل علي ولايته ﷺ:

● إذا أردت ألا يصدأ لك قلب ولا يلحقك هم ولا كرب ولا يبقى عليك ذنب فأكثر من الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والعمل الصالح وإذا افتقرت فلم وإذا ظلمت فاصبر واسكت تحت جريان الأقدار فإنها سحابة سائرة.

● ومن أدب مجالسة الأكابر عدم التجسس على عقائدهم، ومن أدب مجالسة العلماء عدم تحديثهم بغير المعقول.

وله وصايا غالية لمريديه ومن إحدى وصاياه:

● وإن أردت الصدق في القول فداوم على قراءة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾ [القدر].

● وإن أردت الرزق كالمطر فداوم على قراءة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾[الفلق].

● وإن أردت السلامة من شر الناس فداوم على قراءة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس].

● وإن أردت جلب الخير والبركة فداوم على قراءة سورتى [الواقعة] و ﴿يس﴾.

● وإن أردت أن يجعل الله لك من كل ضيق مخرجا ويرزقك من حيث

لا تحتسب فداوم على الاستغفار.

- ولكى تأمن مما يروعك ويفزعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من شر غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن شر همزات الشياطين وأن يحضرون.
- وإن أردت أن تعرف أى وقت تفتح فيه أبواب السماء ويستجاب فيه الدعاء فاشهد وقت نداء المنادى لصلاة.
- وإن أردت أن تسلم من أمر يربكك فقل توكلت على الحى الذى لا يموت أبدا.
- وإن أردت أن توفق للحكمة فاترك فضول الكلام.
- وإن أردت أن توفق للخشوع فاترك فضول النظر.
- وإن أردت ألا يموت قلبك فقل كل يوم مرة يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت.
- وإن أردت أن تكون خير الناس فكن نافعا للناس.
- وإن أردت أن يكمل إيمانك فحسن خلقك.
- وإن أردت أن يحبك الله فاقض حوائج إخوانك المسلمين. ففى الحديث الشريف «إذا أحب الله عبدا صيرت حوائج الناس إليه».

وله رضي الله عنه وقفات وتأملات فى تأويل كلام الله تعالى منها، فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[المائدة: ٥٦].

ويقول رضي الله عنه حول كلمة ﴿ يَتَوَلَّ ﴾ ومن خرجت له من خزائنى المنن على بساط المحبة فقد تمت ولاية الله له وفرق بين الولايتين فعبد يتولى الله وعبد يتولاه الله فهما ولايتان صغرى وكبرى، فولايتك الله خرجت من

المجاهدة، وولايتك لرسوله ﷺ خرجت من متابعتك لسنته وولايتك للمومنين خرجت من الاقتداء بالأئمة.

وحول قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].

قال: خصلة واحدة تحبط الأعمال ولا ينتبه لها كثير من الناس هي سخط العبد على قضاء الله تعالى...

وقد روى الشيخ أبو العباس المرسي الذى كان ملتصقا بشيخه أبى الحسن الشاذلي قال: كنت مع الشيخ في سفر ونحن متوجهون من المغرب إلى الإسكندرية فأخذنى ضيق شديد ضعفت عن حمله فلما أحس بى الشيخ قال لى، الله خلق آدم بيده وأسجد له ملائكته وأسكنه الجنة نصف يوم (خمسمائة عام) ثم نزل به إلى الأرض، فوالله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينتقصه ولكن نزل به ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه وذلك فى قوله تعالى﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠]، فما قال الله ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ فى الجنة ولا فى السماء ولكن قال ﴿ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ ﴾،وقد كان آدم يعبد الله في الجنة بالتشريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة الله، وأنت أيضا لك قسط من آدم كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف فنزلت إلى أرض النفس بالتكليف فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة كذلك.

وللشيخ رضي الله عنه إلهامات كثيرة في كتاب الله ذكرها تلميذه وخليفته بعد ذلك ابن عطاء الله السكندرى رضي الله عنه في لطائف المنن كما روى عن

حاله هو رضي الله عنه الكثير من خواطره النورانيــة وتلميذه ابن عطاء الله يسكن ضريحه على جبل المقطم ويزار فقد جمع الله له بين علم الشريعة والحقيقة كما بشره بذلك ودعا له شيــخه سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنهم جميعا.

وهذه بعض خواطر الشاذلى رضي الله عنه تدل على مدى تعلقه وقربه من الله تعالى ومن هذه الخواطر الشاذلية:

- رأيت كأننى مع النبيين والصديقين فأردت الكون معهم ثم قلت:

اللهم أسلك بى سبــيلهم مع العافيــة مما ابتليتهم فــإنهم أقوى ونحن أضعف منهم.

فقيل لى: وما قدرت من شيء فأيدنا كما أيدتهم.

- رأيت كأنى فى المحل الأعلى فقلت:

إلهى أي الأحــوال أحب إلــيك؟ وأى الأقــوال أصــدق لديك؟ وأى الأعمال أدل على محبتك؟ فوفقنى واهدنى

فقيل لى:

أحب الأحوال إليه الرضا بالمشاهدة، وأصدق الأقوال لديه قول: لا إله إلا الله على النظافــة، وأدل الأعمــال على مــحبته بغض الدنيــا واليأس مع أهلها [1] مع الموافقة.

- رأيت كأنى واقف بين يدى ربى فقال:

لا تأمن مكرى فى شيء وإن أمنتك، فإن علمى لا يحيط به محيط.

- رأيت كأنى أطوف بالكعبة طالبــا من نفسى الإخلاص وأنا أفتش عليه

(١) بغض الشهوات والأهواء والنزغات فذلك هو الدنيا وبغض أهل الشهوات والأهواء والنزغات.

في سري فإذا النداء عليّ:

كم تدندن مع من يدندن أنا السميع القريب العليم الخبير، وتعريفي يغنيك عن علم الأولين والآخرين، ما خلا علم الرسول وعلم النبيين.

- قلت على مصيبة نزلت: ﴿إِنَّا لله وإنا إليه راجعون﴾.

اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها، فألقى في سري أن أقول:

فاغفر لي بسببها، وما كان من توابعها، وما اتصل بها، وما هو محشو بها، وكل شيء كان قبلها، وما يكون بعدها.

فقلتها، فهانت عليّ، فلو أن الدنيا كلها كانت لي في ذلك وأصبت فيها لهانت عليّ، ولكان ما وجدت من برد الرضا والتسليم أحب إليّ من ذلك كله.

وكتب رضي الله عنه إلى الشيخ ابن يحيى:

أما بعد، فإني منذ اثنتي عشرة سنة أغدو وأروح فيما هيأ لي من سفر الروح على عساكر أولياء الله فما مررت بك إلا وجدتك روحا طيبة تعقلها العقول وتألفها النفوس ويستريح بها السر ويذعن لها الأمر ويجتمع إليها كل مفترق.

- قرأت ليلة في وردي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٦، ٢٧].

فرأيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه في المنام، فقال لي: صل من يبقى

واهجر من يفنى: تجل وتكرم، تجل عن الفناء، وتكرم بالبقاء.

- كان لى صاحب وكان كثيرا ما يأتينى بالتوحيد: فرأيت فى النوم كأنى أقول له:

يا عبد الله، إن أردت التى لا لوم فيها، فليكن الفرق على لسانك موجودا والجمع فى سرك مشهودا.

- رأيت رسول الله ﷺ فقال لى:

قل لفلان بن فلان يقرأ هذه الكلمات، فمن قالهن تنصب عليه الرحمة كالمطر:

الحمد لله الذى بدئ منه الحمد وإليه يعود كل شىء كذلك، لا إله إلا الله، اللهم اغفر لى شركى (١) وكفرى (٢) وتقصيرى، واغفر للمؤمنين والمؤمنات.

استأذننى بعض الفقراء الحضور والسماع، فهممت بذلك، فرأيت أستاذى رضي الله عنه وفى يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله ﷺ وفى يده اليسرى أوراق فيها مرجز وهو يقول لى كالمنتهر:

تعدلون عن العلوم الزكية إلى علوم ذوى الأهواء الردية، فمن أكثر من هذا فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزون بها قلب ذوى الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان، ولا إرادة لهم فى عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان.

---

(١) يطلق الشرك علي الإشراك بالله الذى يخرج الشخص عن دائرة الإسلام ويطلق علي الظلم بألوانه، الكبير منها والصغير.

(٢) يطلق الكفر على نكران الجميل وعلى ألوان من المعاصى لا تصل إلى درجة إخراج الإنسان عن الإسلام.

لئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضا.

قال: فأخذني منه حال بوجد وأنا أقول له:

نعم يا أستاذي، ألا أن النفس أرضية والروح سماوية.

فقال لي:

نعم يا علي ﷺ إذا كانت الروح بأمطار العلوم دائرة، والنفس بالأعمال الصالحة ثابتة، فقد حصل الخير كله، وإذا كانت النفس غالبة والروح مغلوبة، فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر وجاء الشر كله:

فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما، وقد أصاب الشر من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذ سمعوا الحق أقبلوا عليه: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.

وقال رضي الله عنه:

خطر ببالي يوما أني لست بشيء، ولا عندي من المقامات والأحوال شيء.

فغمست في بيت مسك، فكنت فيه غريقا، فلدوام غرقتي فيه لم أجد له تلك الرائحة، فقيل لي: علامة المزيد فقدان المزيد لعظيم المزيد.

وقال]: قيل لي إن أردت رضائي فمن اسمي ومني لا من اسمك ومنك.

قال: وكيف ذلك؟

قال: سبقت أسمائى عطائى، وأسمــائي من صفاتى، وصفاتى قائمة بذاتى، ولا تمحق ذاتى.

للعبد أسماء دنــية، وأسماء علية، فأسماؤه العليــة قد وصفه الله بها بقوله: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة: ١١٢]، ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: ٣٥].

وأسمــاؤه الدنية معــروفة كالعــاصى والمذنب والفاسق والظالم وغــير ذلك، فكما تَمْحَق أسمــاءَك الدنية بأسمائك العلية كـذلك تمحق أسماؤك بأسمائــه وصفاتك بصفاتــه، لأن الحادث إذا اقترن بالقديم فــلا بقاء له إذا ناديته باسمه كـقولك يا غفور يا تواب يا قريب يا وهّاب، فاسـتدعيت بها العطاء لنفسك وقد تنزلت لنفسك من أسمائه وكذلك إذا لاحظت أسماءك الدنية من المعاصى والظلم والفسق فاشتغلت بسترها ومغفرتها فأنت باق مع نفسك.

وإذا ناديته باســمه العلى ولاحظت صفـته العلية قـائمة بذاته مُحقَتْ أسماؤك كلها وانعدم وجودك فصرت محوا لا وجود لك البتة، فذاك محل الفناء والبقاء بعد الفناء.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقال رضي الله عنه: كنت ذات ليلة متفكرا بالفكرة الغيبية، فأفادني الله علما جليلا، سعيت في الغيوب سعيا جميلا، فقلت في نفسي:

أليس هذا خيرا من الدخول في الحوائج للخلق مع الخالق، والكون مع الله أتم من الكون في الحاجات للناس وإن كان مأذونا فيها شرعا؟

فبينما أنا كذلك إذ نمت، فرأيت كأن السيل قد أحاط بي من كل جهة يحمل الغثاء عن يميني وعن شمالي، فجعلت أخوض لأخرج منه فلم أر برّا أنفذ إليه من الجهات الأربع، فاستسلمتْ نفسي ووقفتُ في السيل كالسارية أو النخلة الثابتة، فقلتُ في نفسي:

هذا من فضل الله أن ثبت لهذا السيل ولا يصيبني شيء من الغثاء، وإذا بشخص جميل الصورة يقول لي:

إن من أجَلِّ التصوف التعرض في الحوائج للخلق واستقضاؤها من الملك الحق، فما قضاه الله شكرت، وما لم يقضه رضيت، وليس قضاؤها الموجب للشكر بأتم من عدم قضائها الموجب للرضا.

وقد علمني الله علما قائما بذات نفسي لا يفارقها، بل هو لازم لها كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود، وهو: الله لا إله إلا هو الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار، فانظر الألوهية الفردانية والوحدانية والقاهرية والربوبية والعز والمغفرة، وكيف لف هذا كله في كلمة واحدة، أن المغفرة تتنزل علي العارف بالله كالسيل الحامل من الغثاء، وثبت الله فيها وبها من يشاء ولا يصيبه شيء من الغثاء.

فانتبهت من نومي وقد وعيت السر العظيم والحمد لله.

ما فتح الله بشيء من الدنيا ففرحت لأستعين أو أعين بها، فجعلت أحمد الله وأشكره، والشكر معرفة قائمة بالقلب، وكلمة قائمة باللسان، فكنت أجمع بينهما.

فواظبت علي ذلك وقتا من الليل ونمت، فرأيت أستاذى رحمه الله تعالى يقول:

استعذ بالله من شر الدنيا إذا أقبلت، ومن شرها إذا أدبرت، ومن شرها إذا أنفقت، ومن شرها إذا أمسكت.

فجعلت أقول كذلك، فوصل الشيخ كلامى فقال:

من المصائب والرزايا والأمراض البدنية والقلبية والنفسية جملة وتفصيلا بالكلية وإن قدرت شيئا فاكسنى جلال الرضا والمحبة والتسليم، وثواب المغفرة والتوبة والإنابة المرضية.

● رأيت رسول الله ﷺ فقلت له:

يا سيدى يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى رحمة للعالمين.

فقال لى:

أنا هو ذاك يا على، والولى رحمة فى العالمين.

● رأيت كأن رجلا جاء إلىّ فقال لى:

إن السلطان يأتى إليك فقل:

اللهم ألق علىّ من زينتك ومحبتك وكرامتك ومن نعوت ربوبيتك ما يبهر القلوب، وتذل له النفوس، وتخضع له الرقاب، وتبرق له

الأبصار، وتتبدد له الأفكار، ويصغر له كل متكبر جبار، ويسجد له كل ظلوم كفار، يا الله، يا مالك، يا عزيز، يا جبار، يا الله، يا أحد، يا واحد، يا قهار.

كما ترك رضي الله عنه مع طائفة من المأثورات الأقوال تلك التى حفظها أبناؤه ومريدوه ومنها حزب البحر وحزب البر ولكل خصائص وأنوار مشرقة.

نقول، ولقد انتشرت الطريقة الشاذلية انتشارا واسعا في شمال إفريقية ثم انتقلت إلى مصر حيث عاش فيها عابدا هاديا للناس وأصبحت مصر موطنه وببركته أصبحت مياه المكان الذى دفن فيه عذبة بعد أن كانت ملحة أجاجا وأصبحت المنطقة مزارا يأتى إليه المحبون ويحتفل فيها بذكراه كل عام رضي الله عنه وأرضاه.

وحقا، فلقد كانت حيات الشاذلى رضي الله عنه حياة شيخ سائح فى الأرض يجتهد بالذكر والفكر في الوصول فى طريق الله إلى رضوان الله.

ولقد كان هو والسيد البدوى والسيد إبراهيم الدسوقى أشهر أحفاد النبى ﷺ الذين يمثلون الطبقة الثانية فى عمر الزمان من الأحفاد الأطهار ولا تزال رجال الطبقات المتالية من الأشراف المباركين فلن تخلو الأرض منهم إلى يوم القيامة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[الإسراء: ٢٠].

●●●

السيدة زينب رضى الله عنها

السيدة زينب رضى الله عنها ابنة الإمام على كرم الله وجهه وأمها خير نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ.

ولدت بالمدينة المنورة فى شعبان سنة خمس للهجرة بعد الإمام الحسين بعام، وسماها جدها المصطفى ﷺ باسم خالتها بعد أن أذّن فى أذنها اليمنى وأقام الصلاة فى اليسرى ثم حملها وضمها إلى صدره فغمرها النور المحمدى وقد لقبت برئيسة الديوان والمشيرة وعقيلة بنى هاشم لأنها كان يعتد برأيها وتستشار فى الأمور كلها وخاصة لما حضرت إلى مصر حيث كان لها مجلس العلم والدرس وهذه المنح الربانية جاءتها لشدة تقواها، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقد كانت عالمة بالقرآن والسنة، ويستدل على فهمها للقرآن قولها: إن جدى المصطفى ﷺ شرع لنا حقوقا لأزواجنا، وجعل على الرجال حقوقا مفروضة لنا والقرآن يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وقد روت عن جدها ﷺ الحديث ومن روايتها: إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلى الجنة من أي أبوابها شئت.

وينسب إليها شرف وضع اللبنة الأولى لعلم علوم الحديث الشريف فى موضوع السند والرواية، فقد سمعت صحابيا يقال له سعيد بن الأشدق يقول: قال رسول الله ﷺ «الحلال بيّن والحرام بيّن..»، فقالت له أأنت سمعت جدى قال ذلك؟ قال الرجل: لا ، إنما سمعته من

النعمان بن بشير، قالت للرجل، إذن قل: قال النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ، وعلّمت الرجل حفظ الإسناد والدقة في التحمل والأداء، وكما كانت عالمة كانت ورعة.

فمن شدة ورعها وتقواها أنها لم تكن لتخرج لزيارة جدها ﷺ في قبره الشريف إلا في صحبة أبيها وأخويها الحسن والحسين.

كما كانت رضي الله عنها محبة للعلم، ولها ذوق رفيع في اللغة العربية، فقد سألت أباها الإمام علي رضي الله عنه يوما قالت: أتحبنا يا أبتاه؟ فأجابها: وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي؟ فقالت له: يا أبتاه، إن الحب لله تعالى والشفقة لنا. فهي ترى أن الحب الحقيقي يكون لله تعالى قبل كل شيء، أما الحب للأبناء فهو شفقة وإن كان يسمى حبًّا على سبيل المجاز.

ولقد كانت السيدة زينب أقرب الشبه بجدتها السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فكانت كما وصفت كأن الشمس تشرق من وجهها، نشأت في بيئة طاهرة، بل من أطهر بيئة ملأتها الأنوار المحمدية بين أم هي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وأب هو أعز الناس عند رسول الله ﷺ وأخوين هما ريحانتا رسول الله ﷺ، فأخذت عنهم الحكمة والعقل والشرف ومكارم الأخلاق، وظهر ذلك عندما هيجت القلوب بكلامها فذرفت الدموع في مجلس يزيد بن معاوية حين أتوا برأس الحسين فقامت في شجاعة تلعن الحكام الظالمين في مجلسهم وتدعو عليهم وتحذرهم من سوء المصير حين يقفون بين يدي الله وحين يشهد عليهم رسول الله ﷺ وعلى جرمهم في حق أخيها الحسين سيد شباب أهل الجنة ومن معه، ولم تكن بطلة كربلاء لأنها حملت السيف وبارزت بل لأنها لم تحن رأسها أمام الظلمة بل واجهتهم في شجاعة نادرة وثارت في وجوههم

وجسمت لهم جرمهم في حق أبناءرسول الله ﷺ ورغم أنها كانت أسيرة في أيدي هؤلاء الحكام الظلمة إلا أنها لم تفقد شيئا من شجاعتها النادرة حين قالت ليزيد بن معاوية: أتظن يا يزيد والله لتردن على رسول الله ﷺ بما تحملت من دماء ذريته وانتهكت من حرمته: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

كذلك قالت لأهل العراق عندما سار الموكب الحزين .. موكب نساء أهل البيت أسرى إلى قصر ابن زياد والي العراق من قبل يزيد بن معاوية بعد استشهاد أخيها وذرية أهل البيت معه، وقد وقف أهل العراق يبكون على جانبي الطريق قالت: «تبكون الآن يا أهل العراق؟! أتدرون أي دم سفكتم وأي نساء أبرزتم؟ لا تعجبوا إن أمطرت السماء عليكم دما».

ولما وصل الركب الحزين إلى قصر ابن زياد قال للسيدة زينب: أرأيت فعل الله بكم؟ فردت عليه قائلة: إنهم قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا من مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم يا ابن زياد.. أتظن أن ما حدث بنا هوانًا على الله؟ إنك ستلقى في ساحة القيامة ويسألك رسول الله ﷺ ماذا صنعت بعترتي وبذريتي وهم وصاياي إلى أمتي؟» فأبكت بكلماتها الملتاعة قلوب كل عدو وصديق، خاصة عندما قالت: «يا أصحاب محمد هؤلاء بنات النبي وذريته يساقون سَوْقَ السبايا، وهذا حسين مجزوز الرأس مسلوب الرداء والعمامة»، وكان في الركب الصبي المريض ابن الحسين علي زين العابدين فنام وأنشد هذه الأبيات، وقد يكون قالها غيره:

يا أمة السوء لا سقيا بربعكم ... يا أمة لم تراع أحمدَ فينا
تسيِّرونا على الأقتاب عارية ... وأنتم في فجاج الأرض تسبونا

تصفقون علينا أكفكم فرحا ... كأننا لم نشيّد فيكم دينا
أليس جدى رسول الله وليكم ... هادى البرية من سبل المضلينا
يا وقعة الطف قد أورثتنا حزنا ... والله يهتك أستار المسيئينا

ووقعة الطف هي مكان الموقعة التي استشهد فيها الحسين وذريته في كربلاء بالعراق.

وعندما سمعت السيدة زينب أصواتا عالية وهي في موكب السبايا في الطريق إلي دمشق أطلت برأسها من محملها لتنظر هذه الضجة والركب كان لا يزال في الكوفة متجها إلي دمشق إذا بها ترى مشهدا فتت كبدها ومزق شغاف قلبها، فقد رأت رأس الحسين والرمح يلعب به يمينا ويسارا فأنّتْ أنّة شديدة موجعة شخصت لها الأبصار وهي تقول:

يا هلالا لما استتم كمالا ... هاله خسفه فأبدى كسوفا
ما توهمت يا شقيق فؤادي ... كان هذا مُقدّرًا مكتوبا

فبكى بعضهم وتباكى آخرون فنظرت إليهم وقالت لهم:

يا أهل الكوفة تبكون يا أهل الختل والنفاق .. إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا فبئس ما قدمت لكم أنفسكم إنكم في العذاب خالدون، ذلك لأنهم تعهدوا بنصرة الحسين إن ذهب إليهم ثم خلفوا العهد وتركوه وحده يواجه جيش بني أمية ومعه ما لا يزيد على سبعين رجلا من أهله استشهدوا معه. لقد أجرموا في حق عترة رسول الله ﷺ الذين قتلوا عن آخرهم في سبيل الدفاع عن الحق المهضوم والعدل المهجور وكانت السيدة زينب تقول كلما فارق أحدهم الحياة بين يديها: اللهم تقبل منا هذا القليل. فلقد استحقت أن تسمى أم الشهداء، وكانت

تقول في لوعة:

ماذا تقولون إن قال الرسول لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد فرقتكم منهم أسارى ومنهم خُضِّبُوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

ولما وصل الركب إلى مجلس يزيد بن معاوية في الكوفة وسمعت كلام يزيد وقد تجرأ على أهل البيت قالت له: أفظننت يا يزيد حين أخذ علينا بأقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هوانا على الله وأن بك عليه كرامة فشمخت بأنفك جذلانًا فرحانا ونسيت قول الحق عز وجل ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ثم قالت له: إنك سترد على رسول الله برغمك وعترته في حظيرة القدس يوم يجمع الله شملنا وستعلم من بوأكم من رقاب المؤمنين يوم يكون الحكم لله والخصم محمد رسول الله ﷺ وجوارحك شاهدة عليك، فـ﴿ **بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا** ﴾[الكهف: ٥٠]، فانظر يوم ينادي المنادي ﴿ **أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾.

فشعر يزيد بالخزي والعار أمام الناس، وساد المجلس صمت رهيب، عجبا من شجاعتها النادرة وتقبيحها الشديد ليزيد الخليفة أمام الحاضرين، فأمر يزيد بأن يتوجه الركب إلى المدينة المنورة، وهناك في المدينة استقبل الناس الموكب حزين والتفوا حول بقية آل البيت والثورة مكتومة في قلوبهم، ولما خاف يزيد من التفاف الناس حول السيدة زينب وازدياد كراهيتهم له أمر بأن تغادر السيدة زينب المدينة إلى بلد آخر، فاختارت

مصر، فـفيها أحباب أبيـها الإمام على، كما أن مصـر كانت تنعم بالأمان والسلام فى الوقت الذى كانت الشام مركز الخـلافة البغيضة والعراق الذى نكث أهله بعـهدهم مع الحـسين، وأما مـصر، فكانت دار سـلام فى هذا الوقت وأهلها قـد وصى بهم جدها ﷺ، فهم أهل ذمة ورحـم. اختارت مصر ولقيت من أهلهـا الترحيب العظيم واستقبلهـا المصريون على مشارف العريش استقبالا نزع عنها كثيرا من الحزن الذى لازمها طويلا، واستقرت فى بيت الوالى مـسلمة بن مخـلد، الذى تشرف بإنزالهـا فى داره، حيث كانت رضى الله عنها تعـقد مجالس العلم، وكان المصريون يجـتمعون فى مجلس علمها ولقبوها برئيسة الديوان لحكمتها ورجاحة رأيها، وأم هاشم، وعقيلة بنى هاشم، لشرف نسبها فى بني هشام، وكانت تجيبهم على كل ما يحتاجون إليه من علوم الدين بما ورثتـه عن جدها ﷺ وعن أبيها وأخويها وعن أمها الزهراء رضى الله عنهم.

كما كـانت فقيهة عـالمة زاهدة عابدة، وقد أثر عنها الكثـير من النثر والشعر والحكمة ومن ذلك هذه الأبيات:

سـهـرت أعين ونامت عـيـون ... لأمـور تـكـون أو لا تكـون
إن ربًا كـفـاك مـا كـان بالأمس ... يكفـيك فى غـد مـا يـكون
فادرأ الهمّ ما استطعت عن النفس ... فـحـملانك الهـموم جنون

وهذه الأبيات كذلك:

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ... ولا الأمـور التى تجرى بتـقـديرى
لى خالق رازق ما شـاء يفعل بى ... أحاط بى عـلمه من قبل تـصويرى

وظلت رضى الله عنها منارة للهداية فى مصر وكعبة للمحبين يجلونها

ويجعلونها في قلوبهم رمزا للصبر والتضحية وعاشت في مصر زهاء عام حتى صعدت زوحها الطاهرة إلى بارئها سنة ٦٢ هـ الأحد لخمسة عشر يومًا مضت من رجب من العام الثاني والستين من الهجرة ودفنت بمحل سكنها حيث أقيم مسجدها المعروف الآن في حي سمي باسمها، ونقشوا على ضريحها هذه الأبيات:

هذا ضريح شقيقة القمرين   بنت الإمام شريفة الأبوين

وسليلة الزهراء بضعة أحمد   نور الوجود وسيد الثقلين

نسب كريم للفصيحة زينب   شمس الضحى وكريمة الدارين

وهذه أبيات قالها الشيخ عبد الرحمن الأجهوري الذى قال: توجهت إلى مقام السيدة زينب حين نزل بي كرب سنة سبعين ومائة بعد الألف للهجرة وأنشدت هذه الأبيات فانجلى عنى الكرب:

آل طه لكم علينا الولاء   لا سواكم بما لكم آلاء

حبكم واجب على كل شخص   حدثتنا بضمنه الأنباء

شرفت مصرنا بكم آل طه   فهنيئا لنا وحق الهناء

زينب فضلها علينا عميم   وحماها من السقام شفاء

وهي ذخرى وملجئي وأماني   ورجائي ونعم ذاك الرجاء

قد أنخت الخطوب عند حماها   فعسى تنجلي بها الضراء

من أتاها وصدره ضاق ذرعا   من عسير أو ضاق عنه الفضاء

حلت الخطب مسرعا وجلته   فانجلى عنه عسره والعناء

ومحبة في السيدة زينب رضى الله عنها تنافس الشعراء والمحبون في التعبير عن هذه المعنى فأنشأ الشيخ الصاوي شعلان ﷺ أبياتا منها:

أشقيقة السبطين حيا الله صاحبة المقام　　يا نفحة الزهراء يا أخت الإمام ابن الإمام
نهدى السلام إلى التى من جدها عرف السلام　　نهدى التحية فى البداية والتحية فى الختام

أما الشاعر المحب أحمد موسى عفيفى فله ديوان شعرى هدية للسيدة الطاهرة رضى الله عنها جاء فيه:

من زار منا السيدة ودعا هنالك سيده
مد الإله له يده يا حظه ما أسعده
يا داخلا من بابها ما دمت من أحبابها
انشد على أعتابها يا رب أكرمنا بها
من زارها متشرفا ودعا لها مستعطفا
أخذ النبى المصطفى بيمينه متلطفا
يا بنت بنت محمد وأبوك خير مهنّد
أكرم بكم من مورد من ذاق منكم يهتدى

وصدق القائل المحب يشير إلى محبة المصريين لآل البيت، فيقول:

ليثرب حق أن تتيه على الورى　　برفات خير الخلق مولانا النبى
ولمصر حق أن تتيه بدورها　　برفات مولانا الحسين وزينب

فرضى الله عن السيدة زينب وعن سائر أهل البيت فقد كانت كأول الغيث ثم انهمر كما جذبت إلى مصر بأنوارها جماعة من آل البيت الكرام يسكنون أضرحتهم ومشاهدهم تروى بزيارتهم عطش المحبين الذين يحبون العترة الطاهرة حبا فى جدهم المصطفى ﷺ ومعرفة لحقهم وطيب أخلاقهم.

إنها السيدة زينب التى استحقت أن تلقب بالصابرة المحتسبة منذ رأت فى طفولتها جدها الحبيب ﷺ وهو يلحق بالرفيق الأعلى وأمها ترتمى فى أحضان أبيها رسول الله ﷺ وتبكي أحر بكاء ثم شهدت أمها وقد لحقت بربها بعد جدها بشهور وقد كانت الزهراء تذهب مع أمها إلى قبر جدها المصطفى ﷺ وترى أمها الزهراء تمسك حفنة من التراب وتقول السلام عليك يا رسول الله .. السلام عليك يا خير الورى.. السلام عليك يا أحب خلق الله إلى الله وتخنقها الدموع فتتوف عن الكلام ثم تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا
هبت علي مصائب لو أنها هبت على الأيام صرن لياليا

وكانت رضى الله عنها توصى ابنتها زينب قومى على رعاية أخويك وأبيك وإن كنت أنت الأصغر فقد باركك جدك رسول الله ﷺ.

وقامت زينب رضي الله عنها بالمهمة خير قيام بعد أن لحقت أمها الزهراء رضى الله عنها بأبيها ﷺ حيث بشرها أنها ستكون أول لاحق به بعد موته.. وكانت السيدة زينب رضى الله عنها حين ترى أباها يقف أمام قبر أمها فيسكب العبرات ويستسلم للبكاء طويلا فتقول يا أبت ألم توصى أمي بعد وفاة جدى أن تتماسك لأن الناس تنظر إلينا معاشر آل بيت النبى فينحنى الإمام يحملها ويعود الجميع إلى البيت صابرين راضين بقضاء الله.

وكما شهدت زينب فراق جدها وأمها شهدت استشهاد أبيها فى العراق حين قتله بن ملجم أشقى الناس بسيف مسموم وهو قائم يصلى بالناس ثم تلاحقت عليها الأحزان بشهودها وفاة أخيها الحسن فى بيته فعاودها الحزن الذى لم يغادر قلبها طويلا منذ وفاة جدها وأمها ثم بلغت مأساتها فى كربلاء حيث لم يكتف القتلة الظلمة بقتل أخيها الحبيب الحسين

بل جزّوا رأسه وطافوا بها إلى أن وضعوها بين يدي يزيد بن معاوية في دمشق وقد قتلوا من معه من الرجال من آل البيت الأطهار ومنهم أبناؤها وهي تقول إنا لله وإنا إليه راجعون وكانت في هذه المحنة القاسية في خيمة ضربت لها في أرض المعركة تتلقى أبناءها الواحد بعد الآخر وهو يقضي بأنفاسه الأخيرة في حجرها وكانت تقول كل خطر يهون إلا أن يصلوا إلى بقية جدي رسول الله ﷺ أخي الحسين ولكن القتلة تكالبوا على الحسين بعد أن قتلوا ابنه عليا الأكبر وتلقى أبوه دمه على يديه وهو يقول: «قتل الله قوما قتلوك يا بني»، ولم يلبث هو حتى خر شهيدا فخرجت من خيمتها تبكي وتنتحب وتقول واثكلاه اليوم أشعر أن جدي رسول الله قد مات. اليوم أشعر أن أبي عليا قد مات اليوم أشعر أن أمي فاطمة قد ماتت وا محمداه هذا الحسين بالعراء مزمل بالدماء وذريتك مقتلة وبناتك أسارى تسفي عليها الرياح يا محمداه صلى عليك الله وملائكة السماء وقد سلمت وفوضت الأمر إلى ربها فعوضها قوما أحبوها وعاهدوها على حب آل البيت ذرية وأحفاد رسول الله ﷺ فشعرت بينهم بالأمان والمحبة . . فرضي الله عنها وأرضاها وعن سائر آل البيت الأطهار ولا حرم الله كل وفيّ لآل البيت من أن يزوروها في مشهدها المضيء بالحي المسمى باسمها في القاهرة ويترحم عليها فلق كانت بحق الشجاعة الصابرة.

●●●

السيدة فاطمة النبوية
بنت الإمام الحسين

ولدت رضى الله عنها بالمدينة المنورة عام أربعين للهجرة وشهدت مأساة كربلاء ورأت بعينيها رأس أبيها الحسين مجزوزا ومرفوعا على رمح يطاف به فى الكوفة لإرهاب الناس وتخويفهم من الخروج على نظام يزيد بن معاية وقد قام بتنفيذ هذه الجريمة البشعة التى تشمئز منها النفوس زياد بن أبيه والى يزيد علي الكوفة.

إنها فاطمة بنت الحسين الشهيد التى سيقت مع عمتها زينب فى موكب الأسرى من الكوفة إلى دمشق هذا الموكب الذى ملأ قلوب المؤمنين أسى وحزنا فهى من أكرم خلق الله من ذرية النبى ﷺ الذى وصى بهم فنالوا التكريم من أصحاب رسول الله ﷺ لمنزلتهم عند جدهم ﷺ هكذا سيقوا أسرى. إنها الطاهرة النقية السيدة النبوية بنت سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين رضي الله عنه وأخت السيدة سكينة وشقيقة سيدى علي زين العابدين وعمتها السيدة الطاهرة زينب رضى الله عنها. فهى من عقيلات بنى هاشم وواحدة من أحفاد النبى ﷺ سماها أبوها فاطمة تيمنا باسم أمه السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وقد نشأت مقتدية بأخلاق جدها صوامة قوامة كما كانت راوية للحديث الشريف فقد روى الإمام أحمد والإمام ابن ماجه أحاديثها عن أبيها عن رسول الله ﷺ ومن هذه الأحاديث «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها وإن قدم مشهدها فيحدث لها الاسترجاع إلا كتب الله له من الأجر مثل يوم أصيب» (يقول إنا لله وإنا إليه راجعون).

ولقد كانت فصيحة اللسان قوية البيان كما كانت رضى الله عنها كريمة سخية فكانت تكنى بأم اليتامى، فجمعت إليها اليتامى أبناء شهداء كربلاء الذين استشهدوا مع أبيها وكانت تطعمهم وتكسوهم وتساعدهم فى قضاء حوائجهم كما كانت تعطى بسخاء كل من يسألها ولا ترد سائلا.

وقيل أنها ولدت عام أربعين للهجرة بالمدينة المنورة وقيل بالكوفة على أرجح الآراء فى العام الذى شهد استشهاد جدها الإمام على فى الكوفة عندما اغتاله الشقى عبد الرحمن بن ملجم وتوفيت رضى الله عنها عام مائة وعشرة وبهذا تكون قد عاشت سبعين سنة وقد تزوجت من ابن عمها الحسن المثنى بن الإمام الحسن رضى الله عنهم حيث عندما أراد أن يتزوج من بنات عمه الحسين اختار له عمه فاطمة وقال له إنها أكثر شبها بجدتها السيدة فاطمة الزهراء وأنجبت منه ثلاثة ذكور أشهرهم ابنها عبد الله المحض وهو الابن البكر وله ضريح يزار فى جهة عابدين بجوار الشيخ ريحان بمدينة القاهرة.

ولقد واجهت السيدة فاطمة أحداثا عظاما في حياتها فشهدت المأساة الرهيبة فى كربلاء ثم مات زوجها بعد ذلك وتعرضت لإهانات مؤسفة فبينما كانت مع سيدات آل البيت أمام يزيد بن معاوية بعد مقتل أبيها نظر إليها رجل فظ غليظ ضخم الجثة من جند يزيد وقال ليزيد يا أمير المؤمنين هب لى هذه الجارية وأخذ يتفحصها بعينيه فاشمأزت من شكله وكلامه وارتعدت وأخذت بثوب عمتها زينب تستغيث بها من سفاهة الرجل وجرأته وبشاعته.. عندئذ صاحت السيدة زينب في الرجل قائلة كذبت يا عدو الله.. ووجهت سخطها على الرجل وعلى يزيد واحتوى المجلس سكون رهيب يكتنفه الاشمئزاز من الرجل الخسيس الذى لا يعرف حق

النساء الطاهرات أحفاد النبي ﷺ ويحاول أن يتخذ من السيدة فاطمة أمة له. وبعد وفاة زوجها الحسن المثنى بمدة تزوجت مرة ثانية وعندما توفى اشتغلت بتعليم الناس أمور الدين حتي لاقت وجه ربها راضية مرضية.. ودفنت في قبرها المعروف بالدرب الأحمر حيث المسجد المسمى باسمها وهو على يسار الذاهب إلى القلعة في داخل عطفة معروفة باسمها وقد أنشأ هذا المسجد المرحوم عباس باشا وكان قبل ذلك زاوية تعرف بضريح السيدة فاطمة النبوية رضي الله عنها.

وكان الناس يلاحظون أنها دائمة الحزن بينما كانت أختها سكينة على خلاف ذلك فكانت حين تُسأل تقول: هكذا كانت جدتى فاطمة الزهراء رضى الله عنها.

ومما روى عن كرمها أنها لما أرادت أن تكافئ النعمان بن بشير الذى قاد ركب نساء آل البيت من الشام إلى المدينة بعد مقتل أبيها الحسين على إكرامه لهن لم تجد سوى ما تتحلى به من الذهب فبعثت بحليها إليه ولكن الرجل أصر علي الرفض وقال إنما جئت بكم إلى المدينة رغبة منى فى صلة قربى رسول الله ﷺ وكان في الركب عمتها السيدة زينب وأختها السيدة سكينة وكان الرجل يسألهن عن حاجتهن وقد استوصى بهن خيرا فأرادت أن تحسن إليه كما أحسن إليهن أثناء الرحلة بأفضل ما تملكه من حلى.

كما يروى عن شجاعتها أنها واجهت يزيد بن معاوية وسط رجاله عقب استشهاد أبيها حين دخلت عليه مع موكب الأسرى من سيدات آل البيت فقالت له: يا يزيد أبنات رسول الله أسيرات هكذا؟

فقال لها: بل حرائر كرام، لما رأى من هيبتها وشجاعتها وبلاغتها.

غيـر أنه لما ولي عمـر بن عبد العـزيز الخلافة أعـاد إلى الهاشـميين حقوقـهم التي كانت نعطى لهم في عهد الخلفـاء الراشدين ثم توقفت في عهد خلفـاء بني أمية فكتبت السيدة فـاطمة إلى عمر بن عبد العـزيز كتابا تشكره وجاء فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله عـمر بن عبد العـزيز أمير المؤمنين من فاطمـة بنت الحسين سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد..:

فأصلح الله أمـير المؤمنين وأعانه على ما ولاه وعـصم له دينه.. فإن أميـر المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقـسم فينا مالاً ويتـحرى في ذلك ما كان يصنع من كـان قبله من الأئمة الراشدين المهـديين. فقد بلغنا ذلك وتم فينا فوصل الله أمـير المؤمنين وجزاه من وال خير مـا جزى أحدا من الولاة، فقـد كانت أصـابتنا جفوة واحـتجنا إلى أن يعـمل فينا الولاة بالحق فـأقسم لك بالله يا أمـير المؤمنين لقـد أعطى خادما لمـن كان من آل رسول الله ﷺ من لا خـادم له وكسا من كـان عاريا واسـتنفق من كان لا يجد ما يستنفق).

فلما تلقى عـمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتـابها كتب إليهـا يذكر فضلهـا وفضل أهل البيت وذكر ما أوجـبه الله لهم من الحق وبعث إليها بخمـسمائة دينار وقال لها: استعيني بها على حاجتك.

لقد كانت رضي الله عنها صوامة قـوامة كريمة الأخلاق كـما كانت عاقلة لبيبة.

وذكر أنه كـان لها حبل مـعقود بخـيوط تسبح الله به، وكـانت تكبر أختها سكينة وقد شهدتا كربلاء مع أبيهما الحسين ﷺ فرثت أباها بهذه الأبيات التي نسبت إليها:

نعـق الغــراب فــقلت من تنعـــاه ويحك يا غـــراب؟

قـــال الإمـــام فـــقلت من؟ قـــال الموفـق للصــــواب

قلـت الحسين؟ فـــقـــال لي بمقـــال مــحـــزون أجـــاب

إن الحـــــسين بكـربـلاء بـين الأسـنـة والحـــــراب

أبكـى الحـــسين بعـــبـــرة تـرضي الإلـه مـع الثــــواب

ثم اســـتــــقـل به الجناح فـلـم يطق رد الجــــواب

فــــبكـيـت مما حـل بـى بعـــد الرضى المســتـجـاب

وقيل أنهـا دفنت بعد موتها في قــبر في الشام ومكتوب على قـبرها (هذا قبر فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها)

غير أن الشبلنجي قال في نور الأبصار: إن للإمام الحسين بنتين فاطمة الصغـرى وفاطمة الكبـرى وليس هناك ما يمنع من أن تكون إحـداهما هي المدفـونة بالقاهرة في المكان المـعروف باسـمهـا في الدرب الأحمـر بمدينة القاهرة، وهذا القـبر يقصده كـثيرون للزيارة والدعـاء لها ورضى الله عن السيدة فاطمة النبوية بنت الإمام الحسين حفيدة رسول الله ﷺ.

●●●

السيدة سكينة

بنت الإمام الحسين

هى السيدة سكينة بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما التى عاشت حياتها كما صورها كتاب السيرة أنها كانت خالية البال معنية بأناقتها تقول الشعر الذى يهز القلوب ويثير العواطف النبيلة كما كان يغلب عليها فى نفس الوقت الاستغراق مع الله تعالى، وقد وصفها أبوها الإمام الحسين رضى الله عنه أنها كانت مثلا للتقوى والورع فقد عاشت عهدين مختلفين كان الفاصل بينهما استشهاد أبيها الحسين فى كربلاء، الذى كان يأنس إليها ويحب مجلسها منذ كانت طفلة قبل أن تترك المذبحة الرهيبة فى كربلاء الأثر الحاسم فى حياتها لذلك جمعت بين التقوى والتعبد وبين المرح والدعابة.

إنها سكينة بنت الشهيد الحسين بن الشهيد على التى قالت لمن جاءوا يعزونها فى وفاة أبيها من أهل الكوفة: الله يعلم أنى أبغضكم قتلتم جدى عليا وقتلتم أبى الحسين وزوجى مصعب بن الزبير فبأى وجه تلقوننى؟ أيتمتمونى صغيرة، وأرملتمونى كبيرة وما ارتاح فؤادها إلا بعد أن رحلت مع عمتها زينب إلى مصر بعد ذلك.

وعاشت فى مصر بين أهل وأحباب، مكرمة محبوبة فقد أحبوا جدها وأباها وعمتها السيدة زينب رضى الله عنهم، فعوضوها بحبهم عمّا لاقته من أحزان وأشجان منذ شهدت مقتل أبيها فى كربلاء وزوجها بعد ذلك وأقرباءها الذين استشهدوا معه فى كربلاء من الذرية الطاهرة.

وعلى الرغم من ظهورها فى المجتمع الأدبى حيث كانت شاعرة بليغة وأديبة متفوقة على نحو لم يؤلف كثيرا فى ذلك الوقت لدى قريناتها، فقد ظلت لا تنسى أنها حفيدة النبى ﷺ ولم ينس الناس لحظة أنها سكينة بنت الإمام الحسين، العابدة الورعة الخاشعة.

فقد اشتهرت بأنها أديبة ناقـدة إلى جانب أنها عابدة خاشعة وقد أثر عنها الشعر الذى رثت به أبـاها الحسين رضي الله عنه تدعو على أتباع يزيد بن معاوية قتلة الحسين ومنه هذه الأبيات:

يا عين فاحتفلى طول الحيـاة دما لا تبك أهلا ولا ولدا ولا رفـقـة
لكن على ابن رسول الله فانسكبى دمـا وقيْحـا وفى إثريهـما العلقـة

وفى رثاء زوجها مصعب بن الزبير أنشدت شعرا، ومنه:

فـإن تقـتلوه تقـتلوا الماجـد الذى يرى الموت إلا بالسـيـوف حـرابا
وقـبلك مـا خاض الحـسين منيـة إلى القـوم حـتى أوردوه حِمـامـا

وقد كان لها ذوق وحس بقدر ما حباها الله من شرف المنسب وجمال الخلقة . وكـان أمراء الشعر يجتـمعون فى دارها فتـأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها وكانوا يحكّمونـها في قضايا الشعر اقتناعـا برأيها وعقلها وبصرها وكـان لها الاحتكام إذا اشتـجر الخلاف بين الشعـراء. فرضى الله عنها وأرضاها.

ويقع المسجد المسمى باسمها قريبـا من مسجد السـيدة نفيسة رضى الله عنها ويكاد المؤرخون أن يتفقوا على أنها بعد أن حـضرت مع عمتها السـيدة زينب إلى مصـر عادت إلى المدينة وتوفـيت بها ودفنت بالبـقيع رضى الله عنها.

وقيل إن سبب اهتمامها بالشعر والأدب أنها شهدت بعينيها الأحداث الدامية في كربلاء ورأت مصارع إخوتها عبد الله وعلى الأكبر مع أبيها الحسين فانطبع هذا المشهد في وجدانها ولم تستطع أن تنساه فحاولت أن تتصبر عليه بالشعر والأدب.

وقد دافعت عنها الدكتورة بنت الشاطئ حين قيل أنها كانت مزاحة مجالس الشعراء والمغنين، فقالت إنها كانت في شغل عن ذلك بمصرع والدها وإخوتها وذويها في كربلاء ولقد كان لأبيها الحسين خصوم حاولوا التنقيص من قدرها وكذلك كان الحجاز في هذا الوقت بعد مقتل أبيها ممتلئًا بموجات الحزن التى أعقبت مقتل أبيها ثم إن سكينة قد ترملت بعد ذلك بموت زوجها مصعب بن الزبير وليس من المستساغ أن سيدة مثل سكينة مرت بتلك الفواجع التى اعتصرت قلبها أن تشارك مجالس الغناء ولكنها كانت تتصدى لمن يحاول الانتقاص من قدر آل البيت فتفحمه ببلاغتها شعرا ونثرا وتلك كانت شجاعة أدبية نادرة .

وكانت رضى الله عنها حافظة لكثير من الشعر وتنسبه إلى قائله وتنقد الشعر ويؤخذ بنقدها فقد كان أمراء الشعر يجتمعون في دارها وكانت قد اتخذت وصيفة لها تنقل إليها ما يقولون فلم تكن تجلس مجلسهم وإنما كانت تسمع فقط أو تراهم وهم لا يرونها.

وفى وفاتها رضى الله عنها قيل أنها توفيت بالمدينة المنورة سنة سبع عشرة ومائة رضى الله عنها ودفنت في البقيع

كما قيل في وفاتها وأنها دفنت في مصر بالقرب من قبر السيدة نفيسة رضى الله عنهما.

غير أن الإمام السخاوى فى كتابه تحفة الأحباب صحح هذا الكلام فقال إن السيدة سكينة التى بمصر هى سكينة بنت الإمام على زين العابدين بن الحسين وهى أقدم وفاة من السيدة نفيسة وكانت قد حضرت إلى مصر مع جماعة من أهل البيت الذين حضروا مع السيدة زينب رضى الله عنها وسميت باسم عمتها سكينة الكبرى رضى الله عنهم جميعا.

لقد كانت السيدة سكينة مشهورة بالجمال والأدب منذ صغرها ولم تكن قد تزوجت عندما اشتعلت معركة كربلاء وبعدها ظلت حزينة مستغرقة فى العبادة ثم تقدم مصعب بن الزبير فتزوجها وكان ينافسه فى سبيل الزواج بها أخوه عروة بن الزبير وعبد الله بن عمر، وكانت تعيش قبل الزواج مع أخيها على زين العابدين السجاد حيث ظلت فترة عازفة عن الزواج بعد مصرع أبيها ووفاة أمها بعد ذلك بقليل ولكن قومها ألحوا عليها لتستبقى الذرية الطيبة فقبلت عندما تقدم إليها مصعب بن الزبير وأمهرها بألف ألف درهم غير أنها قد تجددت أحزانها بوفاة زوجها مصعب فى صراعه مع عبد الملك بن مروان وكانت قد أنجبت منه فتاة جميلة هى الرباب سمتها باسم أمها الرباب بنت امرئ القيس الشاعر المعروف. ثم مكثت سكينة فترة تعانى من الحزن والألم ومرارة الذكريات وقيل إن والى مصر الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان تقدم لخطبتها ولكن أبوه خيره بين الزواج منها أو ترك ولاية مصر فلم يتم الزواج منها فحمدت سكينة الله تعالى. على ذلك.

وتزوجت بعد ذلك من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام وأنجبت منه عدة أولاد.

ومن يقرأ كتاب الأغانى وكتب الأدب يجد شخصية السيدنا سكينة بارزة كشخصية أدبية وشاعرة وناقدة فى زمانها

وقد روى فى ذلك أن سكينة شهدت يوما مأتما فيه بنت لسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه فقالت بنت عثمان على سبيل التفاخر وهي توجه الكلام إلى سكينة: أنا بنت عثمان بن عفان أمير المؤمنين، فسكتت سكينة إلى أن أذّن المؤذن فنظرت إلى بنت عثمان حين قال المؤذن وأشهد أن محمدا رسول الله، قالت سكينة أهذا أبى أم أبوك؟ فسكتت الأخرى، ثم قالت لا أفخر عليكم أبدا كما روى عنها أنها كانت سيدة نساء عصرها. فرضى الله عنها.

●●●

السـيدة عائشـة
بنت جعفر الصادق رضى الله عنهما

صاحبة المشهد الملحق بمسجدها المعروف فى الميدان المسمى باسمها ميدان السيدة عائشة فى طريق مسجد الإمام الشافعى بميدان القلعة وقريبا من مسجد السيدة نفيسة بنت حسن الأنور رضى الله عنهم بمدينة القاهرة.

والدها الإمام المشهود له بالعلم الفياض سيدى جعفر الصادق أحد الأئمة الإثنى عشرية والسيدة عائشة أخت يحيى المؤتمن زوج السيدة نفيسة وأمير المدينة المنورة وهى أيضا أخت الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق، وقد حضرت إلى مصر من المدينةالمنورة مع إدريس بن عبد الله بعد موقعة (فخ) التى استشهد فيها جماعة من أهل البيت. وأقامت بمصر تنشر العلم بين أهلها إلى أن توفيت بها سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة رضى الله عنها، كانت عابدة عالمة صابرة مجاهدة، وعاشت حياتها بدون زواج، فكانت متفرغة لنشر العلم وإن كانت مشاركتها فى الحياة بصفة عامة بعد ذلك محدودة غير أن هناك من قال إنها تزوجت واحدا من أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكانت كثيرة المناجاة تناجى ربها بما أثر عنها فى ذلك:

«وعزتك وجلالك لئن أدخلتنى النار لآخذن توحيدى بيدى فأطوف به على أهل النار وأقول وحّدته فعذبنى».

كانت عابدة عبادة المحبين الذين امتلأت قلوبهم شوقا إلى ربهم وطمعا فى رحمته وظنا حسنا فى جنته مع خوف شديد وحذر عظيم من النار. لقد ورثت العلم الشريف من أبيها الإمام جعفر الصادق أحد أعمدة

آل البيت أحفاد النبي ﷺ الذين ملأت علومهم الآفاق وكانت في عبادتها وتقربها إلى ربها متمثلة هذا الحديث القدسي:

«أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ما تحركت بي شفتاه».

وكانت تحدث جلساءها فتقول لهم: ما بال أقوام يقولون: نحن نحسن الظن بالله ولا يعملون أما والله لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل فطلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب يستحق التوبة» لقد وصفت بأنها رضي الله عنها كانت جادة صامتة تقية وقد يكون السبب راجع إلى ما تعرض له معظم آل البيت أحفاد النبي ﷺ من ظلم واضطهاد رغم أنهم لا ذنب لهم إلا تعلق الناس بهم وميلهم إليهم لصلاحهم وتقواهم إلى جانب شرف الانتساب إلى جدهم ﷺ.

وظلت السيدة عائشة عابدة تقية ورعة عالمة إلى أن لقيت وجه ربها في سكون الزاهدين وصمت الأتقياء الورعين الخاشعين وهي أكثر رجاء في الله وأكثر طلبا لجنته ونعيمه المقيم وكانت تتمثل الحكمة التي تلقتها من جدها علي زين العابدين السجاد وهو متعلق بأستار الكعبة ويناجي ربه في الظلام:

ألا يا رجائي إن تكشف كربتي فما في الورى عبد جنى كجنايتي

أتيت بأعمال قباح رديئة فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك أين محبتي

ثم خر مغشيا عليه.. وكان الناس يسمعون منها مثل هذه الحِكَم التي شكلت شخصيتها فقد تلقتها من أبيها وجدها الإمام علي كرم الله وجهه الذي تلقاها من فم رسول الله ﷺ فنشأت في هذا الجو الإيماني ورعة

صالحة خاشعة ولا سيما أنها عاشت مع أخيها الإمام موسى الكاظم الذى لقب بالكاظم لكثرة كظمه غيظه أمام الملمات والمحن التى تعرض لها ليفوز بأجر الصابرين الكاظمين الغيظ فى جنات النعيم، فأخذت عنه كذلك معايشة العلم والتقوى والورع والصبر والخشية والخضوع لله تعالى.

وهكذا جمعت السيدة عائشة أسباب التقوى والورع والصدق والإخلاص وفوق كل هذا حب الله حبا آثرت به ربها عما سواه طلبا لرضاه فكانت شخصيتها شخصية صوفية عابدة ولهذا أحبها الناس والتفوا حولها وأخذوا عنها العلم النافع. لقد كانت مصباح هداية لجلسائها ولا يزال الناس يقصدون مسجدها ويزورونها فى مشهدها فى الحى المسمى باسمها فى مدينة القاهرة لاعتقادهم فى فضلها وعلمها وهديها وأنها مستجابة الدعوة وصاحبة كرامات.

ويؤكد أحمد زكى باشا مبارك أنها رضى الله عنها دفنت فى مشهدها الحالى بالقاهرة ويؤيده فى رأيه الشيخ محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية وغيره من العلماء حيث قد قيل إن مشهدها واحد من مشاهد الرؤيا أى التى لم يدفن فيه صاحبه ولكنه سمى باسمه فقط وبنى على أثر رؤيا منامية يفهم منها أن يقام مشهد باسم أحد الصالحين، وهو ما يسمى بمشهد رؤيا.

وقد نُقِشَ على باب قبة المسجد المعروف بمسجد السيدة عائشة، هذا البيت من الشعر:

لعائشة نور مضيء وبهجة وقبتها فيها الدعا مستجاب

والمسجد الحالي يعتبر تحفة معمارية جميلة بعد أن امتدت إليه يد التعمير والإصلاح حيث يقصدها الزوار من كل مكان التماسا للبركة

والدعـاء لهـا وصـدق الله العظيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

لقد عـاشت رضى الله عنها خـاشعة عـابدة وماتت راضـية مرضـية صالحة محاطة بقلوب المحبين الذين واصلوا حبل المودة ولا يزالون حيث قبرها يقـصد ويزار هذا وإن لم يصح أن تكون هى المدفونة فى قـبرها فالله سبـحانه وتعالى يعامل الزائر بنـيته وليس هناك ما يمنع من وصـول الدعاء للمزور مهما بعدت المسافات وخاصـة أن المكان مجرب فيه استجابة الدعاء بالتـواتر وليس هناك حـدود تحـول دون تواصل الأرواح، فـرضى الله عن السيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق وإحدى حفيدات النبى ﷺ.

●●●

السيدة رقيـــــــة رضى الله عنها

يقع مشـهدها بين مشهـد السيدة نفـيسة والسيـدة سكينة بنت الإمام الحسين رضى الله عنهن فى حى الخليفة بمدينة القاهرة ومـشهد السيدة رقية فى مكان يعرف ببقيع مصر الصغير [١] لأن المشهد يضم عددا من قبور آل البيت رجالا ونساء نذكرهم إن شاء الله.

والسيـدة رقية صـاحبة الضـريح قيل إنها بنت الإمـام على كرم الله وجهه من السيدة فاطمة الزهراء فهى أخت الحسن والحسين والسيدة زينب، وقيل إنها بنت الإمام على كرم الله وجهه من أسماء بنت عميس رضى الله عنها، وقيل بنت الإمـام على من أم حبيبة التغلبـية كذلك، وأقرب الآراء إلى الصـحة أنهـا بنت الإمـام على الرضا بن مـوسى الكاظم بن جـعفـر الصادق من أحفاد الإمام على رضى الله عنهم لوجود بيت من الشعر على ضريحها يقول:

بقـــعـــة شـــرفت بآل النبى   وببنت الـرضـــا عـلىّ رقـــيّة

ويرى البعض أنهـا جاءت إلى مصر مـع أختها السـيدة زينب مع أن غيرهم لا يرى ذلك، ويترتب على كل هذا أنها إن كانت بنت الإمام على فيكون مـولدها فى الربع الأول من القـرن الأول الهجرى وإن كـانت بنت الإمـام على الرضـا فـيكون مـولدها فى النصف الأول من القـرن الثـانى الهجرى غيـر أن الجميع متفقون على أنها واحـدة من الحفيدات الطاهرات حفـيدات النبى ﷺ وهـى من آل بيت النبوة سـواء كانت السـيدة فـاطمة الزهراء أمها أو جـدتها فهى من حفيـدات آل البيت الطاهرات ومن سلالة

---

(١) آل بيت النبى فى مصر أحمد أبو كف.

الإمام علي بن أبي طالب.

ومن ثم فتكون السيدة عائشة الساكنة ضريحها بالقرب منها عمتها طبقا للرأى الغالب أنها بنت الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم رضى الله عنهم.

كما أن السيدة نفيسة الساكنة ضريحها الأنور بالقرب من المكان تعتبر زوجة عم السيدة رقية بنت علي الرضا وقد روى عن كراماتها أنها وهى قادمة إلي مصر من المدينة المنورة اعترضها شخص من خصوم أبيها وأراد قتلها فتوجهت إلى الله مستجيرة وداعية بالنجاة فوقفت يد هذا الرجل فى الهواء حين هم بضربها ثم سقط ميتا.

وروى أن أول من بنى مشهدا على قبرها الذى دفنت فيه هو الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله فى أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجرى وينسب البناء الحالى للأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ثلاث وسبعين ومائة وهذا المشهد يزار بشارع الخليفة ويقصده المحبون خاصة لأن المكان يضم مجموعة مشاهد لآل البيت وهى:

مشهد السيد محمد المرتضى إلى يمين الداخل لمشهد السيدة رقية وبجواره قبر زوجته السيدة زبيدة ويقابله مشهد على يسار الداخل هو مشهد السيدة أسماء ويرى البعض أنها السيدة أسماء زوجة الإمام على وأم السيدة رقية ويرى آخرون أنها السيدة أسماء التى كانت تخدم السيدة رقية وليست أمها.

والسيد محمد المرتضى صاحب المشهد المذكور هو الفقيه المحدث اللغوى النحوى الأصولى الناظم الناثر أبو الفيض السيد محمد بن محمد

بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسينى كما عرفه الجبرتى.. جاء إلى مصر من اليمن ودرس فى مصر حتى صار من أشهر علمائها فى زمنه سنة سبع وستين ومائة وألف وهذا تاريخ قدومه إلى مصر، وهو المعروف بالشيخ مرتضى الحسينى وقد ذاعت شهرته في المغرب كذلك وأصله من زبيدة باليمن. وعندما توفيت زوجته السيدة زبيدة دفنها بجوار قبر السيدة رقية، وكان يلازم قبر زوجته كثيرا ويجمع به الناس فى مجلس علمه فى نفس المكان حيث يقدم للناس الطعام ترحما على زوجته التى توفيت سنة ست وتسعين ومائة وألف ولما توفي رضي الله عنه دفن فى هذا المكان بجوار قبر زوجته بجوار مشهد السيدة رقية رضى الله عنهم وقد ترك عدة مؤلفات ذاعت شهرتها فى العالم الإسلامى ذكرها على باشا مبارك أخذا عن الشيخ الجبرتى ولا تحصر هنا لكثرتها.

وفى نفس المكان يوجد مشهد السيدة عاتكة زوجة محمد بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه وكان من أتباع الإمام على رحل إلى مصر بعد التحكيم بين على ومعاوية وبعد مقتل على كرم الله وجهه وأقام بها وله مواقف ضد الأمويين كما يوجد ضريح آخر لسيدى على الجعفرى الصوفى الجليل التقى الورع وقيل إنه من ذرية الإمام جعفر الصادق.

وهذه الأضرحة تزار فى شارع الخليفة ما بين مشهد السيدة سكينة والسيدة نفيسة رضى الله عنهم جميعا.

ومن المرجح أن رأس محمد بن أبى بكر زوجها مدفون بمصر القديمة بشارع باب الوداع مع أنه تنسب إليه عدة مشاهد أخرى يحتمل أنه قد تنقل فيها حتى يتم إخفاء الرأس عن خصومه وبهذه المناسبة فقد شرفت مصر بثلاثة رءوس من الرءوس الشريفة ودفنت فى ثراها وهى رأس الإمام زيد

بن على زين العابدين بن الحسين وإليه ينسب المذهب الزيدى بعد أن مثل بجثته والرأس مدفونة بالمشهد المسمى باسم أبيه لدى العامة والمعروف بمشهد زين العابدين بمصر القديمة وخلف مشهد السيدة زينب إلى الجنوب قريبا من مشهدها.

وكذلك رأس سيدى إبراهيم الجواد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام على والذى قتله المنصور الخليفة العباسى سنة خمس وأربعين ومائة وأمر بأن يطاف برأسه لتخويف وإرهاب الناس حتى استقرت الرأس بمصر بالمسجد المشهور بمسجد الجميزة أو مسجد التبر بالمطرية ومشهده يزار التماسا للبركة ومحبة فى أحفاد النبى ﷺ.

ومعروف أن الرأس الشريفة رأس الإمام الحسين هى أول ما شرفت مصر باستقبالها وبنيت لها المسجد الحالى المشهور فى العالم أجمع بالمشهد الحسينى بالقاهرة.

وقد بنيت مساجد لهذا الرأس الشريفة فى عسقلان وفى سوريا تبركا بالأماكن التى طيفت بها الرأس الشريفة حيث حفظت بها رأس الحسين.فترة عندما أنزلوها فى هذه الأماكن أثناء الطواف بها إلى أن استقبلتها مصر حين أحضرها من عسقلان الوزير الفاطمى الصالح طلائع الوزير الفاطمى مقابل مبلغ كبير من المال لتحفظ بمصر تشريفا وتكريما وحفظا لها لكرامتها.

وينبغى أن ننوه إلى أنه من المؤكد أن السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ دفنت فى البقيع بالمدينة ورقية بنت زيد الأبلج بن الحسين مدفونة فى المدينة كذلك بالقرب من قبر جدتها بنت رسول الله ﷺ ، وهذا القبر الذى نتحدث عنه بشارع الخليفة هو قبر السيدة رقية بنت الإمام على الرضا رضى الله عنهم جميعا.

السيدة نفيسة

بنت السيد حسن الأنور رضى الله عنهما

من أشهر الحفيدات النبويات الطاهرات فى مصر السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور الساكن ضريحه بمصر القديمة، جدها الإمام الحسن بن الإمام على كرم الله وجهه عاشت فى مصر وتوفيت فى بيتها الذى هو مسجدها المعروف والمسمى باسمها وكان أحب شيء إليها أن تنشر ما ورثته عن جدها من العلم فكان يرجع إليها العلماء فى مصر فى المعضلات ويشدون إليها الرحال من سائر البلاد فقد جمعت إلى حفظ القرآن الكريم وهي فى السابعة من عمرها ميراث النبوة من عطاء الله لأوليائه. . ولقد فاق حبها للعلم نساء عصرها وعرف ذلك عنها فكانت مقصد طلاب العلم من مختلف بلاد المسلمين فى مواسم الحج وهى فى مكة والمدينة قبل قدومها إلى مصر. فلقد صاغها الله تعالى من معدن كريم وأنبتها نباتا حسنا وكانت هينة لينة كريمة الأخلاق عفيفة طاهرة سخية ولها المنزلة العالية فى قلوب المصريين خاصة لشدة عطفها وحبها الخير لهم، لذلك كان مجلسها روضة من رياض الجنة، كما كانت دارها مهوى العلماء وأحباب آل البيت ولا يزال مسجدها كذلك.

روى أن أباها سيدى حسن الأنور كان يأخذ بيدها فى طفولتها ويدخلها معه الحجرة النبوية ويقول يا سيدى يا رسول الله أنا راض عن ابنتى نفيسة هذه واستمر على ذلك حتى رأى النبى ﷺ فى المنام يقول له يا حسن إننى راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها.

وتحكي عنها ابنة أخيها التي كانت تقوم على خدمتها فتقول: خدمت عمتي نفيسة أربعين سنة ما رأيتها نامت الليل كله ولا فطرت النهار إلا قليلا. ولما قلت لها ألا ترفقين بنفسك؟ قالت وكيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعها إلا المجاهدون وأهل العزائم.

فهي من الذرية الطاهرة الذين لم يتركوا آية من كتاب الله ولا حكما من الأحكام إلا بينوه للناس فنالوا من الله تعالى الفضل العظيم، لذلك وجبت على المسلمين محبتهم ومودتهم قال تعالي ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وجعل الصلاة عليهم بعد الصلاة علي جدهم في التشهد الذي يقرؤه المصلون في أنحاء الدنيا كل يوم وهو بمثابة الدعاء لهم على طول الأزمان مكافأة لما بذلوا من جهد في سبيل أداء واجب الدعوة إلى الله والدفاع عن دينه وتحبيب الناس في رسوله ﷺ بالقول والعلم والحال، وهذه مهمة الصالحين والذين شرفهم الله بالانتساب إلى خير خلقه ﷺ.

إنها نفيسة العلوم التي كان الإمام الشافعي كثير التردد على دارها يسألها الدعاء له بالشفاء ثقة في دينها وقد قرأ عليها الحديث واستمع إلى حديثها وصلى معها التراويح في رمضان وعند وفاته أرسل إليها لتدعو له كعادتها فقالت لرسوله: «أحسن الله لقاءه ومتعه بالنظر إلى وجهه الكريم»، فحين سمع هذا الدعاء أيقن أنه مرض الموت وأوصى أن تصلي عليه، ولذلك حين مر نعشه ببيتها أمر والي مصر أن يصلي عليه في دارها فصلت عليه مأمومة بأحد أصحابه رضي الله عنهم جميعا حسب وصيته.

وقد ترحمت عليه وقالت: رحم الله الشافعي كان رجلا يحسن الوضوء، وكان الناس يزورونها ويلتمسون منها الدعاء والبركة، فقد كان دعاؤها مجرب الإجابة عنده.

كما كان مجلس علمها حافلا بكبار الفقهاء والعلماء ينتفعون بعلمها وببركاتها وقد أثر عنها إلى جانب علمها وبلاغتها رأيها الصائب فعندما شكا إليها عدد من المصريين أميرهم الظالم المستبد متظلمين من استبداده بهم واستخفافه بدعائهم عليه فاستغاثوا بها لأنها صاحبة الكلمة المسموعة فوعدتهم خيرا وقامت وكتبت إلى هذا الوالي رسالة جاء فيها:

(بسم الله الرحمن الرحيم

من أمة الله نفيسة بنت الحسن الأنور إلى أمير مصر الخصيب بن عمرو سلام الله عليك وبعد..

فإن من حق الحاكم على الرعية أن تقومه إذا اعوج عن الحق، وأن ترشده إذا غفل عن الصواب، وقد ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم وخلوتم ففجرتم وردت إليك الأرزاق فنعمتم ولم تعلموا أن سهام الليل نافذة لا سيما من قلوب أوغرتموها تشير إلى هذين البيتين:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... ومار يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطى ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء

ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم فاعملوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستغيثون، واظلموا فإنا إلى الله متظلمون ﴿وسيعلم الَّذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

إنها بلاغة علوية عملت عمل السحر فى القلوب فما أن وصلت الرسالة إلى الوالي وقرأها حتى وقع فى قلبه الخوف من الله فرجع عن ظلمه وعدل في حكمه.

وكم للسيدة نفيسة من كرامات أشار إليها الشعراء فقال أحدهم:

وحبا الإله نفيسة بكرامة	خصت بها من قبل ذلك مريم
فيضٌ من الله الغني ونفحة	فتبارك الله الكريم المنعم
والله يرزق من يشاء بفضله	والله يرفع من يحب ويكرم

ولما ذكر الإمام الشافعي أمامها قالت مترحمةعليه.. كان الإمام الشافعي صبورا بكل ما للصبر من معنى، يتلقى الشدائد بقلب ثابت، وكان يسعى هادئا ليزيل كل ما ألمّ به من ألم ومرض معتمدا على الله حق الاعتماد، ومتوكلا عليه حق التوكل، شاكرا ربه على ما ابتلى به ضارعا أن يكشف عنه الضر مستبشرا بأجر عند الله على ما تحمل من آلام فكان يظل دون ضجر حتى يزيل الله عنه ما ألم به ويصلى لله شاكرا فهو عند الابتلاء صابر وعند دفع-الضرر من الشاكرين».

إنها السيدة نفيسة التى أحبها أهل مصر من قبل أن يستقبلوها فى بلدهم كما أحبوا السيدة زينب رضى الله عنهما ويدل علي ذلك أنه لما سمع أهل مصر بقدوم السيدة نفيسة استقبلوها بالهوادج من العريش فرحا بمقدمها الميمون فهى بعض من رسول الله ﷺ ولقد جربوا ما تحقق على يديها من كرامات فبلغ حبهم لها شأنا لا مثيل له وذلك لثقتهم فى طهرها وعلو قدرها فقد حضرت إلى مصر سنة ثلاث وتسعين ومائة فى شهر رمضان وتوفيت فى مصر ودفنت فى قبرها بمسجدها بحى السيدة نفيسة

بالقاهرة سنة مائتين وثمان للهجرة في شهر رمضان، وهي صائمة رضي الله عنها.

ومما نقلته عن كراماتها كتب الثقات أنه كان لها جارة يهودية وكان لها ابنة كسيحة وقد حاولت أمها علاجها كثيرا لكن الطفلة ظلت مريضة لا تستطيع أن تقف على قدميها وشاء الله أن تخرج الجارة وزوجها في أمر من الأمور ولم يجدوا إلا أن يتركوا الطفلة عند السيدة نفيسة لما عرفوا عن بركاتها وأمانتها فرحبت السيدة نفيسة وأجلست الطفلة في مكان قريب منها ولما جاء وقت الصلاة قامت السيدة نفيسة فتوضأت من إناء ثم قامت تصلي ونظرت الطفلة إلى إناء الوضوء فزحفت إليه وشربت من فضل وضوء السيدة نفيسة ثم أخذت تعبث بالماء فبلت جسدها ولما انتهت السيدة نفيسة من صلاتها رأت الطفلة واقفة علي قدميها كأنها لم تكن مقعدة فتعجبت وخرت ساجدة لله تعالى على شفاء الطفلة في منزلها.

ولما عادت أسرة الطفلة راعهم ما رأوا فأسكنت دهشتهم السيدة نفيسة بقولها إن الله على كل شيء قدير يفعل ما يشاء واعتقدوا أن ما فعله الله بالطفلة إنما كان ببركة السيدة نفيسة فأعلنوا إسلامهم وجعلوا يقبلون يديها اعترافا ببركاتها وكرامتها عند الله.

ولما ذاع خبر إسلام هذه الأسرة اليهودية أسلم عدد من اليهود وظلت المرأة وزوجها في خدمة السيدة نفيسة اعترافا بفضلها وببركتها.

هذه هي السيدة نفيسة التي امتلأت قلوب الناس بحبها وشاع في الأرض علمها وفقهها وانتشرت بركاتها وكراماتها وعمت خيراتها وبرها فعرفت بصاحبة الكرامات والكلمات المأثورات والذكر الحسن ولم لا وهي

من نبع النبوة الصافى ومعدن الرسالة المحمدية الخالدة. ورحم الله الإمام الشافعي الذى عرف قدر السيدة نفيسة ومنزلتها وأحب آل البيت فهو أحدهم قال:

آل النبى قبلتى وهمو إليه وسيلتى
أرجو بأن أعطى غدا بيدى اليمين صحيفتى

ومن كرامات السيدة نفيسة ما نقلته كتب الثقات أن امرأة عجوزا كان لها أربع بنات يتيمات وكن يعملن في غزل الصوف وبيعه فذلك قوتهن ولبسهن وبينما الأم تحمل الغزل من الصوف الأحمر إلى السوق لبيعه هبط طائر علي رأسها فاختطف الصوف وطار به فوقفت المرأة مذهولة تبكى وتقول ماذا أفعل الآن بأيتام لا قوت لهم إلا من هذا الغزل فلا عائل لهم ولا كاسب إلا هذا الغزل فأرشدها بعض الناس إلى السيدة نفيسة لتذهب إليها وتسألها الدعاء بالفرج فجعلت السيدة نفيسة تدعو الله لها بكشف الغم وتفريج الكرب ومما قالته « يامن علا فقهر وملك فقدر أجبر من أمتك هذه وبناتها ما انكسر فإنهن خلقك وعيالك. وقعدت الأم وفي قلبها من الهم والحزن الكثير وبينما هي جالسة عند السيدة نفيسة إذ أقبل رجال من التجار يخبرون السيدة نفيسة بأن سفينتهم لما كانت على مقربة من الساحل انكسر لوح من الخشب فجعل الماء يتسرب إلى السفينة فكادت تغرق بهم فقاموا يحاولون سد الثقب الذى يتسرب منه الماء ولم يفلحوا فقاموا يدعون الله تعالى ويستغيثون ويتوسلون بالسيدة نفيسة إلى الله بأن ينجيهم من الغرق وبينما هم كذلك إذ اقترب من رؤوسهم طائر كبير وألقى إليهم بخرقة حمراء من الصوف فيها غزل فوضعوه في المكان الذى يخافون تسرب المياه منه فانسد وانقطع الماد فعرفوا أن هذا كان ببركة السيدة نفيسة

وجاءوا بخمسمائة درهم من الفضة شكرا لله وبشرى بقبول التوسل إلى الله ببركات السيدة نفيسة فما كاد الرجال ينهون كلامهم حتى رفعت يديها تقول: «إلهى ما أرأفك وألطفك بعبادك، وقالت للمرأة العجوز بكم كنت تبيعين الغزل؟فقالت: بعشرين درهم فقالت لها أبشرى إن الله عوضك بها خمسمائة.. فأخذتها العجوز ودعت للسيدة نفيسة بزيادة البركة التى تحققت لها على يديها.

لقد ظلت السيدة نفيسة رافعة راية العلم فى مصر حاملة راية الجهاد فى الدين قائمة بكل ما يجب عليها لعباد الله لا تنام من ليلها إلا أقله ولا تفطر من نهارها إلا أيسره وهكذا حتى كانت سنة مائتين وثمان للهجرة فى شهر شعبان حيث أصابها مرض شديد ولما دخل شهر رمضان وقد كانت تسأل الله أن يبلغها شهر رمضان فهو شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار كان المرض قد اشتد وما كاد الطبيب يراها حتى أمرها بالفطر فجسمها أصبح أضعف من أن يقوى على الصوم وحتى عن الحركة لأداء الصلاة ولكنها كانت تتمنى أن تلقى وجه ربها وهى صائمة فقالت تعبر عن شوقها إلى رؤية وجه الله وهى صائمة فى شهر رمضان:

اصرفوا عني طبيبى	ودعونى لحبيبى
زاد بى شوقى إليه	وغرامى فى لهيبى
لا أبالى بفوات	حين قد صار نصيبى

ثم بعد أن انصرف الطبيب أشارت إليهم أن اكشفوا هذا الستار خلفى فلما كشفوه إذا وراءه قبر محفور كانت قد حفرته فى دارها تقرأ فيه القرآن وقالت هذا قبرى ها هنا أدفن إن شاء الله وقد قرأت فى هذا الموضع ألف

ختـمة قرآن وصليت فيـه نحو مائة ألف ركـعة لله وذكرت الله تعالى فـيه أضعاف ذلك وأرجو الله أن يوسعه لى فـإذا مت فأدخلونى فيه. ولما قدموا لها كوب ماء وقالـوا إن الله تعالى أباح لك الفطر لشدة مرضك ردت الماء وقالت منذ زمن وأنا أسـأل الله وأدعوه أن يقبلنى وأنا صائمـة إننى سأفطر على الرحيق المختوم فى دار الخلد والنعيم إن شاء الله.

وظلت تردد آى القـرآن الكريم فى لذة المستـمتع بكلام الله تعـالى لا تخطئ فى حرف منه رغم اشتداد المرض ولم تسقط منها كلمة ليلا أو نهارا حتى إذا وصلت إلى [الآية ١٢٧] من سورة الأنعام ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، خفت صوتها وضعف وهدأت فى قراءتها ورأسها الشريف مـسند إلى صدر زينب بنت يحيى التى كانت تقوم على خدمتـها، ثم سكت لسانها إلا عن كلمة الشـهادة تنطق بها والمؤذنون على المنارات يؤذنون لصلاة الظهر عندئذ صعدت روحها الطاهرة إلى بارئها راضية مـرضية ترحب بهـا السماء وتفتح لهـا أبواب الجنان وكان ذلك فى اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان فى السنة نفسها.

ولم يكد ينتشر خبر وفاتها حتى جاء المصريون من كل مكان وتوافدوا على دارها وأصروا على أن يصلوا عليها كلهم فلم يتسع المكان لهم فصلوا جمـاعات جماعـات وكانت دموعهم تجـرى من أعينهم كالطوفـان المتدفق فكان يوما مـشهودا وخـرج الجميع رجالا ونسـاء وحتى الأطفال ليـودعوا صاحبة القلب الرحيم والعقل الراجح وحاملة النور المحمدى والعلم النبوى إلى الناس والتى أسعدت الناس فى حياتهـا بالخيرات والبركات والكرامات

وبعـد موتهـا أسعـدت قلبهم بسكنـى قبـرها فى المكان الطاهر الذى ضم جثمانهـا الطاهر حيث تشبث المصريون بها وأصروا على ألا ينقل جـثمانها إلى البقـيع بالمدينة المنورة كما رغب زوجـها عندما جاء من المدينة ليـحمل جثمانها إلى البقيع ليدفن مع جدتـها السيدة فاطمة الزهراء وبقية آل البيت غير أن المصـريين توسلوا إليه ألا يفعل ولم يتركـوا حيلة ولا وسيلة وبات الناس عند قبرها فى تلك الليلة يبكون ويدعون الله ألا تنقل السـيدة نفيسة من بينهم وألا يريهم الله فراق السيدة نفيسة وقد استجاب الله لهم ورحم قلوبهم ودموعهم واستجاب زوجها وبقيت السيدة نفيـسة فى ضريحها المنير والذى يدل بنوره علي أن ههنا ترقـد بقية النبى وحفـيدته ﷺ نفيـسةالعلم وبركة مصـر وقرة عين المسلمين يجدون في مقامـها راحة القلوب وسكنى النفوس ويـشمون عطر النـبوة الطاهر فى هذا المقـام الفسيـح الذى أجمع الجميع أنه موضع الراحة والرحمة والسـكينة ببركتها وقد قال زوجها إسحق المؤتمن للناس قبل عـودته إلى المدينة: يا معشـر المصريين هنيئا لكم ببـركة السيدة نفيسـة بين ظهرانيكم فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت رسول الله ﷺ في منامي الليلة يقول لي: «دع نفيسة بنت الحسن للمصريين حيث هى فإن الله عز وجل ينزل عليهم الرحمات ببركـاتها» وما كان الناس يستمعون إلى هذا الكلام حـتى قاموا يصلون لله شكرا ثم قـال أحدهم مـا كان الله ليحرم أرض الكنانة من بركة السـيدة نفـيسة بعد أن عطرت أنفاسها الطاهرة أرجاءها ووطأت أقدامها الكريمة أرضها وترابها.

فـسلام الله على السـيدة نفيسة فى مقامها وعلى آل البيت الأطهار أينما كانوا ورضي الله عنهم أجمعين ونفعنا ببركاتهم وبعلمهم آمين.

ولا يجب أن تذكر مناقب السيدة نفيسة ولا يذكر معها أبوها الحسن الأنور الساكن ضريحه المضيء في مصر القديمة فهو ابن زيد الأبلج بن الإمام الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه من أشراف العلويين ولقب بالأنور لوضاءة وجهه وقد كانت له الدعوة المجابة والرأي السديد كما اشتهر بالكرم والسخاء والعلم الوافر وقد ولي المدينة المنورة في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وقيل إنه لما توفي أبوه وترك عليه دينا قدره خمسة آلاف دينار أقسم الحسن ألا يستظل بسقف إلا سقف مسجد جده المصطفى ﷺ حتى يوفي دين ابيه للناس فأعانه الله على ذلك فوفى دين أبيه.

وكان أبوه رضي الله عنهما كثيرا ما يأخذ بيده ويدخله قبر رسول الله ﷺ وبعد أن يسلم على جده يقول هذا ولدي الحسن أنا عنه راض فرأي رسول الله ﷺ في المنام يقول له «وأنا راض عن ولدك برضاك عنه».

وقريبا من قبر سيدي حسن الأنور بمصر القديمة يقع قبر ومسجد سيدي زيد بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين رضي الله عنهم وهذا القبر مشهور لدي العامة بقبر زين العابدين نسبة إلى أبيه علي زين العابدين الذي قال فيه الشاعر «الفرزدق» هذه الأبيات:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

●●●

سيــــدى زيد الأبلـــج رضي الله عنه

ومن الأحفاد الأتقياء جد السيدة نفيسة سيدى زيد الأبلج رضي الله عنه، وهو ابن الإمام الحسن السبط رضي الله عنه بن الإمام على كرم الله وجهه، وإليه تنسب الشيعة الزيدية، وكان من أعبد الهاشميين وأتقاهم وكانت شجاعته نادرة فكان من خوف الأمويين منه يمنعون الناس عن مجلسه، فقد كانت لديه مقدرة فائقة علي استمالة القلوب إلى آل البيت بسحر بيانه وفطنته. وصفه أحدهم فقال: رأيت زيد بن الحسن بن على فلم أر فى أهله مثله ولا أعلم منه ولا أزهد، كان أشدهم زهدا وأفصحهم لسانا وبيانا، وكان دائم التطلع إلى الخلافة، ويرى أنه أحق بها من بنى أمية، فلما بلغ ذلك الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك أرسل إليه وقال له: بلغنى أنك تروم الخلافة وأنت لست أهلا لها لأن أمك أمة، فرد عليه زيد على الفور: قد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كذلك، أمه هاجر، بينما إسحق أخوه، فأمه السيدة سارة، حرة، وكلاهما نبيان من أنبياء الله، وقد أخرج الله تعالى من صلب إسماعيل خير ولد آدم جدى ﷺ، فما تقول أنت؟

عندئذ سكت هشام وأفحم،ثم قال له: قم فانصرف، فرد عليه زيد في شجاعة: إذن لا تراني إلا حيث تكره، وهو يردد هذه العبارة: «ما أحب أحد الحياة إلا ذل».

وعندما قرر العودة من الكوفة إلي المدينة المنورة ألح عليه أهل الكوفة أن يظل معهم، وإنهم سينصرونه على بنى أمية، وأخبروه أنه لم يبق من بنى أمية إلا نفر قليل، وقالوا له: نحن نريدك لتكون الخليفة

علينا، ولكن عندما اشترطوا عليه أن يتبرأ مما فعله أبو بكر وعمر، رد عليهم قائلا: كلا، بل أتولاهما ما حييت، فهددوه وقالوا له: إذن نحن نرفضك، فقال لهم: اذهبوا حيث شئتم فأنتم من الآن الرافضة، فسموا بهذا الاسم من ذلك الوقت. غير أن طائفة مهم تبرأت من كلام هؤلاء النفر وعادوا إليه، فقبلهم وأطلق عليهم «الزيدية»، وكثير منهم يعيشون في اليمن.

وظل يجاهد بني أمية حتى استشهد رغم حسن بلائه في القتال حيث أصابه سهم طائش في شهر صفر سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة وكان عمره آنذاك اثنين وأربعين سنة واختلف أصحابه في موضع دفنه وقيل أنهم دفنوه في حفرة ليخفوه عن أعين أعدائه، غير أن بعض أتباع خلفاء بني أمية تتبعوا جثته وأخرجوها وحرقوها وذروها في نهر الفرات وكان أحد أعوانه يقول لبني أمية وأتباعهم: والله لتأكلون وتشربون دماءه في طعامكم يا أيها الظلمة.

رضي الله عن سيدي زيد الأبلج حفيد رسول الله ﷺ وعن سائر أهل البيت الأحفاد والذرية الطاهرة ذرية خير خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلي آله وسلم، فقد أوجب علينا مودتهم ما حيينا

●●●

نقابة الأشراف فى مصر

وامتدادا للأحفاد، فقد جرى العرف فى عصرنا على أن يسبق اسم المنتمى إلى ذرية الإمام الحسن والحسين لفظ «شريف»، كما أنه قد عادت للأشراف فى مصر مكانتهم التى كانت قد سلبت منهم لفترة طويلة، والتى كانت حقا لهم منذ الدولة الأيوبية فى مصر، حيث كانت لهم أوقاف واسعة وكثيرة، وقد زادت هذه الأوقاف فى أيام المماليك والأتراك، وكان لنقيب الأشراف مكانة مرموقة تلى مكانة شيخ الإسلام، وكان له نواب عنه فى المدن والقرى، وكان أشهر النقباء فى مصر السيد عمر مكرم،وبعده الشيخ توفيق البكرى، ثم ألغيت النقابة فى بداية عهد الثورة، ثورة يوليو سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف غير أن بعض الأشراف أصروا على المحافظة على نقابتهم وعلى مكانتهم، واستمروا يزاولون نشاطهم فيما بينهم بصفة غير رسمية إلى نهايات هذا القرن العشرين.

غير أنه خلال هذه الأيام، وفى الأعوام الأخيرة من القرن العشرين، اجتمع شمل الأشراف وأعيدت لهم النقابة المعتمدة من الدولة، وأصبح للنقابة نقيب ومبنى كبير. وإذا رجعنا إلى تاريخ نقابة الأشراف بمصر، نجد أنها أسست أثناء حكم محمد على، وكانت تابعة لمشيخة الطرق الصوفية، وكثيرا ما كان نقيب الأشراف يشغل منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى نفس الوقت، وكان الهدف من إنشاء النقابة هو قيام أبنائها بالحفاظ على مبادئ الدين وسنة الرسول ﷺ. وكان عدد أعضاء النقابة فى عهد آخر نقيب عند قيام الثورة المصرية وهو السيد محمد على البيلاوى حوالى

مائة وأربعين ألفا تقريبا، وفى هذا الوقت توقفت النقابة عن مزاولة نشاطها.

ولكن الآن يتم تعيين نقيب الأشراف بقرار جمهورى بعد أن يرشحه الأشراف، وكان من قبل يعين بأمر السلطان، ثم بأمر ملكى. وفى هذه الأيام يشغل منصب نقيب الأشراف السيد محمود كامل يس الرفاعى، شيخ الطريقة الرفاعية فى مصر، ويعتبر أول نقيب للأشراف بعد أن كان قد جُمِّدَ نشاط النقابة لمدة ثمانية وثلاثين عاما منذ عام ثلاثة وخمسين إلى عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف. ويرجع نسب نقيب الأشراف إلى القطب الكبير أحمد الرفاعى رضي الله عنه.

ويرجع البعض تاريخ الأشراف فى مصر إلى أيام دخول السيدة زينب رضى الله عنها مصر عقب استشهاد الإمام الحسين عام ستين وواحد للهجرة، وكان معها جماعة من أهل البيت، ومن ذريتهم كانت بداية الأشراف،وبعد ذلك ومنذ أسست نقابة الأشراف يقوم كل من يرغب فى تسجيل نفسه وأبنائه بتقديم ما يثبت نسبه إلى ذرية النبى ﷺ من نسل الإمام الحسن أو الحسين، وهذا التسجيل لا يعطى المنضم للنقابة أى تمييز على غيره، بل يعتبر تكليفا له ومسئولية ليكون أهلا لحمل هذا اللقب، ويصل عدد الأشراف الآن فى مصر إلى حوالى نصف مليون، وتقوم النقابة بمنح الشريف مبلغا رمزيا قدره عشرة قروش للشريف وخمسة للشريفة فى العام من إيرادات الأوقاف الخاصة بالأشراف، وهذا المبلغ يعتبر على سبيل البركة.

واليوم، بدأت النقابة فى ممارسة نشاطها فى خدمة الدين فى شتى المجالات، ولها نواب فى جميع المحافظات، وكل من ينتسب إلى هذه النقابة يعلم جيدا أنه مطالب بأن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة، لأنه يقوم بعملية التواصل مع أهل البيت الأطهار، ذرية المصطفى ﷺ.

ويصل عدد الأشراف في مصر من بداية عام ألفين حوالى خمسة ملايين شريف كما جاء في مجلة «أهل البيت»، ينتمون إلى الذرية الطاهرة، وأكثرهم يعيشون فى صعيد مصر فى محافظات أسوان وقنا وسوهاج. ومعروف أنه يسبق اسم المنتمي إلى النقابة لقب (شريف)، وهناك لجنة متخصصة فى التاريخ الإسلامى مهمتها التأكد من صحة نسب المنتمى للنقابة، وتقوم النقابة الآن بمساعدة المحتاجين من أبنائها عن طريق صندوق تكافل اجتماعى، وجميع أموال هذا الصندوق من مساهمات الأشراف فقط، كما تجمع النقابة مختلف الفئات الاجتماعية والثقافية من المنتمين إلى الذرية المباركة من أهل البيت.

كما أن هناك أعداد كبيرة من هؤلاء الأشراف المنتمين إلى ذرية آل البيت فى جميع الأقطار العربية والإسلامية، يشعر كل واحد منهم أنه مكلف بأن يكون قدوة لغيره فى سلوكه، وهم يلقون من الناس الاحترام والتقدير لهذا الشرف الذى أولاهم الله سبحانه وتعالى.

لقد بدأ تسجيل المنتمين إلى الأشراف منذ العصر العباسى حيث كانت نقابة الأشراف تقوم بتسجيل أنسابهم وإدارة أوقافهم وتحفظ حقوقهم، ومن أشهر من تولى هذه المهمة فى القرن الثالث الهجرى، الشريف الرضى الشاعر المشهور فى العصر العباسى، وقد أنشأ العباسيون فى ذلك الوقت نقابة خاصة بهم فى بغداد تضم الأشراف من نسل العباس عم الرسول ﷺ لله خاصة.

وفى العهد الفاطمى أنشأ الفاطميــون فى مصر نقابة للأشراف لتجمع شمل الأشـراف من ذرية الحسن والحسين خاصــة، وقد تولى هذا المنصب المرموق الخليفة المعز لدين الله، وفى عهد دولة الأيوبيين والمماليك فى مصر لقى الأشراف كل رعاية لكن دون وجــود نقيب لهم، وظل حال الأشراف هكذا حتى عهد الدلة العــثمانية حيث عينت الدولة نقــيبا لهم، وكان هذا النقيب أو كبــير الأشراف له مكانة مرموقــة، فكان يشترك فى ديوان الوالى العثمانى ويشرف على أملاك الأشراف من خلال نقابتهم كما كان ينظر فى قضاياهم.

واستمــر هذا الوضع إلى زمن الحملة الفرنســيةعلى مصر عــام ثمانية وتسعين وســبعمائة وألف لــلميلاد، حيث كـان يتولى النقابة الســيد خليل البكرى، وبعــد وفاته تولاهــا السيــد عمــر مكرم الحــسنى فى هذه المرحلة التاريخية الحاسمة حيث ظهــرت المواقف الوطنية العظيمة للسيد عمر مكرم الزعيم الشــعبى فى مواجهــة الاستعمــار الفرنسى، ومن هذه المواقف ثورة القاهرة ضد الحــاكم الفرنسى كليبر ثم مــساعدة محمــد على فى الوصول إلى الحكم بعد مــقتل كليبــر والتخلص من الاستــعمار الفرنسى، غــير أن محمد على تنكر له ونفاه وعين السيد مــحمد السادات نقيبا للأشراف، ثم تتابع تعيين النقباء بعد ذلك حتى عين الخــديوى عباس حلمى السيد محمد توفيق البكرى نقيبا للأشراف عام خمسة وتــعين وثمانمائة وألف بالإضافة إلى مهمتــه كشيخ مشايخ الطرق الصوفية، ومن بعــده شغل المنصب السيد عمر مكرم حــفيد السيد عمــر مكرم الكبير، ومن بعده السيد مــحمد على البيلاوى الحسنى حــتى عام ثلاثة وخمســين وتسعمــائة وألف حيث جمدت النقابة ولم يعين أحد بعده وحتى عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف حيث عين السيــد أحمد كــامل يسن النقيب الحــالى وإلى الآن وقد أنشــأ نقابات

فرعية تهتم بتحرى الدقة في تحقيق صحة الانتساب إلى الأشراف ومن أهمها لجنة الأنساب التابعة للنقابة الأم بالقاهرة.

وكما ذكر السيد نقيب الأشراف أن على الشريف واجبات أولها أن يؤكد بسلوكه أنه قدوة متأسيا برسول الله ﷺ، فيدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما يجب أن يؤكد أنه أهل للانتساب لأهل البيت المطهرين عن طريق إخلاصه لعمله ولوطنه بسلوكه المتميز وأداء العبادات مع ملاحظة أن الشريف لا يجب أن ينسى أن التفاضل بين الناس ليس إلا بالتقوى والعمل الصالح، فالانتساب إلى سلالة النبى ﷺ شرف لا يغنى صاحبه عن الالتزام بالشرع التزاما تاما.

والمهم أن يجمع الشريف بين هذا الفضل والعمل الصالح والتقوى، فقد قال رسول الله ﷺ عندما سئل عن آل محمد قال: «كل تقى» فعلى كل شريف أن يكون على تقوى ليجمع بين الشرفين شرف الانتساب وشرف العمل الصالح والتقوى.

ولفظ الأشراف مأخوذ من الشرف، والشرف هو علو النفس بمكارم الأخلاق، وكان هذا اللفظ يطلق قديما على الرجل الماجد النبيل ومن كان كريم الآباء ثم أطلق على من كان من آل بيت النبى ﷺ شاملا العلويين والعباسيين والجعفريين، ولكن لما ولى الفاطميون مصر قصروا لقب الشريف على ذرية الحسن والحسين رضى الله عنهما، وبقى هذا اللقب متعارفا عليه حتى الآن، والأشراف يعتبرون أنفسهم امتدادا للأحفاد، أحفاد النبى ﷺ وليس هذا اللقب إلا دافعا لهم ليظلوا أهلا للاحتفاظ بهذا النسب الشريف وما يتطلبه من الالتزام بالسلوك القويم والأخلاق الكريمة.

●●●

حول زيارة القبور

لم يختلف العلماء في نفع الدعاء للأموات لثبوته بنص القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الحشر﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

أما العبادات فقد اختلف العلماء في وصول ثواب من يؤديها بنية وصول ثوابها للموتى، وكذلك تلاوة القرآن وإهدائه للموتى، فهم ما بين معترض ومؤيد، فيما عدا فريضة الحج، غير أنه ورد أن الصحابة كانوا يعتمرون ويهدون ثواب العمرة لرسول الله ﷺ، ومنهم ابن الموفق وابن عمر أيضا، كما ورد أن رجلا يسمى «السراج» ختم عشرة آلاف ختمة قرآن وأهدى ثوابها لرسول الله ﷺ.

ويرى العلماء أنه يفضل لمن يتصدق نفلا أن ينوي بصدقته جميع المؤمنين والمؤمنات، فإن ثوابها يصل إليهم ولا ينقص من ثوابه شيء.

ومن العلماء من رد على منكري زيارات قبور الأولياء والصالحين بحجة وقوع بعض المنكرات، فقالوا في ردهم؛ لا يجب أن تترك القربات والأعمال الصالحة لمثل هذه الأسباب، كاختلاط الرجال بالنساء عند القبور، لكن الواجب أن يؤدي الإنسان الزيارة وهو ينكر ما يراه منكرا، فإن زيارة القبور مندوبة والرحلة إلى المندوب مندوبة كذلك. وقد قال رسول الله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة» الحديث عن ابن مسعود، ولقد شرعها رسول الله ﷺ لأنها تذكر بالآخرة وتحث على الزهد في متاع الدنيا وعدم الاغترار بها والإقبال على

الأخرة، هذا مع ملاحظة أن قبر رسول الله ﷺ يزيد في فضله على ذلك، فالزائر يرجو شفاعة رسول الله ﷺ فتحصل للزائر منفعة عظيمة إذا شملته شفاعة رسول الله ﷺ ، فقد قال ﷺ «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»، والحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما.

ولا شك أن أولياء الله هم أقرب الناس إلى خالقهم بعد الأنبياء، وهم فى درجات عليا عند ربهم ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]، والناس حين يثقون فى ولاية واحد من أهل الله المتقين، فإنهم يعتقدون فيه البركة التى ينالونها على يديه فى حياته متمثلة فى دعائه وفى خيره الذى يصلهم بواسطته من عند الله تعالى، ولم تكن هذه الثقة قد جاءتهم إلا بعد ممارسات وتجارب أكدت لهم أن له عطاء من عند الله يستفيد منه أهل محبته ويستشفع به عند الله فى حسن ظن به، ولم تنقطع هذه البركة بعد وفاته.

والذى ثبت أن زوار أهل البيت والأولياء الصالحين فى أضرحتهم ليسوا جميعا من العوام الذين لا تكتمل الثقة فى زواياتهم، بل المشهور أن من هؤلاء المترددين على المزارات من أهل العلم والثقافة ومن أهل الثقة الذين لا يشك فى رواياتهم، وهذا يدل على أن الذين يذوقون حلو الزيارة ويشعرون بجمالها يلزمون أنفسهم المداومة عليها، وينشدون الراحة النفسية والسكينة فى هذه الرياض الطيبة. فقد وصلوا إلى حد الاعتقاد بأن الضريح فى مكان طاهر يستجاب فيه الدعاء، وهذا الأمر مجرب لديهم، ومن يأتى إلى مكان طاهر كهذا فإنه يكون فى حالة قرب من الله تعالى، فالملائكة ترفرف حول الطهارة والتقوى، وبإذن الله تقضى حاجات الزائرين ويستجاب دعاؤهم عندها.

وإن قيل إن الإنسان بعد الموت يبلى، ألا يعلم أن الروح موصولة بالجسد تحوم حوله، وإلا فما فائدة قراءة السلام على الأموات عند القبور؟ وما فضل دعاء الولد الصالح لأبيه وهو في قبره، وقد سن رسول الله ﷺ لنا ذلك، وأمرنا القرآن بذلك، ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ولقد جاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة بضرورة الحرص على زيارة الأضرحة وتذكر يوم الحساب وهي عامة في كل الأيام عند الحنابلة، وعند الشافعية من عصر يوم الخميس إلى طلوع يوم السبت، وعند المالكية والحنفية تكون الزيارة أيام الخميس والجمعة والسبت، كما اهتم أئمة المذاهب بزيارة قبور الصالحين، لأن هذه الأماكن تأنس لها الملائكة ويستجيب الله فيها الدعاء، فإن الصالحين كانت لهم أعمال وأنوار من الله، ونور الله لا يُحْجَبُ عنهم أحياء وميتين.

وإذا كان هناك من ينهى عن زيارة الأضرحة من باب سد الذرائع، فهذا قياس مع الفارق، لأن الذين كانوا يتجهون إلى الأصنام كانوا كفارا مشركين يعبدونها، بينما هؤلاء مسلمون موحدون يحبون أصحاب القبور، وفرق بين المحبة والعبادة، بدليل أن الزائر المسلم يصلي لله ويعبده في نفس المكان ولا يصلي إلا لله قبل الزيارة.

ولقد كان الأئمة والصالحون حريصين على زيارة أضرحة أهل البيت، ومنهم الإمام الشعراني رَحِمَهُ اللهُ، وكان شيخا للأزهر. يقول في كتابه «المنن»، ومما من الله تعالى به عَلَيَّ، زيارتي بين فترة وأخرى لآل البيت الذين دفنوا في مصر، كلهم أو بعضهم، حيث أزورهم في السنة ثلاث مرات بقصد صلة رحم رسول الله ﷺ، ولم يكره ذلك أحد إلا لقلة فهمه وإدراكه لمنزلتهم أو لعدم ثبوت دفنهم في قبورهم المقامة. وهذا جمود، فإن الظن يكفينا في كل عمل خير.

وإن المؤمنين لا يلجأون إلى قبور الأولياء الصالحين وآل البيت المطهرين إلا حبا فيهم، واتعاظا وتأسيا بأخلاقهم، وكذا ترحما واستغفارا من الزائر للمزور، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب خير للإثنين، وكل من ترجى بركته فى الدنيا ترجى بركته كذلك فى الآخرة، فإن للصالحين شفاعة لإخوانهم عند الله تعالى.

كما أن لروح الميت تعلقا شديدا بجسده، وعندما يقف الزائر عند القبر وخاصة قبور الصالحين تتلاقى الأرواح، فيسلم الزائر وترد روح المزور السلام، ومن هنا تكون الزيارة سببا لراحة الزائر والمزور، ولهذا شرعت الزيارة، كما أن اتصال أرواح الأموات بالأحياء ثابت بالسنة.

وإذا كان البعض يخشى على الزائر الوقوع فى الشرك، فلينظر إلى الزائر وهو يتوجه إلى القبلة يدعو الله ليقينه أن المعبود هو الله وأن التوجه إليه بالدعاء هو الله تعالى سبحانه لا غير. وليس هناك بين الزائر والمزور إلا علاقة اتصال روحى تسرى بينهما.

وفى الأثر أن الملكين الموكلين بالعبد فى الدنيا يقولان عندما يموت العبد يا رب مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سماواتى مملوءة من ملائكتى يسبحونى، فيقولان، ربنا نقيم فى الأرض، فيقول الله تعالى، إن أرضى مملوءة من خلقى يسبحوننى، فيقولان يا رب فأين نكون؟ فيقول الله تعالى: كونا على قبر عبدى فكبرانى وهللانى وسبحانى واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة» (القرطبى).

ومع هذا فإن هناك من يرفض الزيارة وحتى الصلاة فى هذه المساجد متعللا بمفهومه من الحديث الشريف «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد

المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى». غير أن الواضح من معنى الحديث أن هذه الصيغة لا تفيد المنع من الرحلة إلى مساجد غير المذكورة، بل تفيد التفضيل لثواب الصلاة فى هذه المساجد على غيرها، فقد كان رسول الله ﷺ ومن بعده الصحابة الكرام يشدون الرحال للصلاة فى مسجد قباء بضواحى المدينة المنورة، ومن هنا فإن شد الرحال إلى بيوت الله غير ممتنع، ولكن ثوابها أقل من شدها إلى هذه المساجد الثلاثة المذكورة فى الحديث الشريف، كما أن التضييق على المسلمين فى زيارة الأولياء فى قبورهم وأضرحتهم بعد الصلاة لله فى هذه المساجد الملحقة بها أضرحتهم يمنع خيرا عن المسلمين، ولقد بلغت المغالاة فى النهى بالبعض إلى إبطال الصلاة إذا كانت نية المصلى بعدها هى الزيارة، فتلك دعوى فيها تضييق وتعطل بيوت الله بينما قال رسول الله ﷺ «جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا» وقال «ألا وقد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها».

وكلمة أخيرة نقولها لمن يقاطع زيارة أهل البيت والأولياء الصالحين، ويتشكك فى الصلاة فى المساجد المسماة بأسمائهم أو التى تضم قبورهم وأضرحتهم إذا كان الهجر لكل مسجد فيه قبر لهجر مسجد رسول الله ﷺ، ففيه دفن إلى جوار رسول الله ﷺ سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضى الله عنهما، ويزور المسلمون والسلف الصالح القبر الشريف ويسلمون على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بعد أداء واجب العبادة لرب العالمين، بل إن الصلاة فى المسجد النبوى بألف صلاة فيما سواه، ولما قال رسول الله ﷺ «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[1] وقياسا على ذلك قال الإمام النووى، يسن الإكثار من زيارة القبور والإكثار من الوقوف عند قبور أهل التقوى والصلاح.

كما قال ابن الحجاج فى مدخله: ما زال العلماء كابرا عن كابر مشرقا ومغربا يتبركـون بزيارة قبور الصالحين، فإن بركتهم جارية بـعد موتهم كما كانت فى حياتهم.

وإن السفر لأجل العبادة يدخل فى جملة زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء.

فما القول بعد ذلك فى زيارة أضرحة أهل البيت الذين وصانا رسول الله ﷺ بمودتهم وحـدّث عن فضـلهم، فمن اعـتـقد خـلاف ذلك فهـو المحروم، ولذلك تبارى أهل المحبة فى الحديث عن فـضل زياة أهل البيت أحفاد النبى ﷺ خاصة فى كل عصر وزمان.

وما أصدق المحب شاعر الأولياء الشيخ على عقل حين أنشد:

يقولـون من هم قلت آل محـمد ... همـو ثقـتى روحى لهم تتـبتل
وحبهمو فرض علي الكل واجب ... بنص حـديث لـلبـرية يشـمل
ومـعناه أنى تارك فيكم الهـدى[1] ... كتـابى وأهلى وعترتى فهـو أشمل
إذا اتخـذت جـاه الملوك وسيلة ... فـإنى بأهل المصطـفى متـوسل
على بابهم ما دمت حيا وإن أمت ... يؤانسنـى منهم ضـيـاءٌ مـجـمَّلُ
وآتى بأصـحابى إلى باب عـزهم ... يقـال لنا تحت السـتـار ألا ادخلوا
فأعتـابهم من فوق رأسى نسيـمها ... كـأنى بدار الخـلد إذ أنا أنـهل

ويدعو الولى الشيخ صـالح الجعفرى رضي الله عنه الزائر إلى تطهـير قلبـه بتلاوة القرآن وبالصـلاة على رسول الله ﷺ لكى ينال بركة الزيارة وتكون نافعة بإذن الله، فيقول:

نحن آل البـيت يا مـن جئـتنا ... طهـر القلـب إذا مـا زرتـنا
واذكـر المخـتـار طـه جـدنا ... واقـرأ القـرآن تـلقـى وُدّنا

(١) عن على وأبى هريرة رضى الله عنهما.

وقال العارف بالله أحمد الحلواني في قصيدته «الحلواء» في مدح ابناء الزهراء» رضي الله عنها.

بنفسي أفدى الزهر من بضعة الزهرا وإن هم رضوا نفسي فقد عظمت قدرا

هم الدين والدنيا لعمري همُ همُ فقل ما شئت فيهم لا ترهبنّ نُكرا

وعال بهم من شئت إن ذكروا العلا وفاخر بهم من شئت إن ذكروا الفخرا

بدور سمت عن شمس أكرم مرسل أناروا دياجي الكون بالطلعة الغرّا

وبالحلم والندى وبالبر والتقوى وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى

ومن ذا يداني أو يقارب بضعة لهم تنتهي العلياء والرتبة الكبرى

محبتهم باب الرضا ورضاهمو يسام بأرواح المحبين لو يُشرى

فيا من يواليهم ويحفظ ودهم ويكرم مثواهم هنيئا لك البشرى

فلا بد يوم العرض تسمع قائلا تفضل تفضل فادخل الجنة الخضرا

وربما يكون صاحب «الكشاف» قد أوضح المقصود بآل البيت في تعليقه على حديث رسول الله ﷺ أنه لما نزلت الآية ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

سُئل رسول الله ﷺ: من قرابتك هؤلاء يا رسول الله الذين وجبت علينا مودتهم، فقال: «علي وفاطمة وابناهما»، أي الحسن والحسين، فثبت أن هؤلاء الأربعة هم أخص أقاربه ﷺ، وهم المخصوصون بمزيد من الفضل. ويستدل على ذلك بأن رسول الله ﷺ كان يحب فاطمة رضي الله عنها لقوله «فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»، (أحمد والحاكم في مسنده)، كما ثبت بالنقل المتواتر أنه ﷺ كان يحب عليًا، فقد تولى تربيته وعشره معاشرة الأب والأخ، وكذلك الحسن والحسين، فقد دعا لهما وأشهد الناس على حبه لهما، وما دام ذلك قد ثبت، فقد أصبح

لزاما على الأمة محبة هؤلاء الأربعة لقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ويدل كذلك على لزوم ووجوب محبة آل البيت، هذا الدعاء لهم فى التشهد فى كل صلاة : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»، وهذا دعاء لهم بالصلاة التى هى الرحمة من الله تعالى عليهم.

ولهذا، فقد أظهرت مصر تعاطفا كبيرا مع أهل البيت أيام كربلاء وبعدها، فأحسنت استقبال السيدة زينب ومن معها من آل البيت حين اختارت مصر مقاما لها عقب مقتل الحسين رضي الله عنه. ومع أن الخلفاء العباسيين حاولوا فيما بعد إخماد شعلة التعاطف لدى المصريين مع آل البيت، إلا أن المصريين ازدادوا تعاطفًا وحبا لهم، ويشهد على ذلك كثرة الأضرحة التى تضمها مصر لآل بيت النبى ﷺ، ولإيثارهم الإقامة فيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية، رغم أن بعض الحكام فى الشام وفى العراق كانوا يرسلون رءوس القتلى من آل البيت إلى مصر لتخويف أهلها من الالتفاف حول آل البيت والتعاطف معهم، لكن ظل المصريون أكثر الناس حبًا لهم، مع أنه كانت ظاهرة التنكيل بالعلويين من ذرية الإمام على على امتداد العصرين الأموى والعباسى، فيما عدا بعض الخلفاء الذين عرفوا حق آل البيت ومنزلتهم، مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذى لم يكن يخاف على ملكه وسلطانه مثل باقى الخلفاء الأمويين، ومثل الخليفة العباسى، المأمون، الذى كان بطبيعته يميل إلى أهل البيت، فقد قرب الإمام علىّ الرضا منه، ثم ولاه العهد فى حياته، ووصى له بالخلافة، غير أنه لم يتم له تولى الخلافة لوفاته رضي الله عنه.

ولقد عرفت مصر حب آل البيت المحمدى منذ عرف أهلها حب رسول الله ﷺ أخذا من توجيه الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُل لاَّ أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

ومن توجيه رسول الله ﷺ **«أحبوا الله لما يغذوكم به من نعم، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي لهم»**، (عن ابن عباس رواه الترمذى والحاكم)، وإن كان هناك من يشكك فى سكنى آل البيت أضرحتهم فى مصر، فنحن نعلم أن تاريخ الإسلام بصفة عامة كتبه رجال ثقة، ومنهم المقريزى، الذى عرض لموضوع رأس الحسين فقال في خططه (جـ ٢، ص ١٧١):

«وبنى الصالح طلائع الوزير مسجدا للرأس خارج باب زويلة من جهة الدرب الأحمر، وهو المعروف بجامع الصالح طلائع، فغسل الرأس فى المسجد المذكور على ألواح الخشب». ثم قال كذلك، وهو المؤرخ الثقة: «ثم نقلت رأس الحسين رضي الله عنه من عسقلان إلى القاهرة فى يوم الأحد ثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة».

وكذلك جاء فى كتاب «العدل الشاهد فى تحقيق المشاهد»، «أن عبد الرحمن كتخدا لما أراد توسيع المسجد المجاور للمشهد الشريف سنة خمس وسبعين ومائة وألف للهجرة، قيل له إن هذا المشهد لم يثبت فيه دفن رأس الحسين، فأراد التحقق من ذلك، فكشف المشهد الشريف بمحضر من الناس ونزل به العالمان الجليلان، الشيخ الجوهرى الشافعى، والشيخ الملوى المالكى، فشاهدا كما ذكرا بعد أن خرجا كرسيا من الخشب الساج عليه طست من الذهب فوقه ستارة من الحرير الأخضر تحتها كيس من الحرير الأخضر الرقيق داخله الرأس الشريف».

وعلى أية حال، فإن الإمام ابن الجوزى قال فى هذا المقام: «ففى أى مكان كان رأس الحسين أو جسده، فهو ساكن فى القلوب والضمائر، قاطن في الأسرار والخواطر».

ولهذا نقول، إن حب آل البيت وحسن الظن بأماكن أضرحتهم خير من الإعراض عن زيارتهم بحجج لا يقين معها، وصدق المحب القائل:

لا تطلبو المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب

وذروا الجميع ويمموا نحوى فمشهده بقلبى

ومن هنا فإن الزائر مُثاب على قراءة شيء من القرآن والدعاء لواحد من المسلمين، ومثاب على نيته بصلة رحم رسول الله ﷺ.

ومن العجيب أن أناسا قد حرموا أنفسهم من نعمة حب آل البيت لقصور فهمهم، لدلالة الآية الكريمة التى تقول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ولم يفطنوا إلى كلمة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ فى الآية التى تشير إلى العبادة بما فيها من ركوع وسجود. نقول لهم فرق كبير بين العبادة والمحبة، فأحباب أهل البيت يقولون، نحن نحبهم طاعة لوصية رسول الله ﷺ، وبعد أن نصلى لله ونركع ونسجد خشوعا وخضوعا إقراراً بأننا عبيد لله تعالى، وبعد أن نؤدى واجب الطاعة نؤدى واجب المحبة بالدعاء لأهل البيت إظهاراً لمكانتهم في قلوبنا. فالمعبود هو الله ولا أحد غيره، والمحبة له سبحانه ولرسوله ﷺ ولآل بيته، كما وصانا بذلك ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعم، وأحبونى لحب الله، وأحبوا آل بيتى لحبى». (عن ابن عباس رواه الترمذى والحاكم).

فلا يجب أن تكون الغيرة على الدين سببا فى قطع رحم رسول الله ﷺ، فحتى الرجل العامى حين يدخل مسجدا فيه ضريح يبدأ بأداء واجب

الطاعة وهي تحية المسجد بالصلاة، ثم يزور الولي ويدعو له ويقرأ ما تيسر من القرآن صلة وهدية له، وهذا العمل إنما يؤدى إلى شيوع المحبة بين المسلمين، كما أنه اقتداء بالصالحين وبيان منزلة أولياء الله الصالحين فى قلوب الناس.

والإمام الشافعى رضي الله عنه يقول: من لم يصل على الآل فى التشهد تبطل صلاته، فقال في هذا المعنى:

يا آل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم الفضل أنكمو من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له

ومعلوم أن رسول الله ﷺ لا يزيد في الدين شيئا من عنده، بل لا بد أن الله تعالى أوحي إليه أن يعلم المسلمين الصلاة والدعاء لآل البيت فى التشهد أن يقولوا فى التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. والمعنى كما ذكره سيدى محيى الدين بن عربى «اللهم صل على سيدنا محمد من حيث ما له آل كما صليت على سيدنا إبراهيم من حيث ما له آل، وحيث أن آل سيدنا محمد ليس فيهم نبيون، لأن النبوة والرسالة ختمت بسيدنا محمد ﷺ، فالمعنى ينصرف إلى آله ﷺ ليكونوا فى الفضل كآل سيدنا إبراهيم الذين فيهم أنبياء كسيدنا إسماعيل وسيدنا يوسف عليهما السلام، فالرفعة لآل سيدنا محمد لا له ﷺ، لأن مقامه معروف عند ربه، وهو أسمى مقام، وإنما الدعاء والصلاة فى التشهد لآل البيت وكل مسلم يفعل ذلك ويدل ذلك على أنهم مكرمون من الله تعالى ومن يحبهم يكرم بكرامتهم، ويحشر معهم إن شاء الله.

أهم المصادر

- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة .... شمس الدين بن محمد الزيات
- الطبقات الكبرى .... الإمام الشعراوى
- نور الأبصار في تاريخ آل بيت النبى المختار ... سيد الشبلنجى
- تحفة الأحباب وبغية الطلاب .... السخاوى
- الخطط التوفيقية .... على باشا مبارك
- تاريخ المساجد الأثرية .... حسن عبد الوهاب
- وفيات الأعيان .... ابن خلكان
- البداية والنهاية .... ابن كثير
- آل بيت النبى .... عبد الحفيظ فرنى وآخرون
- مراقد أهل البيت .... محمد زكى إبراهيم
- السيد البدوى شيخ وطريقة .... سعيد عبد الفتاح عاشور
- آراء حول السيد البدوى .... أحمد محمد حجاب
- أبو الحسن الشاذلى .... عبد الحليم محمود
- أبناء الرسول في كربلاء .... خالد محمد خالد
- التبرك المشروع والتبرك الممنوع .... على بن نفيع العليانى
- السيدة نفيسة كريمة الدارين .... النبوى سراج
- أبو الشهداء الحسين .... توفيق أبو علم
- مولانا الإمام الحسين .... حسن الملطاوى
- المواعظ والاعتبار .... المقريزى

- سيرة آل بيت النبي الأطهار .... مجدى فتحي السيد
- سكينة بنت الحسين .... بنت الشاطئ
- السمو الروحي في الأدب الصوفي .... أحمد عبد المنعم الحلواني
- آل بيت النبي في مصر .... أحمد أبو كف
- المسجد النبوى ومزارات أهل البيت .... إسماعيل أحمد والمؤلف
- أبو العينين الدسوقي .... عبد العال كحيل
- الوفا بأحوال المصطفى .... ابن قيم الجوزية
- حلية الأولياء .... أبو نعيم
- أعلام الساجد .... للزركشي
- حقيقة التوسل .... موسى محمد على
- الروح .... ابن قيم الجوزية
- مساجد مصر وأولاؤها الصالحون .... سعاد ماهر

●●●

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة